

يصدرها
حلمى مراد
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
أرواح هائمة
فى الأدغال
سومرست موم
من أروع ما كتب
الروائى العالمى الصيت

سومرست موم

أرواح هائمة في الأدغال !



THE TREMBLING LEAF
AH KING
THE CASUARINA TREE
BY:
SAUMERSET MAUGHAM

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها الان اثنان وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشا والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعدد العشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة واربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

وثمن النسخة ١٠ قروش ، عدا الاعداد : ١و٤و٧و١٩و٢٢و٣٤ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ ومن ٢٨ الى ٣٢ ومن ٣٥ الى ٣٧ ، و ٤٠ فثمن النسخة ١٢ قرشا - والاعداد ٣ و ٥ و ٦ - ٨ قروش ، ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتابى

التـرجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الرابع والاربعون

ارواح هائمة .. فى الادغال !

ترجمة : وديع سعيد

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

«سومرست موم» وهذه القصص الثلاث!

• **ليس** من شك فى ان انسحاب «سومرست موم» من مجال الانتاج الادبى سيخلف فراغا كبيرا . اذ أن «موم» تفرد بأسلوب معين ، ونوع من القصص ، وطريقة لعرض الاحداث وايراد الحوار فى رواياته ، من العسير أن تجتمع كلها معا فى أنتاج كاتب ما .. **كما أن أسفاره ورحلاته ، مكنته من أن ينقل قصصه بين مختلف الاجواء والاصقاع ، بحيث لا يمل القارىء الوفى له ، الذى يحرص على أن يقرأ له كل ماينتج ..** وليس يعزى مثل هذا القارىء سوى أن «سومرست» قد أنتج فى أعوام النشاط من حياته الادبية ، أنتاجا غزيرا ، وثروة قصصية طائلة : بين روايات ، وقصص طويلة ، وقصص قصيرة ، ومسرحيات .. ولم يدع ركنا فى عالم القصة الا ارتاده : فمن قصص عاطفية ، الى جريمة ، الى قصص وصفية وتصويرية ، الى مشكلات اجتماعية ، الى تحليلات نفسية دقيقة . **وكثيرا ما كان يجمع اونين او ثلاثة أو أكثر من هذه الالوان فى القصة الواحدة ..** ولعلك قد لمست هذه البراعة فيما قدمه لك «كتابى» من ملخصات لقصص «موم» ومسرحياته ، وفى قصة «الخاطئة» التى قدمتها لك «مطبوعات كتابى» فى رابع أعدادها .

نحو آفاق جديدة ..

• **ومناسبة** أعتزال «موم» الانتاج ، فرصة خليقة بأن تتطلب تقديم بعض تحفه الرائعة لك ..

ولكن اختيار التحف الجديرة بمثل هذه المناسبة ، لم يكن بالمهمة الميسورة .. فما أكثر ما أنتجته المطابع العربية من روايات «موم» وقصصه . ومع أن ما ترجم منها ترجمة

كاملة ، أمينة — لم تمتد اليها يد التحريف أو الاختصار — قلة ضئيلة ، الا أن اختيار المادة التى تجدها بين يديك — فى هذا العدد من ((مطبوعات كتابى)) — كان يتطلب البحث عن أنواع جديدة ، متباينة ، تتيح لك تنويعا يدخل شيئا من الجدة والطرافة على ماتقرأه من مواد قصصية فى العادة .

وكان أول عوامل الجدة والطرافة ، هو الانتقال من الاجواء القصصية التى ألفتها وعرفتها ، الى أجواء جديدة لم يسبق لك أن ارتدتها ، أو أن صلتك بها حديثة ، لم تتجاوز بعد مجرد الاستطلاع الذى يقف بك عند الحواف ، دون ايغال أو تعمق .. وهنا قفزت الى الذهن بقاع الشرق الاقصى : حوض المحيط الهادى،والجزر العديدة المتناثرة بين الساحل الاسيوى الشرقى وقارة استراليا ، وجنوب شرقى آسيا .. فلقدارتاد ((موم)) هذه البقاع فى أسفاره العديدة ، وخلال عمله فى ((المخابرات السرية البريطانية)) .. وفى هذه أو تلك ، كانت حاسته — كأديب وقصصى يسعى الى التعمق والبحث قبل أن يسعى الى تشويق القارىء وامتاعه وتسليته — تطغى على كل اعتبار .

واذ تم اختيار مسرح الوقائع ، برزت من بين انتاج ((سومرست موم)) ثلاث مجموعات ضم فيها أروع ماكتب عن تلك الاصقاع .. وقد ضمت هذه المجموعات أربع عشرة قصة ، بين طويلة وقصيرة . ولكن أيا من هذه القصص لاتكفى لان تملأ صفحات عدد كامل من ((مطبوعات كتابى)) .. وبعملية حسابية صغيرة ، تبين أن لابد للعدد من ثلاث قصص، فهل نختار القصص الثلاث من بين الاربع عشرة قصة ، دون مراعاة لتقسيمها بين المجلدات الثلاثة ؟ .. او نختار بحيث تمثل كل قصة منها مجموعة من هذه المجموعات ؟

وكان لابد من قراءة القصص الاربع عشرة لاختيار الثلاث

المنشودات ، واذا القراءة تجيب عن ذلك التساؤل ، وتحدد أفضل ثلاث قصص فى تلك المجلدات .. واذا كل قصة تمثل فعلا مجموعة من المجموعات الثلاث .. من تلقاء ذاتها ، دون تعمد أو تحيز !

وهكذا اخترت القصص الثلاث !

• **وهكذا** اخترت القصص الثلاث التى يضمها هذا العدد من « مطبوعات كتابى » .. أخترت وفقا لعوامل أهمها :

١ - جدة الميدان الذى تدور فيه : ومدى ما أورده «موم» من تفصيلات وصفية تمكنك من ان تزيد معلوماتك العامة . فان القصة يجب الا تكون مادة للتسلية وقضاء الوقت وحسب، وانما يجب أن تكون - كذلك - وسيلة لتنمية الثقافة والمدارك

٢ - طرافة المادة : فقد اعتدنا أن تدور القصص حول الحب والغرام ، حتى أخذ الكتاب يكررون موضوعاتهم مع تلوين فى العرض والاسلوب والحبكة ، وحتى ضاق القراء بهذا التكرار الممل .. وهنا تظهر عبقرية « موم » فى ابتكار موضوعات قصصه .. حتى القصة التى تدور حول الحب ، اختار لها فكرة طريفة ، وعرضا يمكن أن يكون من مظاهر الطابع الفردى لموم كقصاص !

٣ - الشفافية : وهذا تعبير قد يبدو غريبا فى هذا السياق ، ولكن هذه القصص - فى الواقع - تشف حقا عن أفكار الكاتب ، وعن أسلوبه ، وعن فنه القصصى .. **ثم - وقبل كل شىء - عن روح الكاتب وشخصيته . فان لسومرست موم أن يفخر بأن روح الكاتب فيه تطفى على ما عداها .**

والكاتب القصصى الصادق ، هو الذى يعكس فى قصصه الحقائق بصدق لا اصطناع فيه ولا تزييف . وقد حرص « سومرست موم » - فى القصص التى نقدمها هنا - على أن يصور الحياة فى البلاد التى قضى عليها أن تكون ضحايا للجشع

البريطانى .. فى المستعمرات . أو بالاحرى ، حرص « موم » على أن يصور حياة « البيض » المستعمرين فى تلك البلادالتى احتلوها وراحوا يمتصون خيراتها باسم حمل أضواء « الحضارة » و « المدنية » اليها .. **وكانت شخصيته الخاصة كانجليزى وموظف فى « المخابرات السرية » – لفترة من الزمن – تحاول أن تطفى على قلمه ، ولكن شخصيته ككاتب نزيه ، عف ، كانت لا تلبث أن تتغلب فى سياق الوصف ، فتكشف عن كثير من الامور التى يمر القارىء العادى بها عفواً ، وربما لم يفطن اليها ..** ولكن القارىء الباحث المدقق ، الذى لا يقرأ – لمجرد التسلية – لا يملك سوى أن يتبينها واضحة ، بعبارات صريحة ، تكشف عن زيف المزاعم التى يتعلل بها الاستعمار للبقاء فى تلك البلاد .

على أن مدى كل هذه العوامل التى روعيت فى اختيار قصص هذا العدد من « مطبوعات كتابى » – وهى : جدة الميدان ، وطرافة المادة ، والشفافية – لن تبين واضحة تمام الوضوح ، الا حين نتحدث عن كل قصة على حدة ..

القصة الاولى : شاب صالح فى أحضان الغواية !

• **ولقد** اخترت القصة الاولى « أرواح هائمة » ، أو – كما أسماها «موم» أصلا – « نييل ماك آدم » NEIL MAC ADAM ، من مجموعة أطلق عليها اسم « آه كينج » AH KING ، نشرت لاول مرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ثم نشرت للمرتين الثانية والثالثة فى أكتوبر من العام ذاته .. ونشرت بعد ذلك خمس مرات .

وتعد مقدمة هذه المجموعه دراسة أدبية طريفة بصدد التأليف عن بلادأجنبية،فان كثيرا من كتاب القصة، يعتقدون ان التأليف معناه التمسك بالجو المحلى ، ولو .. ولو عمد الواحد منهم الى نقل مايعجب به من قصص أجنبية يسبغ

عليها الجو المحلى ، ويخلع على ابطالها اسماء محلية !! .. ولكن « موم » يذهب الى ان من حق القصصى أن يضع أحداث قصصه فى أطار من بيئة البلدان التى يزورها ومن أجوائهـا ــ اذا كان رحالة ــ على شريطة ان يرى أن هذه الاحداث لا يمكن أن تقع فى البيئة والجو اللذين يعيش فيهما عادة ، فى بلاده .. **اذ أن القصة يجب ان تعتمد على البيئة والجو اللذين توجد فيهمـا الشخصيات التى تقوم بالادوار فيها :**

ثم ينتقل الى الجزء الذى يهمنا فى هذه الدراسة ، اذ يقول: « وما حاولت فى أى من قصصى ــ التى من هذا النوع ــ أن أعالج أبناء البلاد التى أتخـذتها مسرحا للوقائع ، الا بقـدر اثرهم فى حياة البيض الذين يعيشون بينهم . ذلك لان الكاتب الانجليزى يعـانى مشقة فى سبيل الالمام بالقـدر الـكافى من المعلومات عن مواطنيه الذين يتعرف عليهم ــ طوال حياته ــ بالمشاهدة ، والملاحظة ، والشعور ، وحكم العادة .. **فما بالك اذا كان الامر يتعلق بأفراد من عنصر آخر غير عنصره اطلاقا ! .. ان الحوافز التى تلهم الرجل الاسمر او الاصفر فى الحياة، مسجلة فى مجموعة من القوانين لاسبيـل للرجل الابيض الى استكناه حقيقتها ، ومن ثم فليس بوسعه أن يطمئن الى أنه يعرض التفسير الحقيقى لتصرف قد يبدو غاية فى البساطة» !**

واذن ، فان الامانة الادبية تجعل « موم » يخشى ان يكتب عن أهالى البلاد التى زارها ــ الا فى حدود ضيقة ــ لانه لم يعش بينهم بحيث ينـدمج فيهم ، ويشرب مشربهم ، ويتقمص نشأتهم ، ويكتسب عاداتهم وتقاليدهم ونوازعهم بالقدر الكافى .. **ومن ثم فقد اقتصر ــ فى هذه القصص ــ على أن يصف « الاثر الذى تطبعـه ــ على نفر من البيض ــ الحيـاة التى يحيـونها فى بعض البـلاد النـائية ..** فان البيض فى هـذه الاوساط ، كثيرا ما يعمـدون الى تطوير فطرتهم وأمزجتهم

الخاصة وصفاتهم الى درجة تبدو مستحيلة فى غير تلك الظروف . ذلك لان العوامل التى تؤثر على أبناء تلك البلاد ، تؤثر عليهم هم ايضا ، **فأنت غالبا ماتجدهم مجردين من تلك الصفات المركبة المعقدة التى تجعل شخصيات أولئك الذين يعيشون فى الظروف البراقة المصطنعة – التى تتسم بها الحياة المتمدينة المثقفة – مادة للدراسة لاتنتهى ولا تنضب ! »)**

وعلى هدى هذه الآراء ، نرى « موم » يرسم – فى اطار مستمد من بعض بقاع ولايات الملايو – مأساة الزوجة التى تعيش مع زوج منصرف لابحاثه العلمية .. فهى لاتجد سلوى سوى القراءة والتدخين .. ولكنها والدت أصلا وفى عروقها دماء حارة ، تتلظى بالنزوات ، ولا تزيدها الروايات سوى سخونة ، ولا تزيدها الثقة العمياء التى يضعها الزوج فى زوجته سوى اندفاع ! .. والزوج منصرف الى بحوثه ، لايبدو ذكاؤه فى أوج يقظته الا فى المسائل العلمية ، دون المسائل الدنيوية !

وفى هذه القصة يرسم لنا « موم » شخصية شاب طيب صالح .. بكل ما للطيبة والصلاح من معنى ، فهو يصر على الاحتفاظ ب « بكارته » للزوجة التى سيقدر له أن يحظى بها فى المستقبل ، فلا يزيد تمسكه هذا زوجة العالم – وهو فى الوقت ذاته رئيسه – سوى تدلها فى هواه ، وتهافتا على اغوائه .. وهذه شخصية ماكان « موم » ليجد لها وسطا ملائما سوى تلك الادغال النائية .. فان الشاب الطيب الصالح الذى يستطيع أن يصمد ضد أعنف الغوايات – فى الاوساط التى نسميها متمدينة – نادر كل الندرة !

القصة الثانية : بين النعرة الاستعمارية والامانة الادبية !

• **لننتقل** اذن الى القصة الثانية : « جبان ؟ ! » ، أو « خيط من الدم الاصفر » THE YELLOW STREAK ، كما أطلق عليها « موم » .. وقد اخترت من بين ست قصص ضمتها

مجموعة أسماها الكاتب «شجرة الجزورينا» THE CASUARINA TREE .. وهى تسمية طريفة ، يجدر بك أن تعرف أصلها ، كما ذكره « موم » :

« .. ولكنهم يقولون كذلك أنه عندما يتم لاشجار التين البنغالى أن تمتص المياه التى تكون المستنقعات ، حول مصبات الانهار ، وتغدو الاراضى صالحة للزراعة ، فان شجرة «الجزورينا» تنبت من تلقاء ذاتها ، نتعمل بدورها على اصلاح التربة وتخصيبها .. فاذا ما أتمت مهمتها ، ماتت قبل أن تزحف عليها طفيليات الادغال العملاقة . ومن ثم خطر لى ان «شجرة الجزورينا » عنوان لابأس به لمجموعة من القصص عن الانجليز الذين يعيشون فى (الملايو) و (بورنيو) ، اذ تصورت أنهم — اذ يفدون بعد طلائع الرواد — فيفتحون تلك البلاد للحضارة الغربية ، انما يقومون بمثل دور تلك الشجرة ! »

هنا كان ((موم)) يكتب وقد تغلبت عليه النعرة القومية .. وكذلك فعل حين حاول أن يصور خمسة أولئك الذين جاءوا من آباء من البيض وأمهات من بنات المستعمرات ..

انها النعرة الاستعمارية الخبيثة ، التى قد يكون الاصل والمنصب فرضاها على ((موم)) . ولكن الروح الادبية الامينة تعرف كيف تتسلل خلال هذه النعرة .. فيرسم قلم القصصى صورة لموظفين الانجليز فى المستعمرات ، وكيف انهم يتزوجون من بنات البلاد ليرضوا شهواتهم ، ثم يتخلوا عنهن وعن أطفالهن فيما بعد .. ان قصص هذه المجموعة « شجرة الجزورينا » مليئة بالامثال التى تبين هذا الواقع . **ثم تغافل الامانة الادبية النعرة الاستعمارية ، فترسم صورة واضحة لما يقيمه ((رسل الحضارة الغربية)) فى المستعمرات من فوارق عنصرية ولونية ،** نستطيع أن نلمسها بجلاء فى القلق والهم اللذين جثما على « ايزابرت » لوجود دم أسمر فى عروقه !!

القصة الثالثة : هنا تنتصر الامانة الادبية !

• **بقيت** القصة الثالثة « الانتصار القاتل » أو «ماكنتوش» MACKINTOSH كما أسماها « موم » .. وقد اختيرت من مجموعة أطلق عليها اسم « رجفة ورقة شجرة » THE TREMBLING OF A LEAF .. **وهذه القصة تمثل بحق أمانة «موم» ككاتب قصصى وأديب ، سواء كانت هذه الامانة نابعة عن نفسه ، أو كانت روحه الادبية تفرضها عليه فرضا !**

والذى يقرأ القصة ، لايملك الا أن يرى أن الافتراض الاخير هو الارجح . فان التعصب للعنصر كان يملى على «موم» أن يحاول تبرير قسوة « ووكر » ، الذى كان مديرا اداريا لاحدى المناطق النائية ، أى بمثابة (مأمور مركز) .. فهو فظ ، جلف ، محب للانتقام من الاهالى اذا غضب عليهم ، محب للتشفى منهم اذا ما أذلهم .. هكذا يصوره « موم » وهو فى تيار الوحى الادبى . **ثم يفطن الى مالهذه الصورة من أثر فاضح للاستعمار البريطانى ، فيبادر الى تخفيفها ، دون أن يمحوها – وهذه أمانة ! – فيحاول أن يبرر هذه القسوة بأنها شدة الاب الذى يحب الخير لابنائه .. ولكن الامانة الادبية تعاود التسلط على « موم »** . فيصور « ماكنتوش » – مساعد « ووكر » – وهو يحلل لنفسه مسلك رئيسه ، فيرى أن هذا الفظ لم يكن يحب الاهالى كأبناء – كما كان يزعم – الا لانهم كانوا فى قبضة يده .. كان يحبهم كما يحب الرجل الانانى كلبه !

ان هذه القصة الاخيرة من أقوى القصص التى كتبها « موم » فى حياته .. لا لشىء الا لانها تمثل صراعا قويا ، عنيفا ، فى نفس الكاتب .. تمثل صراعا بين الامانة الادبية والنعرة العنصرية !

ونحن لانملك ازاء ما نلمسه من نوبات هذا الصراع خلال القصة ، سوى أن نعجب بموم .. لان وجود الصراع فى حد ذاته ، دليل على أن ضميره لايزال حيا !

براعة فذة فى اختيار الخاتمة

• **بقيت** النواحى الفنية فى القصص الثلاث .. ولن نتناول منها ، فى هذه العجالة ، سوى ناحية واحدة .. ناحية البراعة الفذة فى ابتكار الخاتمة .. **ففى قصة « نبيل ماك آدم » :** احاطت الزوجة المفتونة بالفتى العف ، وضيقت عليه الخناق ، وهددته باكثر مما هددت به زوجة عزيز مصر ، النبى يوسف .. فماذا يفعل ؟ .. لم يعد أمامه مهرب البتة ، ولم يبق سوى ان يستسلم . **وهنا يخف « موم » الى انقاذ الموقف ، فيضع للقصة نهاية لا يمكن أن تخطر ببال القارىء ، وهو يمضى فى تتبع الاحداث فى سياقها الطبيعى !**

وفى قصة « خيط من الدم الاصفر » : يمعن فى تصوير « ايزارت » كجبان خسيس ، وفى تصوير « كامبيون » فى صورة المغدور الذى يتسامح ويتستر على الغادر .. ليكشف فى النهاية أن هذا التستر وذاك التسامح انما كان مردهما الى أن « كامبيون » كان يظن فى نفسه أنه هو الذى تخلى عن نجدة الآخر !

وفى قصة «ماكنتوش» : يهيىء الجو بحيث يبدو أن« ووكر» ولا بد مقتول فى ليلة معينة .. ويوقن « ماكنتوش » من ذلك، فيضطرب ، ويعمد الى اثبات وجوده فى داره ، بأن يدير لحنا على « الجراموفون » ، ويجلس فى انتظار نبأ الاغتيال ، واذا « ووكر » يدخل عليه دون ماضر أو بأس .. **حتى اذا قتل « ووكر » اخيرا ، ذات مساء ، يتوقع القارىء أن يغتبط «ماكنتوش» لتخلصه من هذا الرئيس الفظ المغرور ، لاسيما وأنه سيخلفه فى منصبه ، ولكن .. ؟ !**

ولكن .. لن نفسد عليك روعة الخاتمة التى ابتكرها « موم » .. ولن نستبقيك بعيدا عن القصص لاكثر من هذا ..

أرواح هائمة!

(نيل ماك آدم)



NEIL MAC ADAM

كان « الكابتن بريدون » رجلا لطيفا دمث الاخلاق . وعندما أبلغه « أنجوس مونرو » - أمين متحف كوالا سولور - أنه نصح « نبيل ماك آدم » - مساعده الجديد - بأن ينزل عند وصوله الى (سنغافورة) فى فندق « فان دايك » ، وعندما طلب اليه ان يعنى بالفتى حتى لا يصاب بضر - خلال الايام القلائل التى لا بد له من أن يقضيها هناك - قال أنه سيبذل كل جهده .

وكان « الكابتن بريدون » يتولى قيادة السفينة « السلطان أحمد » ، وقد اعتاد أن ينزل دائما فى فندق « فان دايك » عندما يكون فى (سنغافورة) . فقد كان متزوجا من يابانية ، وكان يستأجر غرفة من الفندق ، يتخذها دارا .. فلما عاد من رحلته - التى استغرقت أسبوعين - على طول ساحل (بورنيو) ، أبلغه المدير الهولندى بالفندق أن « نبيل » قد وصل منذ يومين . وكان الفتى جالسا فى حديقة الفندق المتربة الصغيرة ، يقرأ أعدادا قديمة من صحيفة « ستريتس تايمز » ، فتفرس فيه « بريدون » أولا ، ثم تقدم اليه وقال: « الست ماك آدم؟ » . فهب «نبيل» واقفا ، وقد تضرج وجهه حتى منابت شعره ، ورد بخجل قائلا : « بلى .. »

- ان اسمى ((بريدون)) ، وأنا ربان السفينة ((السلطان أحمد)) .. انك ستبحر معى يوم الثلاثاء القادم ، وقد طلب ((مونرو)) منى أن أرعاك .. فما رأيك فى أن نتناول ((أستينجا)) ؟ .. أحسبك قد عرفت الآن معنى هذه الكلمة !

- شكرا لك ، ولكنى لا أشرب الخمر

وكانت تشوب حديثه لكنة اسكتلندية صارخة . فقال بريدون : « لست ألومك على هذا ، فكم من رجل طيب تقضى عليه الخمر ، فى هذه البلاد ! »

ونادى الخادم الصينى ، وأمره بأن يأتى له بكأس مضاعف من الويسكى ، وبعض الصودا . ثم قال لنبيل : « ماذا فعلت منذ أن حضرت الى هنا ؟ » . فأجاب الشاب : « تجولت فى البلدة »

— ليس فى سنغافورة الكثير مما يستحق المشاهدة

— لقد وجدت أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة

وكان أول ما فعله — بطبيعة الحال — هو أن زار المتحف . ومع أنه لم يجد فيه الكثير مما لم يكن قد شاهده فى بلاده من قبل ، فان ما كان يحويه من الوحوش والطيور والزواحف والفراشات والحشرات — التى تعيش فى هذه المنطقة — أثار اعجابه ودهشته . وقد أفرد فيه قسم لذلك الجزء من (بورنيو) ، الذى كانت (كوالا سولور) عاصمته . ولما كانت هذه المخلوقات ستشغل القسط الاوفر من اهتمامه فى الثلاث السنوات القادمة ، فانه فحصها بعناية .. ولكن أشد ما بهره كان خارج المتحف .. فى الشوارع . ولولا أنه كان شابا متزنا رزينا ، لضحك ملء شدقيه فرحا وابتهاجا . فقد كان شيئا جديدا عليه .. وقد ظل يسير حتى كلت قدماه ، فوقف فى ركن من شارع مزدحم ، يرقب بعجب ذلك الصف الطويل من مركبات « الريكشة » والرجال الصفار الاجسام الذين يجرونها وهم يعدون بخطوات قصيرة . ووقف أيضا على جسر مقام على قناة ، فشاهد القوارب المحلية تنساب فى اتجاهين متعاكسين ، وكأنها أسماك السردين فى علبة . وأطل على المحال الصينية فى شارع (فيكتوريا) ، حيث تباع عدة أشياء غريبة .. ورأى تجار (بومباى) المترهلين الضخام ، يقفون على أبواب محالهم ، وقد حاولوا أن يبيعوه بعض الحرير والمجوهرات . وراقب أبناء عشائر « التاميل » بوجوههم التى تنم عن التفكير والتأمل ، وهم يمشون فى رشاقة مهيبة .. وشاهد العرب ذوى اللحى والطاقيات البيضاء ، وهم يبدون أنفة مترفعة .

وكانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة الوهاجة على هذا المنظر المتباين المعالم ، وقد شعر بالارتباك ، وظن أن الامر يقتضي منه سنوات ريثما يعرف وجهته في هذا العالم الحافل ذي الالوان المتعددة .

* * *

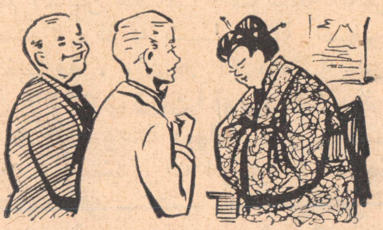
وبعد أن تناولا العشاء — في تلك الليلة — سأله الكابتن بريدون عما اذا كان يود مشاهدة البلدة ، وقال له : « خليق بك أن ترى شيئا من الحياة أثناء وجودك هنا ! »

واستقلا مركبتين من مركبات « الريكشة » وذهبا الى الحى الصينى . وكان الربان — الذى يمتنع عن شرب الخمر عادة ، وهو في البحر — قد عوض في انهار حرمانه ، وأخذ يشعر بالابتهاج . ووقفت المركبتان عند دار في شارع جانبي ، فهبط الرجلان ، وطرقا الباب . حتى اذا فتح ، اجتازا ردهة ضيقة ، فوصلا الى غرفة كبيرة ، صفت الارائك بحذاء جدرانها — وقد كسيت بقماش أحمر اللون — وجلست عليها بعض النسوة ، بين فرنسيات وايطاليات وأمريكيات . وكان في الغرفة معزف ميكانيكي تنبعث منه أنغام موسيقية عالية ، وقد راح نفر قليل يرقصون على وقعها . وطلب الكابتن بريدون بعض الشراب ، فأخذت امرأتان أو ثلاث ينظرن اليهما في اغراء ، وهن ينتظرن الدعوة . فقال الكابتن في غير تورع : « حسنا أيها الشاب .. هل تميل الى واحدة من هؤلاء ؟ »

— لا !

— هل تعلم أنه لاتوجد فتيات من البيض حيث أنت ذاهب ؟

فتمتم الشاب : « آه ، حسنا ! » . وعاد الكابتن يسأله : « أتود أن نذهب لترى نسوة من الاهالي ؟ » . وأجاب نيل : « لا بأس ! » . فدفع الكابتن ثمن الشراب وخرجا . وذهبا الى دار أخرى ، كانت فيها فتيات صينيات صغيرات الاجسام ، أنيقات ، دقيقات الاقدام ، وأيديهن كالازهار . وكن يرتدين



ثيابا من الحرير المزركش برسوم تمثل زهورا . ولكن وجوههن المخضبة كانت أشبه بالاقنعة . وأخذن ينظرن الى الغريبين بأعين سوداء ساخرة .. وكأنهن من غير البشر ، الى درجة عجيبة !

وقال بريدون فى لهجة من يؤدى واجبا : « لقد أحضرتك هنا لاننى رأيت أنك خليق بأن ترى المكان . وتكفيك مجرد نظرة على المكان ، فهم لا يحبوننا لسبب ما ، حتى أن بعض هذه الدور الصينية لا تسمح للرجل الابيض بأن يلجها . وهم يصفوننا بأن رائحتنا كريهة ، أليس هذا مضحكا ؟ ! .. انهم يقولون أن رائحتنا أشبه برائحة الجثث ! » . فهتف الشاب : « نحن ؟ »

ـ دعنا نرى اليابانيات ، فهن ظريفات ! .. ان امرأتى يابانية كما تعرف ، فتعال معى ، آخذك الى مكان فيه فتيات يابانيات .. وان أكون هولنديا اذا أنت لم تجد بغيتك بينهن !

وكانت المركبتان تنتظرانهما، فاستقلاهما . وأدلى « الكابتن بريدون » الى السائقين بالاتجاه ، فانطلقا يجران المركبتين .. واستقبلتهما فى الدار سيدة يابانية بدينة ، فى أوسط العمر ، انحنت لهما عند دخولهما ، واقتادتهما الى غرفة نظيفة ليس فيها من الاثاث غير الحصير على الارض ، فجلسا . وبعد برهة ، دخلت فتاة صغيرة تحمل صحفة عليها قدحان من الشاى الباهت اللون . وانحنت فى حياء ، وقدمت لكل منهما

قدحا . وتكلم الكابتن مع المرأة المتوسطة العمر ، فنظرت الى نييل وابتسمت ، وقالت شيئا للفتاة الصغيرة خرجت على أثره – من الغرفة . وان هى الا برهة حتى دخلت أربع فتيات . وكن فاتنات فى زيهن القومى (الكيمونو) ، وشعورهن السوداء اللامعة المقصوصة بمهارة . وكن صغيرات القدود ، ملتفات الاعواد ، مستديرات الوجوه ، ضاحكات العيون . وانحنين – حين دخلن – حتى كادت جباههن أن تمس الارض ، وتمتمن بتحيات مهذبة . وكان حديثهن كشقشقة الطيور !.. ثم تقدمن وجثون – كل اثنتين الى جانبى أحد الرجلين – وأخذن يغازلنهما برقة وحلاوة . وسرعان ما لف الكابتن بريدون ذراعيه حول الخصرين النحيلين . وراح الجميع يتحدثون فى أتم آيات السرور ! .. وخيل لنييل أن فتاتى الكابتن كانتا تسخران منه ، لان أعينهما البراقة تحولت نحوه بخبث ، فاحمر وجهه . ولكن الفتاتين الاخريين التصقتا به ، وراحتا تتحدثان اليه باليابانية ، وكأنه يفهم كل كلمة تقولانها . ولاحتا سعيدتين الى حد أثار ضحكه .. وكانتا شديدتى العناية به ، فأمسكتا له القدح ليرتشف الشاى منه دون أن يتكبد مشقة حمله فى يده ، وأشعلتا له سيجارة ، ومدت احداهما يدا بضة صغيرة لتتلقى الرماد فلا يقع على ملابسه ، وأخذتا تربتان وجهه الناعم ، وتنظران فى فضول الى يديه الكبيرتين .. كانتا لعوبتين كالقطط ! .. وما لبث الكابتن أن قال : « حسنا ، أيهما تفضل ؟ .. اختر لنفسك ! » . فتساءل : « ماذا تعنى ؟ »

– سأنتظر ريثما تحزم أمرك ، ثم أدبر أمر نفسى !

– لست أريد أيا منهما ، وسأعود لانام

– لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟ .. ما أحسبك خائفا ؟

– لا .. كل ما فى الامر أننى لا أميل لذلك . ولكن لا تدعنى أقف فى طريقك ! .. اننى عائد الى الفندق

ـ اذا لم تكن راغبـا فى شىء من هـذا ، فلست أريده أنا الآخر . فانما كنت أبغى أن أجاريك وأؤنسك !

وتحدث الى اسيدة المتوسطة العمر . والظاهر أن ما قاله حمل الفتيات على أن ينظرن الى نبيل فى عجب طارىء . وقد ردت السيدة على الكابتن وكنه هز كتفيه ، وهنا ابدت احدى الفتيات ملاحظة جعلت الجميع يضحكون . فتساءل نبيل : « ماذا قالت ؟ » . وأجاب الكابتن مبتسـما : « انهـا تعابثك لتستدرجك ! » . ولكنه مع هذا رمق نبيل فى استغراب . **أما الفتاة ، فبعد أن أضحكتهم ، تحدثت مباشرة الى نبيل . وكنه لم يفهم شيئا ، اللهم الا أن اسخرية كانت ظاهـره فى نظراتها ، مما جعل وجهه يتضرج ، ثم يعبس .** فما كان ليحب أن يكون موضع سخرية ، غير أن الفتاة ضحكت ، وأنشت ذراعها حول عنقه

وقال الكابتن: « هيا ، لننصرف ! » .. حتى اذا بلغا الفندق، سأله نبيـل : « ما الذى قالته الفتـاة حتى جعلت الجميع يضحكون ؟ » . فأجاب : « قالت أنك .. بكر ! » . واذ ذاك قال الشاب : « لست أرى فى هذا ما يدعو الى الضحك » .

ـ وهل هذا القول صحيح ؟ ـ أظنه كذلك !

ـ ما عمرك ؟ ـ اثنان وعشرون عاما !

ـ وفيم انتظارك ؟ ـ الى أن أتزوج !

فصمت الربان .. وعندما وصلا الى نهاية الدرج ، مد يده وأومضت عينه عندما ألقى على نبيل السلام ، ولكن نبيـل واجهه بنظرة صريحة ، صادقة ، لا اضطراب فيها .

* * *

وأبحـرا بعـد ثلاثة أيام . وكان نبيـل الراكب الابيض الوحيد فى السفينة . وكان يقبل على القراءة عندمايكون الكابتن مشغولا . وكان يقرأ كتاب « أرخبيل الملايو » لادجار والاس ـ للمرة الثانية ـ فقد سبق أن قرأه وهو صبى . ومع ذلك

فقد بدا كأنه جديد عليه ، واستأثر بكل اهتمامه . فاذا لم يكن الكابتن منصرفا الى العمل ، فانهما كانا يلعبان الورق معا ، أو يجلسان على ظهر السفينة يدخنان ويتحدثان .

وكان نييل نجل طبيب من الارياف . ولم يكن فى استطاعته أن يتذكر فترة من حياته لم يهتم فيها بالتاريخ الطبيعى .. وعندما انتهى من الدراسة الثانوية ، ذهب الى جامعة أدنبرة ، فحصل فيها على درجة ((البكالوريوس)) فى العلوم ، بمرتبة الشرف . وكان يسعى للحصول على وظيفة معيد فى علم الاحياء ، عندما قرأ فى مجلة ((ناتشر)) اعلانا عن وظيفة مساعد لامين متحف (كوالا سولور) . وكان ((أنجوس مونرو)) - أمين المتحف - قد عاش فى (أدنبرة) مع عمه الذى كان تاجرا من أهل (جلاسجو) ، فأرسل هذا العم الى ((أنجوس)) يطلب منه أن يجرب هذا الفتى ، وقال أن نييل وان كان مشغوفا بعلم الحشرات ، الا أنه تدرب كثيرا على تحنيط الطيور والحيوانات ، وهى ناحية ورد فى الاعلان أنها مهمة . كما أرسل شهادات من مدرسى نييل القدامى ، وقال أن الفتى يجيد لعب كرة القدم ، وأنه كان عضوا فى فريق جامعته ! .. ولم تنقض بضعة أسابيع حتى وصلت برقية بتعيين نييل . وان هما الا أسبوعان حتى سافر فعلا

وسأل نييل الكابتن: ((أى نوع من الرجال المستر مونرو؟)) . فقال : ((انه شخص طيب ، والجميع يحبونه !))

- لقد اطلعت على رسائله فى المجلات العلمية ، وقد نشرت له رسالة في العدد الاخير من مجلة ((ايبيس)) .

- لست أدرى شيئا عن هذا ، وكل ما أعرفه هو أن له زوجة روسية ،ولكنها غير محبوبة كثيرا !

- لقد تلقيت منه خطابا وأنا فى (سنغافورة) ، قال فيه أنه سيستضيفنى فترة ، ريثما أتمكن من الطواف بالبلد ، وأتبين ما يمكننى عمله !

وكانت السفينة عندئذ تمخر النهر ، وشوهدت عند مصبه قرية للصيادين قائمة على أعمدة فى وسط الماء ، وقد اكتسى الشاطىء بالنخيل وأنواع أخرى من الاشجار ، امتدت وراءها غابة كثيفة ، وظهر فى الافق شبح جبل يرتفع الى السماء الزرقاء .. وأثار نييل هذا المنظر ، فأخذت ضربات قلبه تشتد وهو يستوعب هذه الصورة الرائعة بعينيه .. واستولت عليه الدهشة ، اذ كان يتوقع أن يرى أرضا محفوفة بالاسرار ، ولكنه لم يكن يتوقع أن يرى هذه السماء الزرقاء الصافية ولا السحب البيضاء العالية ظاهرة فى الافق ، وكأنها أشرعة سفن ساكنة لا حركة فيها ، تتجلى تحت أشعة الشمس .. وكانت الاشجار الخضراء فى الغابة متألقة تحت الضوء الساطع ، وقد تناثرت بيوت (الملايو) ذات السقوف المغطاة بالغاب ، وقبعت فى أحضان أشجار الفاكهة . ورأى نييل الاهالى فى قوارب صغيرة ، يجدفون وهم وقوف . ولم يخامره أى شعور بأتفه اكتئاب ، بل شعر فى هذا الصباح المشرق بالحرية ، وأحس بالفضاء الواسع .. وهكذا استقبلته البلاد بترحاب رائع ، وأدرك أنه سيكون سعيدا فيها . وألقى الكابتن بريدون — الذى كان واقفا فى مركزه فى السفينة — نظرة ودية على الفتى الواقف تحته .. لقد أحبه خلال الايام الاربعة التى استغرقتها الرحلة .. صحيح أنه لم يكن يشرب الخمر ، ولا كان يستسيغ النكتة ، ولكن جديته هذه كانت تنطوى على شىء جذاب . فهو يرى كل شىء مهما وممتعا . وهذا — بطبيعة الحال — ما كان يحمله على ألا يجد فى النكتة متعة . ولكنه كان يضحك للنكتة — وان لم يستسغها — لا لشىء الا لانه كان يشعر بأنك تنتظر منه ذلك ! .. وكان يضحك لان الحياة عظيمة ، ويظهر الامتنان لكل شىء تقولونه له ، ولو كان تافها .. فهو لايطلب منك شيئا قط ، دون أن يقول : « أرجوك » ، وهو على الدوام يقول : « أشكرك » ، عندما تعطيه هذا الشىء

.. وكان وسيما ، وهذا ما لم يكن ينكره أحد ! .. ووقف نبيل ويداه على الحاجز ، يتطلع الى الشاطىء وهو يمر أمامه .. كان طويل القامة — يبلغ مائة وثمانين سنتيمترا طولا — عريض المنكبين ، ذا شعر كستنائى مجعد له بريق غريب يشبه الذهب أحيانا ، عندما يسقط عليه الضوء .. وكانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان تبرقان دماثة ، وتعبران عن هنائه .. كما كان انفه صغيرا ، وفمه كبيرا ، وذقنه توحى بقوة العزيمة ، ووجهه كبيرا الى حد ما . **ولكن أهم ما كان يجتذب الانظار اليه هو جسده — اذ كان ناصع البياض ، ناعما — واللون الوردى الذى تميزت به خداه .. وقصارى القول ان جسمه كان جميلا ، جديرا بأن يكون لامرأة** .. وكان الكابتن بريدون يقابله فى كل صباح بنكتة لا تتغير : « هل حلقت لحيتك اليوم ؟ » . فيمر نبيل بيده على ذقنه ، ويقول : « لا .. أتظن أنها بحاجة الى حلاقة ؟ » . فكان الربان يضحك دائما ويقول : « بحاجة اليها ؟ ! .. ان لك وجها كعجز الطفل ! ! » . وكان وجه نبيل يتضرج دائما ، وهو يتمتم متلعثما : « اننى احلق لحيتى مرة فى الاسبوع ! »

ولكن شكله لم يكن العامل الوحيد الذى كان يحمل الناس على حبه ، بل كانت هناك أيضا الصراحة والنشاط وغضارة الشباب ، التى كان يواجه بها الدنيا .. ومع كل ما كان عليه



من عزيمة ، ومن وقار وجدية فى معالجة كل أمر ، ومن ميل الى مناقشة كل نقطة تثار ، فقد كان فى أخلاقه شىء من بساطة عجيبة تشيع فى نفسك شعوراً غريباً .. ولم يكن فى وسع « الكابتن » ان يدرك كنه هذا الشىء . فكان يقول لنفسه : « ترى أيرجع هذا الشىء الى أنه لم يتصل قط بامرأة ؟ .. ياله من امر عجيب ! .. ما كان من المعقول أن تتركه الفتيات وشأنه ، وقد أوتى هذه البشرة ! »

ولكن السفينة « السلطان أحمد » كانت تقترب من منعرج فى النهر ، تظهر بعده (كوالا سولاور) للعيان ، فقطعت الاعمال الضرورية على الربان تأملاته ، اذ اتصل بغرفة الآلات ، فاذا سرعة السفينة تنخفض الى النصف .. وبدت (كوالا سولاور) مستلقية على الشاطىء الايسر للنهر : بلدة صغيرة بيضاء ، نظيفة .. وفوق تل — الى اليمين — قامت القلعة وقصر السلطان . وهب نسيم داعب علم السلطان المرفوع على سارية طويلة ، فتحرك فى زهو .. وألقت السفينة مرساها وسط النهر ، فصعد اليها الطبيب وضابط البوليس اللذان جاءا فى زورق الحكومة . وكان برفقتهما شخص طويل القامة ، نحيل الجسم ، فى ملابس بيضاء . ووقف الربان عند أول الممر ، فصافح الرجال الثلاثة ، ثم تحول الى الاخير منهم ، وقال : « لقد أحضرت اليك الشاب سالماً معافى مفعماً بالأمل ! » .

ونظر الى نييل وقال يقدم الرجل : « هذا هو مونرو ! »

وبسط الرجل الطويل النحيل يده الى نييل ، وتفرس فيه بعين فاحصة ، فاحمر وجه نييل قليلا ، وابتسم فانفرجت شفتاه عن أسنان جميلة ، وقال : « كيف حالك ياسيدى ؟ »

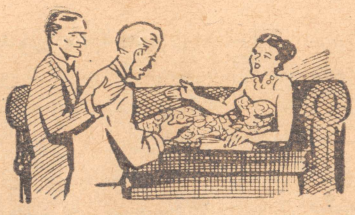
ولم يبتسم مونرو بشفتيه وانما بعينيه الرماديتين .. وكانت خداه غائرتين ، وله أنف اقنى وشفتان شاحبتان ، وبشرة لوحتها الشمس بسمرة شديدة .. وكان الاجهاد يبدو جليا على وجهه . ولكن مظهره كان ينم عن لطف مفرط .

فسرعان ما شعر نبيل بالثقة فيه .. وقدمه الكابتن للطبيب وضابط البوليس، واقترح أن يتناولوا معا شيئا من الشراب. وعندما جلسوا وأحضر الخادم زجاجات البيرة ، فخلع مونرو القبعة عن رأسه .. ورأى نبيل تحتها شعرا كستنائى اللون، بدأ الشيب يدب فيه .. كان الرجل فى الاربعين من العمر ، هادئا ، رزينا ، يمتاز بطابع عقلى عن الطبيب الحاد الحركة ، وضابط البوليس المزهو بنفسه .

واذ ملأ الخادم أربعة أقداح بالبيرة ، قال الكابتن : « ان ماك آدم لايشرب خمرا ! » . **فقال مونرو : « هذا خير وأفضل . وأرجو ألا تكون قد استدرجته فى طريق الاثم ! »، فأومضت عين الربان وهو يجيب : « لقد حاولت ذلك فى سنغافورة ، فلم يحدث شىء! »**

وبعد أن انتهى « مونرو » من شرب قدح البيرة التفت الى نبيل وقال : « وبعد .. أنهبط الى الشاطىء ؟ » .. وعهد بمتاع نبيل الى خادم مونرو ، ثم هبط الرجلان الى أحد الزوارق المحلية . واذ بلغا البر قال مونرو : « أتحب أن تذهب رأسا الى الدار ، أو أن تقوم أولا بجولة .. ان أمامنا ساعتين قبل موعد الغداء ! » . فقال نبيل : « ألا نستطيع أن نذهب الى المتحف ؟ » .. فابتسم مونرو ابتسامة خفيفة نمت بجلاء عن اغتباطه . وكان نبيل خجولا ، ولم يكن مونرو ثرثارا بطبيعته ، ولهذا سارا فى صمت .. وعند النهر ، رأيا أكواخ الاهالى التى يعيش فيها أهل الملايو عيشتهم الازلية التى لاتتغير .. وكانوا يعملون ، ولكن فى غير عجلة ، وأن أشعرك ذلك بنشاط عادى مشوب بالسعادة .. **كان ثمة ما يوحى بالحياة الرتيبة ، التى قوامها الولادة ، والموت ، والحب والامور العامة التى لاغنى للبشر عنها !** .. ومرا بالاسواق والشوارع الضيقة ذات السقوف المقبوة (ألبوأكى) ، حيث رأيا الصينيين يعملون ويأكلون ، ويتحدثون بأصوات عالية

كعادتهم ، ويكدون ويكدحون ويناضلون الى الابد
وقال مونرو : « انها ليست مثل سنغافورة حقا ، ولكنى أعتقد على الدوام انها بلدة بهيجة ! » . وكان يتحدث بلهجة أهدأ من لهجة نييل ، وأن كانت اللكنة الاسكتلندية ظاهرة فيها ، مما أدى الى ارتياح نييل ، فما كان بوسعه أن يقصى عن عقله أن انجليزية الشعب الانجليزى مشوهة ! .. وكان المتحف مبنى حجريا جميلا . واذ اجتازا أبوابه ، أعتدل مونرو ونصب قامته بحركة غريزية .. وأدى الخادم الواقف لدى المدخل التحية ، فتحدث اليه مونرو بلغة الملايو ، مبينا له — على ماظهر — أمر نييل ، فقد التفت الخادم الى الشاب وابتسم ، وأدى له التحية مرة أخرى . وكان الجو فى الداخل رطبا اذا قيس بحر الخارج . كما كان الضوء مريحا بعد الوهج الذى صادفاه فى الشوارع
وقال مونرو : « أخشى أن يخيب ظنك ، فنحن لم نحصل على نصف ماكان ينبغى أن يكون لدينا ، وما كان يعوقنا الى الآن سوى الافتقار الى المال . وكان علينا أن نبذل مافى وسعنا ، فأرجو أن تتساهل فى الحكم ! »
وتقدم نييل وكأنه سباح يغوص مطمئنا فى بحر ، خلال فصل الصيف .. وكانت المعروضات منظمة بشكل يدعو الى الاعجاب ، لان مونرو سعى الى توفير الجو المسلى الى جانب الناحية التعليمية : فكانت الطيور والوحوش والزواحف معروضة وقد أحيطت — على قدر الامكان — بالاوساط الطبيعية التى تعيش فيها ، بشكل يوحى بوجود الحياة . وفقد نييل خجله ، فراح يتحدث فى حماسة صبيانية عن هذا وذاك ، موجها سيلا لانهاية له من الاسئلة ، وقد استبد به الاهتمام . ولم يشعر الاثنان بمرور الوقت ، حتى لقد دهش مونرو عندما نظر الى ساعته . فما لبثا أن خرجا من المتحف ، واستقلا مركبتين من مركبات « الريكشة » الى الدار .



وقاد مونرو الشاب الى غرفة الاستقبال ، فاذا فيهاسيدة مستلقية على أريكة ، وهى تقرأ كتابا .. ونهضت ببطء عند دخولهما الحجرة ، فقال مونرو : « هذه زوجتى .. أرجو أن لا نكون قد تأخرنا كثيرا يا داريا ! » . **فابتسمت السيدة وقالت : « وفيم يهم هذا ؟ .. اهناك ماهو أقل قيمة من الوقت ؟ »**

ومدت السيدة يدها الى نبيل ــ وكانت يدا كبيرة الى حد ما ــ وصوبت اليه نظرة طويلة فاحصة ، ولكنها تنم عن ود. ثم قالت لزوجها : « أظنك كنت تريه المتحف ! »

وكانت سيدة فى الخامسة والثلاثين ، متوسطة الطول ، ذات وجه أسمر شاحب ، وعينين زرقاوين . وكان شعرها ــ المفروق عند منتصف رأسها ، والمعقود عند أعلى عنقها ــ غير منسق ، وذا لون بنى شاحب عجيب . أما وجهها فكان كبيرا ، بارز عظام الوجنتين ، مكتنز الانف بعض الشىء . **ولم تكن جميلة ، ولكن حركاتها البطيئة كانت مقترنة بفتنة مثيرة . كما كان فى تصرفاتها تراخ جسدى لا يمكن لغير بليدى الاحساس أن يغفلوه !** .. وكانت ترتدى ثوبا قطنيا أخضر اللون ، وتتحدث الانجليزية باجادة تامة ، وان كانت تشوبها لكنة خفيفة .

وجلسوا يتناولون طعام الغداء ، وقد عاد الخجل الى نبيل مرة أخرى . ولكن داريا لم تلحظ ذلك ــ على مابدا ــ فراحت

تتحدث بحرية وطلاقة .. سألته عن رحلته وعن رأيه في (سنغافورة) ، وحدثته عن الناس الذين سيلتقي بهم ، وقالت ان مونرو سيأخذه - بعد ظهر ذلك اليوم - لزيارة المقيم - لان السلطان كان متغيبا عن البلاد - ثم يذهب به الى النادي حيث يقابل كل الناس ! .. واستقرت عيناها الزرقاوان عليه باهتمام ، وهي تقول : « لسوف تغدو شخصية معروفة ! » . **ولم يكن من الصعب على أى شخص أقل ذكاء من نبيل أن يلاحظ أنها كانت تبدى اهتماما كبيرا بحجمه ، وفتوته ، وشعره اللامع المجعد ، وبشرته البديعة . فقد استطردت قائلة : « انهم لا يميلون الينا كثيرا ! »**

فقال زوجها : « هذا هراء ، وأنت حساسة أكثر مما ينبغي يا داريا ! .. كل ما في الامر أنهم انجليز ! »

- انهم يرون ان من المضحك أن يكون « أنجوس » عالما ، ويظنون أن من الحطة أن أكون روسية .. ولكن هذا لا يهمني ، فهم أغبى من رماني حظي العاثر الى المقام بينهم وأكثرهم تفاهة وضيق أفق !

- لا تزعجي « ماك آدم » في لحظة وصوله .. لسوف يجدهم كرماء ذوي حفاوة !

وسألت ماك آدم : « ما اسمك الاول ؟ » . فأجابها : « نبيل » . **واذ ذاك قالت : « سأناديك به ، وعليك أن تناديني باسم داريا ، لانني اكره أن ينادوني باسم المسز مونرو ، فان هذا يجعلني أشعر كما لو كنت زوجة وزير ! »** .. واحمر وجه نبيل وارتبك . فقد ضايقه أن تطلب منه بهذه السرعة أن يرفع الكلفة فيما بينهما ! .. ومضت هي تقول : « بعض الرجال هنا ليسوا أشرارا ! »

فقال مونرو : « انهم يؤدون أعمالهم على خير وجه ، وهذا ماجاءوا الى هنا من أجله » :

- انهم يصطادون ، ويلعبون كرة القدم والتنس والكريكيت ،

وعلاقتى بهم على مايرام .. أما النساء فلا سبيل الى احتمالهن، اذ أنهن غيورات وخبيثات وكسولات.. لايستطعن التحدث فى شىء، فاذا طرحت موضوعا أدبيا نظرن اليك بازدراء، وكأنك شخص غير مهذب !.. وماذا يملكن ان يتحدثن فيه ؟.. انهن لايهتممن بشىء. فاذا أنت تحدثت اليهن عن الجسد، اعتبرنك وقحا، واذا تحدثت عن الروح توهمنك متحذلقا !

وابتسم مونرو وقال بروحه الكريمة السمحة : « لاتأخذن كلام زوجتى بحرفيته، فان الجالية هنا كأية جالية أخرى فى الشرق، فهم ليسوا أغبياء جدا، ولا مهرة جدا، وانما هم ودودون رقيقو الحاشية، وهذا ليس بالشىء القليل ! » .

فقالت السيدة : « **لست أريد الناس ودودين رقيقى الحاشية، وانما أريدهم ذوى حيوية وعاطفة..أريدهم أن يعنوا بالبشر، وان يصغوا على الامور الروحية أكثر مما يبدون من الاهتمام بكأس من الجن أو طعام مخلوط بالتوابل .. أريد أن يكون للفن والادب مقام بينهم !** » . ثم التفتت الى نييل فجأة، وسألته : « هل لك روح ؟ » . فقال مرتبكا : « لست أدرى .. الواقع أننى لا أعرف ما تعنينه بهذا ! »

ــ لماذا تضرج وجهك عندما وجهت اليك السؤال ؟.. لماذا تخجل من روحك ؟.. انها أهم مافيك، فحدثنى عنها، لاننى مهتمة بك وأريد أن أعرف !

وبدا لنييل أن من المحرج أن يعامل بهذه الطريقة من شخص غريب تماما عنه..أبداً لم يسبق له أن قابل مثيلا لهذه المرأة، فقد كان شابا جادا، اذا وجه اليه سؤال صريح، بذل جهدا للاجابة عنه، وكان وجود « مونرو » هو الذى أربكه !.. وقال لداريا : « لست أدري ما تعنينه بكلمة روح .. اذاكنت تعنين كيانا غير مادي أو ذاتا غير مجسدة،خلقها الخالق على حدة، لتكون ذات ارتباط مؤقت بالجسم المادى، فاناجابتي

تكون بالنفى .. ويخيل الى أن هذه النظرية القائلة بازدواج جوهر الشخصية الانسانية لا يمكن لاى قادر على أن ينظر الى برهانها نظرة هادئة ، أن يدفع عنها . **أما اذا كنت من ناحية أخرى تعنين بالروح مجموعة العناصر الجسدية التى تؤلف مانعرفه باسم شخصية الفرد ، فانى اذن أقول ان لدى روحا بطبيعة الحال ! »**

فابتسمت داريا وقالت : « يالك من رقيق ، وانك لليسح الى درجة عجيبة ! .. لا ، **انما أعنى القلب بنزواته ، والجسد بشهواته ، والسرمدية التى فينا !** .. الا نبئنى ، ماذا قرأت فى رحلتك ؟ .. أم تراك اكتفيت بلعب التنس على ظهر الباخرة ؟ »

ودهش نييل لانتقالها من موضوع الى آخر فجأة ، وكان خليقا بأن يستاء لولا البشاشة التى ظهرت فى عينيها ، وما كان فى طباعها من بساطة طبيعية خالية من الاصطناع .

وابتسم « مونرو » بهدوء لارتباك الشاب .. وعندما ابتسم ، أصبحت الخطوط الممتدة من جانبى انفه الى ركنى فمه عبارة عن غضون وتجعدات ! .. وقال نييل : « لقد قرأت كثيرا لكونراد » . فتساءلت : « للمتعة أو لصقل عقلك ؟ » . فأجاب : « للأمرين معا ، فأنا معجب به الى أبلغ حد ! » . واذذاك طوحت داريا بذراعيها فى حركة احتجاج مبالغ فيها ، وصاحت : « هذا البولندى ؟ !.. كيف تسمحون أيها الانجليز لانفسكم بأن يبهرها هذا المتلاعب بالالفاظ ؟ ! .. لقد اجتمعت فيه كل سطحية مواطنيه .. **فأنت اذا تعمقت فى التفكير فى هذا السيل المتدفق من الكلمات ، والجمل التى تحمل أكثر من تأويل ، والبلاغة البراقة ، والعمق المصطنع ، فماذا تجد ؟ .. لن تجد غير شىء عادى تافه !** .. انه أشبه بممثل من الدرجة الثانية ، يرتدى ثوبا شاعريا ، ويلقى كلمات من مسرحية لفيكتور هوجو ، فاذا أنت تقول — فى الدقائق الخمس

الاولى – انها بطولة .. ثم تتمرد روحك ، فتصيح : لا ، هذا زيف .. زيف .. زيف ! »

وكانت تتكلم بعاطفة لم يعهدها نبيل من أحد المتحدثين فى الفن والادب ، وقد شاع الاحمرار فى وجهها – الذى كان يفتقد اللون عادة – وأبرقت عيناها .. فقال نبيل : « ما من كاتب يعرف كيف يهيىء الجو ككونراد ، وفى وسعى أن أبصر الشرق والمسه واشم عبيره وأنا أقرأ له ! »

– هراء ! ماذا تعرف عن الشرق ؟ .. سيقول لك كل امرىء أن كونراد ارتكب أفدح الاخطاء فيما ذكره عن الشرق ! .. سل انجوس !

فقال مونرو : « من الطبيعى انه لم يلتزم الدقة فى كل الحالات . فان (بورنيو) التى وصفها ليست هى (بورنيو) التى نعرفها . فلقد شاهدها من فوق سفينة تجارية ، ولم يكن دقيقا فى ملاحظة ما شاهده . ولكن هل لهذا قيمة ؟ .. لست أدرى لماذا يجب أن ندع الحقيقة تشوه الخيال ، ولست أظن أنه ينال من الكاتب أن يخلق من وحى روحه بلادا مظلمة ، غامضة ، ذات جو شاعرى ، وبطولة ! »

فقالت السيدة : « انك عاطفى يا عزيزى انجوس ! » .. ثم التفتت الى نبيل وقالت : « يجب أن تقرأ لتورجنيف .. ويجب أن تقرأ لتولستوى .. ويجب أن تقرأ لدستويفسكى ! »

* * *

ولم يعرف نبيل كيف يحكم على « داريا » ، فقد تجاوزت المراحل الاولى للتعارف ، وعاملته – فى الحال – كأنه شخص عرفته خير معرفة طوال حياتها . وأدهشه هذا ، وحيره ، اذ لاح له أنه سلوك أرعن .. كانت غريزته قد اعتادت أن تتوخى الحذر عندما يلتقى بأى امرىء . ومع أنه كان ودودا ، الا أنه لم يكن يميل الى أن يتمادى فى الود قبل أن يتبين الطريق

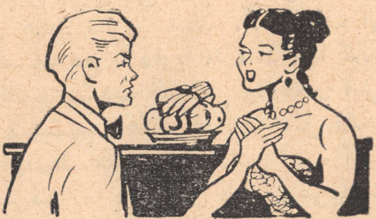
أمامه .. لم يكن يميل الى أن يمنح أى شخص ثقته قبل أن يتأكد من أن هناك مبررا لذلك .. ولكنك لم تكن تستطيع أن تتمالك نفسك مع « داريا » ، اذ أنها كانت تنتزع ثقتك انتزاعا .. كانت تسكب المشاعر والافكار التى يحتفظ بها أغلب الناس لانفسهم ، مثلها فى هذا مثل المسرف الذى يلقى بقطع الذهب وسط حشد من الناس ! .. انها لم تكن تتحدث ولا كانت تتصرف كما يفعل كل انسان عرفه من قبل .. ولم تكن تبالى بما تقول ، بل كانت تتكلم عن الوظائف الطبيعية للحيوان الممثل فى الانسان ، بطريقة جعلت الدم يتدفق الى خديه ، فأثار بذلك سخريتها ، وقالت له : « يا لك من غر !.. أى عيب فى هذا الكلام؟.. عندما اريدأن أتعاطى دواء مسهلا ، فما الذى يمنعنى من أن أقول ذلك ؟ .. وعندما أعتقد أنك تريد دواء كهذا ، فما الذى يمنع أن أقول لك ذلك ؟ »

ـ انك على حق .. من الناحية النظرية !

وحملته على أن يحدثها عن والده وأمه وأخوته ، وعن حياته فى المدرسة وفى الجامعة . وحدثته عن نفسها .. كان والدها قائدا برتبة « جنرال » ، وقد قتل فى الحرب . وكانت أمها أميرة من أسرة « لوتشكوف » .. وكانوا فى روسيا الشرقية عندما استولى البلاشفة على السلطة ، فهربوا الى (يوكوهاما) ، وعاشوا فيها حياة بؤس وشقاء فباعوا جواهرهم وما استطاعوا أن ينجوا به من تحف .. وهناك ، تزوجت من مواطن لاجىء مثلها ، ولم تسعد معه ، ولم تلبث أن طلقت منه بعد عامين !..

وماتت والدتها ، ثم اضطرت ـ اذ غدت معدمة ـ الى كسب عيشها بجميع السبل التى كانت تملكها .. فعملت فى هيئة امريكية للغوث، وعملت كمدرسة فى احدى مدارس الارساليات ، واشتغلت فى مستشفى !

وغلى دم نيبل واشتد ارتباكه ، عندما حدثته عن الرجال الذين حاولوا استغلال فرصة ضعفها وفقرها . ولم تخف



عنه شيئا من التفاصيل . فقال : « يا للوحوش ! » . فأجابته وهى تهز كتفيها : « آه .. كل الرجال على هذه الشاكلة ! » .. وذكرت أنها دافعت – ذات مرة – عن فضيلتها باشهار المسدس ، ثم قالت : « لقد هددته ، واقسمت أننى سأقتله اذا تقدم خطوة واحدة منى .. ولو أنه تقدم لكنت قتلته ككلب ! » . فهتف نبيل : « يا لله ! »

ومضت تروى قصتها فقالت انها قابلت « أنجوس » فى (يوكوهاما) – وكان يقضى اجازته فى اليابان – فأسرتها استقامته والخلق المهذب اللذان كانا ظاهرين بوضوح فيه . **وأعجبت برقته وحفاوته .. ولم يكن رجل اعمال ، وانما كان عالما ، والعلم أخ شقيق للفن .. وقد كفل لها « أنجوس » السلام والامن . وكانت قد تعبت من اليابان ، فبدت لها (بورنيو) أرضا محفوفة بالغموض .. وقد مضى على زواجها من « أنجوس » خمس سنوات !**

وأعطت نبيل روايات روسية ليقرأها .. أعطته : « آباء وأبناء » ، و « آنا كارنينا » ، و « الاخوة كارامازوف » .. وقالت : « هذه الكتب الثلاثة هى أثمن الذخائر فى أدبنا ، فاقرأها ! .. انها أعظم روايات شهدها العالم ! » .. وكانت – ككثير من مواطنيها – تتكلم وكأنما ليس فى العالم أدب آخر ،

وكأن عددا من الروايات والقصص، وعددا من القصائد ، ونحو ست من التمثيليات الجيدة ، قد جعلت كل ما أنتجه العالم من أدب مجرد كم مهمل ! .. وهكذا سحرت نبيل وطغت عليه .. وقالت له وهى تلقى اليه بنظرات رقيقه ناعمة :

« انك يا نبيل تشبه اليوشا (بطل الاخوة كارامازوف) .. ولكنك اليوشا استثنائى يتميز بالشك والفطنة اللتين لا تسمحان لروحك .. لا تسمحان لما فى نفسك من جمال روحى بأن يظهر وينجلى ! »

فقال بخجل : « ليس بى أى شبه باليوشا ! »

ــ انك لاتعرف من الذى تشبهه ، لانك لاتعرف شيئا عن نفسك ! .. لماذا تنصرف الى دراسة التاريخ الطبيعى ؟ أمن أجل المال ؟ .. لقدكان فى استطاعتك أن تكسب كثيرا من المال لو انك اشتغلت فى مكتب عمك المحامى فى (جلاسجو) ! .. اننى لاحس فيك بشىء غريب .. شىء سماوى ، حتى اننى لاود أن اخر ساجدة عند قدميك ، كما فعل الاب زوسيما اذ ركع امام ديمترى ، فى « الاخوة كارامازوف » !

فابتسم نبيل ، وان اكتسى وجهه بالاحمرار ، وقال : « ارجو الا تفعلى ! » .

غير أن الروايات التى قرأها جعلته يراها أقل غرابة مما كانت، اذ هيات حولها جوا مكنه من أن يكشف فيها عن خصال ربما كانت غير مألوفة فى النساء اللواتى عرفهن فى اسكتلندا ــ وهن أمه وبنات عمه فى جلاسجو ــ ولكنها كانت ميزات شائعة بين كثير من شخصيات القصص الخيالية الروسية . فلم يعد يعجب لحبها للسهر والاسراف فى احتساء الشاى ، والاستلقاء على الاريكة طول النهار تقريبا ، وادمانها التدخين .. كان بوسعها أن تظل أياما بطولها لا تفعل سوى ذلك ، دون أن تسأم ! .. كانت تنطوى على خليط من الخمول والحيوية !..

وكثيرا ماكانت تقول ــ وهى تهز كتفيها ــ انها شرقية ، وما

أصبحت أوربية الا بمحض المصادفة . وكانت ذات بهاء خداع يوحى بأنها ترقيه فعلا . وكانت مهمله للغاية ، فلم يبد أنها كانت تستنكر ان تتناثر أعقاب السجاير ، والصحف القديمة، والعلب المعدنيه الخاويه ، فى جنبات غرفة الجلوس . على أن نبيل خال ان فيها شيئا من « آنا كارنينا » ، فحول اليها العطف الذى شعر به نحو هذه المراة المثيرة للاشفاق ، اذ فهم كبرياءها : فما كان من الشذوذ ان تنبذ سيدات الجاليه اللاتى تعرف عليهن بعد ذلك ـ شيئا فشيئا ـ فاذا هن من عامه الناس .. كان عقلها أسرع تفكيرا من عقولهن ، وكانت أكثر ثقافه منهن ، كما أنها أوتيت ـ فوق ذلك ـ نوعا من الحساسية الجياشة التى كن يبهتن لها الى درجة غير عادية . ومع أنها كانت فى المنزل ترتدى « السارونج » و « الباجو » ـ وهما زى نساء تلك الاصقاع ـ الا أنها كانت اذا خرجت مع « أنجوس » للعشاء ، تأنقت فى ثيابها بدرجة غير مألوفه هناك . وكانت تحب أن تظهر مفاتن صدرها الكبير وظهرها الجميل، وكانت تصبغ خديها وتكحل عينيها كما تفعل الممثلات عندما يظهرن على المسرح ! .

ومع أن نبيل كان يغتبط لتلك النظرات المشغوفة أو المهتاجة التى كان ظهورها يثيرها ، الا أنه لم يكن يملك سوى أن يرى ـ فى قرارة نفسه ـ أن مما يرثى له أن تجعل من نفسها نهبا للانظار ، وكانت تبدو عظيمة فى الواقع ، ولكنك كنت خليقا بان ترى أنها ليست جديرة بالاحترام ، اذا لم تكن تعرفها ! ..

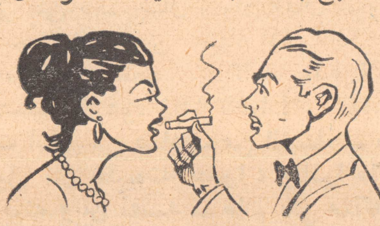
وكان فيها أمور لم يفهمها : فقد كانت ذات شهية عظيمة للاكل ، وكانت تأكل أكثر مما كان يأكل هو وانجوس معا ! .. ولم يكن فى وسعه أن يعتاد الصراحة التى كانت تتوخاها فى مناقشة الشؤون الجنسية .. وكانت ـ من ناحيتها ـ ترى أن من المؤكد انه كان على صلات بكثير من النساء فى مسقط رأسه وفى (ادنبره) ، ولهذا أخذت تلح عليه لكى يذكر لها

تفاصيل مغامراته . ولكن دهاءه الاسكتلندى ساعده على أن يروغ من الحاحها ويتهرب من أسئلتها . وكانت تضحك لهذا الاحجام . وكانت تفزعه أحيانا : فقد أخذ يألف الصراحة التى كانت تبدى بها اعجابها بشكله . ولم تكن تتحرك له نأمة عندما كانت تقول له انه جميل أشبه بانه شاب من آلهة الشمال ، فقد كان الغزل ينحسر عنه كما ينحسر الماء عن ظهر بطة .. **ولكنه لم يكن يحب منها أن تمر بيدها - وكانت يدا كبيرة ، ولكنها ناعمة جدا - على شعره ، وتتخلل أصابعها خصلاته برفق . ولم يكن يستسيغ تلك القبلة التى كانت تطبعها على خده وهى تبتسم !** .. وحدث يوما أنها أرادت أن تشرب ، فبدأت تصب الماء فى كوب كانت على المائدة ، واذا نييل يسرع قائلا : « هذه كوبى ، وقد شربت فيها ! »

- وماذا فى هذا ؟ .. انك لست مصابا بالزهرى ، أليس كذلك؟

- أنا نفسى أكره أن أشرب من كوب غيرى !

وكانت غريبة الاطوار فيما يتعلق بالسجائر كذلك . فقد حدث مرة أن كان معها ، فأشعل سيجارة ، ولكنها مدت يدها وأخذتها من فمه ، وقالت انها تريدها . ثم شرعت تدخنها ، وبعد أن جذبت منها نفسا أو اثنين ، أعادتها اليه وقالت انها لم تعد ترغب فى مزيد . وكان طرف السيجارة الذى دفعته فى فمها قد اصطبغ بخضاب شفتيها ، فكره أن يدخنها ، ولكنه



خاف أن تظنه فظا لو انه القى بالسيجارة ، فأخذ يدخنها باشمئزاز ! .. **وكثيرا ماكانت تطلب منه سيجارة ، فاذا قدمها اليها سألته أن يشعلها لها . وعندما يفعل ذلك ويمد يده بالسيجارة ، تفتح شفتيها لكى يضعها بينهما !** .. ولم يكن بوسعه أن يمنع طرف السيجارة من أن يبتل من فمه ، فكان يعجب من أنها كانت تطيق أن تضعها فى فمها بعد أن كانت فى فمه هو ! .. وكان على يقين أن مونرو لا يستسيغ هذا . ولكنها ذهبت الى درجة أن فعلت ذلك مرة أو مرتين فى النادى ، فشعر نييل اذ ذاك بأن لون وجهه أصبح قرمزيا ، وود لو أنها لم تكن على هذه العادات المستهجنة . ولكنه ظن أنها عادات روسية . ولم يكن فى وسع المرء أن ينكر أنها خير رفيقة ، فقد كان حديثها مثيرا الى حد عجيب .. كان — من قبيل التورية — أشبه بالشمبانيا (التى ذاقها نييل مرة واحدة ولم يستسغها) . ولم يكن ثمة ماتعجز عن الكلام فيه .. وما كانت تتحدث كالرجال . فأنت حين تتحدث الى رجل ، تعرف عادة ما سيقوله بعد أن تسمع أول حديثه . أما مع « داريا » ، فما كان بوسعك أن تتنبأ بما توشك أن تقول . وكانت بديهتها رائعة ، فكانت تمنحك آراء ، وتوسع مداركك ، وتثير خيالك .. وقد شعر نييل بحيوية لم يسبق له أن شعر بها ، وخيل اليه أنه يسير على قمم جبال ، وان آفاق الروح غير محدودة .. وأصبح يحس بنوع من الغبطة اذا ما فكر فى المجال العظيم الذى التقى فيه عقله بعقلها .. **كانت هذه الاحاديث تجعل من اللذة الحسية المزهوة زبدا تافها ! .. واستطاع أن يرى أن المرأة كانت أذكى من صادف من النساء — من وجوه عديدة — مع أن نييل كان بطبيعته حذرا ، ونادرا ماكان يصدر رأيا — ولو فيما بينه وبين نفسه — مالم يكن متأكدا منه !**

وكانت الى جانب هذا الذكاء زوجة « انجوس مونرو » .. ومهما يكن من تحفظ نييل ازاء « داريا » ، فانه لم يكن يشعر

بأى حذر من ناحية « أنجوس » ! .. وكانت براعتها الفذة خليقة بأن تتضاءل ، اذا هى لم تفد من الاعجاب البالغ الذى كان يكنه لزوجها . **فقد كان نبيل يترك نفسه على سجيتها فى حضرة ((أنجوس)) ، اذ كان يشعر نحوه بما لم يسبق أن شعر به نحو أى شخص آخر . فقد كان ((أنجوس)) عاقلا ، متزنا ، متسامحا الى أقصى الحدود ، وهذا هو الطراز الذى كان نبيل يرجو أن يكونه عندما تتقدم به السن ! ..** كان قليل الكلام ، فاذا تكلم صدر فى حديثه عن عقل راجح . وكان حكيما ، ذا نكتة لاذعة يفهمها نبيل ، وتجعل من المزاح الانجليزى الذى يصدر عن قلوب رواد النادى عبثا تافها ! .. كذلك كان كريما ، صبورا ، له مهابة يستحيل على أى امرىء ازاءها أن يرفع الكلفة معه ، ولكنه لم يكن ـ مع هذا ـ متعجرفا ولا متكبرا ، وانما كان صادقا ، وأمينا . ولم يكن اعجاب نبيل به كعالم يقل عن اعجابه به كرجل . فقد كان واسع التفكير ، دقيقا . ومع أن اهتمامه كان منحصرا فى البحوث ، فقد كان يؤدى اجراءات العمل اليومية المألوفة فى المتحف بمواظبة وأمانة .

* * *

وكان فى تلك الفترة معنيا بالحشرات العصوية ويعتزم وضع رسالة فى مقدرتها على التوالد العذرى . وقد وقع حادث ذو علاقة بالتجارب ـ التى كان يقوم بها ـ كان له أثره البالغ فى نفس نبيل . فقد حدث يوما أن أفلت قرد صغير من وثاقه ، وأكل جميع اليرقات التى كانت التجارب تجرى عليها ، فأتلف الدليل الذى كان مونرو يعتمد عليه . وقد كاد نبيل أن يبكى عندما رأى هذا ، ولكن أنجوس اكتفى بأن أخذ القرد وابتسم وربت عليه ، وهو يردد العبارة المأثورة عن اسحق نيوتن : « دياموند ! دياموند ! .. انك لا تدرى مدى ما أوقعت من تلف ! »

وكان يدرس التقليد والمحاكاة بين المخلوقات كذلك . وقد نقل الى نييل عدوى اهتمامه بهذا الموضوع المثير للجدل، وطالما عقدا محادثات طويلة بشأنه . وقد دهش نييل لغزارة معرفة أمين المتحف ، الذى بدا كالموسوعة ، مما جعل نييل يخجل من جهله .. وعندما تحدث مونرو عن رحلاته الى الريف ، ليجمع عينات من الحشرات لتجاربه ، اشتدت حماسة نييل، **فقد كانت هذه هى الحياة الحقيقية ، فى رأيه .. حياة المتاعب والصعاب ، التى تقترن بالحرمان فى أغلب الاحيان ، وبالخطر فى بعض الاحيان ، والتى يتمثل الجزاء عنها فى نشوة الحصول على عينات نادرة — أو جديدة ، على الاقل — وفى جمال المناظر ، وتأمل الطبيعة ، وفى الشعور — فوق كل شىء — بالحرية من كل قيد** . وكان هذا الجزء من العمل هو الذى عين نييل لمباشرته أساساً ، فقد كان مونرو منهمكا فى البحوث بحيث بات من العسير عليه أن يتغيب عن مركزه بضعة أسابيع فى الرحلة الواحدة ، كما أن داريا كانت ترفض على الدوام أن ترافقه ، لانها كانت تشعر بخوف لا حد له من الغابة ، وكانت تذعر من الوحوش والافاعى والحشرات السامة، وكان مونرو لاينفك يؤكد لها أنه ما من حيوان يؤذيها الا اذا عاكسته أو أخافته . ولكنها لم تستطع — برغم هذا — أن تتغلب على خوفها الغريزى . **ولم يكن يحب أن يفارقها ، اذ أنها لم تكن تهتم بالمجتمع المحلى ، وكان يعلم أن ابتعاده عنها يجعل الحياة فى نظرها مملة الى حد لا يطاق . ولكن السلطان كان شديد الاهتمام بالتاريخ الطبيعى ، وتواقا الى أن يستكمل المتحف جميع الاحياء فى تلك البلاد** . وكان على مونرو ونييل أن يقوما معا برحلة ، حتى يتعلم نييل كيف يمضى فى العمل . وقد مكثا أشهرا يدرسان خطط هذه الرحلة . وأخذ نييل يتطلع اليها كما لم يتطلع الى أى شىء فى حياته !

وكان ـ فى تلك الاثناء ـ قد تعلم لغة (الملايو) ، وألم الماما سريعا بمختلف اللهجات التى قد تفيده فى رحلته .. كما كان يلعب التنس وكرة القدم .. وسرعان ماعرف كل شخص من أفراد الجالية الاوربية . وكان يطرح عنه العلم والقصص الروسية ، اذا مانزل ميدان كرة القدم ، فينصرف الى الاستمتاع باللعب . وكان قويا وسريعا ونشيطا فى لعبه .

* * *

ولم يكن فى النية أن يقيم نييل اقامة مستمرة مع مونرو. وقد كانت هناك استراحة رحيبة فى (كوالا سولور) ، ولكن القاعدة كانت تقضى بأن لايقيم المرء فيها لاكثر من أسبوعين ، فكان الاعزاب يؤلفون جماعات تشترك كل منها فى دار واحدة. اذ لم تكن لهم مساكن رسمية .. وعندما وصل نييل ، لم يكن هناك مكان خال فى احدى هذه الدور . **ولكن حدث ذات مساء ـ بعد ان كان قد أقام فى البلاد أربعة أشهر ـ أن أخبره « وارنج » و « جونسون » ، بينما كانا يجلسان معه بعد مباراة فى التنس ، أن زميلا لهما فى الدار سيعود الى بلاده ، وسألاه عما اذا كان يحب أن ينضم اليهما فى المسكن** .. وكانا شابين فى مثل سنه ، ومن أعضاء فريق كرة القدم ، وقدمال اليهما نييل . وكان «وارنج» يعمل فى الجمارك ، و«جونسون» فى البوليس . وقد ابتهج نييل لهذه الفكرة ، وتقبلها على الفور ، فأبلغاه بنفقات هذه الاقامة ، واتفقا معه على يوم ينتقل فيه الى الدار ، على أن يكون هذا اليوم بعد أسبوعين .

وأبلغ مونرو وزوجته بهذا النبأ فى وقت العشاء ، قائلا : « انه لجميل منكما أن أبقيتمانى معكما هذه الفترة الطويلة ، ولكنى كنت على مضض ، اذ فرضت نفسى عليكما .. كنت فى أشد حالات الخجل . أما الآن فلم يبق أمامى أى عذر ! » .

فقالت داريا : **« ولكننا نحب أن تقيم معنا هنا فلست بحاجة الى عذر ما ! »**

– ما أرانى أقيم هنا الى مالا نهاية !

– ولم لا ؟ .. ان مرتبك ضئيل ، فما جدوى انفاقه فى المسكن والمأكل ؟ .. ثم انك لن تلبث ان تضيق بوارنج وجونسون لانهما غبيان ، ولا يفكران فى شىء غير الانصات الى ((الجراموفون)) ، والعب !

وكان من المناسب حقا أن يعيش الانسان بغير مقابل ، فقد كان يقتصد الشطر الاكبر من مرتبه . وكان بطبيعته ميالا الى الاقتصاد ، ولم يعتد التبذير اذا مالم تدع اليه ضرورة . ولكنه – برغم هذا كله – كان ذا انفة ، فليس بوسعه أن يعيش على حساب الاخرين . وقد نظرت اليه ((داريا)) بهدوء ، وبعينين فاحصتين ، وقالت : ((لقد الفناك – انا وانجوس – وأعتقد أننا سنفتقدك . ويمكنك اذا أردت أن تدفع نفقات اقامتك معنا .. انك لاتكبدنا شيئا ، ولكنى على استعداد لان أتبين – من حساب الطاهى – المبلغ الذى تتكلفه ، وتستطيع أن تدفعه اذا كان ذلك يهون عليك الامور !)) .

فأجاب بشىء من التردد : ((ان ايواء غريب فى المنزل من الامور المزعجة ولا بد !)) . ولكنها قالت : ((ستكون اقامتك فى تلك الدار مزرية ! .. ويالها من قاذورات ، تلك التى يأكلونها !))

وكان صحيحا أن المرء يأكل عند آل مونرو وجبات لا يجد خيرا منها فى أى مكان آخر فى (كوالا سولور) ، وقد عرف نييل هذا بالتجربة ، اذ تناول طعام عشائه مرات فى دور أخرى – منها دار المقيم – فلم يجد ماهو أفضل من طعام آل مونرو . **اذ كانت ((داريا)) ذواقة للطعام ، حريصة على أن يكون الطاهى بارعا الى أقصى درجة . فكان يطهو لها الاكلات الروسية التى تغرى بالاقبال عليها** ، وكان حساء الكرنب على مائدتها ، جديرا بأن يسير المرء خمسة أميال ليظفر بنصيبه منه .

وظل مونرو لا يقول شيئا . ولكنه ما لبث أن قال :

« يسعدنى أن تبقى معنا . ومن المناسب أن تكون فى عين المكان الذى أكون فيه، حتى اذا استجد شىء أمكننا أن نبحثه فى وقته .. ان وارنج وجونسون من خير الفتيان ، ولكنك قد تتبين - بعد أن تقضى معهما فترة من الزمن - أنهما محدودا الافق ! » . **فقال نبيل : « آه ، لا بأس اذن ، وسيسرنى البقاء . فالله يعلم أننى لا أريد أحسن من هذا .. كل ما فى الأمر أننى خشيت أن أكون قد أثقلت عليكما ! »**

وهطل المطر فى اليوم التالى ، واشتد الى حد أصبح من المستحيل معه لعب التنس أو كرة القدم ، غير أن نبيل ارتدى - حوالى الساعة السادسة - معطفا واقيا من المطر ، وذهب الى النادى . ولم يكن هناك أحد غير المقيم ، الذى كان جالسا فى مقعد مريح ، يقرأ احدى المجلات .. وكان يدعى « تريفليان » ويزعم أنه كان يمت الى صديق « بيرون » الذى كان يحمل هذا الاسم . وكان طويل القامة ، بدينا ، أشيب الشعر ، ذا وجه كبير أحمر يشبه وجه الممثل الهزلى . وقد كان مغرما بالمسرحيات التى يؤديها الهواة ، وكان أعزب وان اشتهر بأنه كان ولوعا بالفتيات ، ويحب تعاطى شراب « الجن » قبل العشاء ، ويدين بمنصبه هذا لصداقته للسلطان .. كما أنه كان لطيف المعشر ، محدثا لبقا ، لايحب العمل كثيرا ، بل يحب أن يسير كل شىء فى يسر وسهولة دون أن يثير أحد أية مشاكل . **ومع أنه لم يكن كفءا ، الا أنه كان محبوبا من الجميع ، لانه كان ابن العريكة ، مضيافا . والواقع أنه بهذا جعل الحياة مريحة أكثر مما لو أنه كان نشيطا وكفءا !**

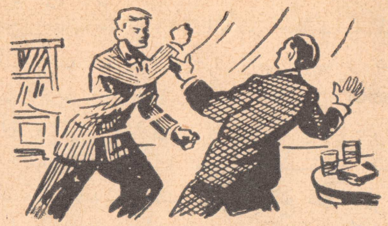
واذ وقع نظره على نبيل ، أومأ اليه محييا وقال : « حسنا أيها الشاب ، كيف حال الحشرات اليوم ؟ » . فأجاب نبيل بلهجة جدية : « فى خير حال يا سيدى ! » .

وان هى الا بضع دقائق، حتى دخل « وارنج » و « جونسون » وشخص ثالث ، كان موظفا حكوميا يدعى « بيشوب » . وسألوا

نبيل أن يشترك معهم فى لعب « البريدج » ، ولكنه اعتذر . فذهب بيشوب الى المقيم وسأله : « هل تتكرم بأن تكون رابعنا فى اللعب .. فليس فى النادى اليوم كثيرون » . فنظر المقيم الى الآخرين ثم قال : « لا بأس . سأفرغ من قراءة هذا الموضوع ، ثم انضم اليكم ، فابدأوا اللعب وكأننى معكم ، ولن أغيب أكثر من خمس دقائق ! » .. وسار نبيل الى الرجال الثلاثة ، وقال لوارنج : « بهذه المناسبة ، أشكرك كل الشكر يا وارنج ، ولكنى لن أستطيع الانتقال الى داركم ، لان مونرو وزوجته سألانى أن أستمر فى الاقامة معهما ! » .. وارتسمت على وجه « وارنج » ابتسامة عريضة وقال: « هذا عجيب ! » . فقال نبيل : « **انه لطف بالغ منهما ، أليس كذلك ؟ .. لقد ألحا فى هذا ، حتى أننى لم أستطع الرفض !** »

فقال بيشوب : « ما الذى قلته لك ؟ » . فأجاب وارنج : « لست ألوم الفتى ! » .. وكان فى مسلك الشابين شيء غريب لم يرق لنبيل . فقد بدا له أنهما كانا يتهكمان ، فاحمر وجهه وصاح : « عم تتحدثان بحق الشيطان ؟ » . فقال بيشوب : « **آه ، لا تغضب .. اننا نعرف صاحبتنا « داريا » ، ولست أنت أول شاب جميل الطلعة تستهويه ، ولن تكون الاخير !** »

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى كانت قبضة نبيل قد انطلقت كالبرق ، فأصابت وجه بيشوب ، فسقط على الارض . وهب جونسون فطوق وسط نبيل ، لانه كان قد فقد سيطرته على أعصابه ، وأخذ يصيح قائلا : « دعنى ، فسوف أقتله ما لم يسحب ما قال ! » . وانتبه المقيم الى الهرج ، فقام متثاقلا ، واتجه نحوهم ليستجلى الامر وقال : « ما هذا ؟.. ما هذا ؟.. ماذا تلعبون أيها الاولاد ، بحق الجحيم ؟ » .. وبهت الجميع ، اذ كانوا قد نسوا وجوده ، وهو صاحب السلطان عليهم . فتخلى جونسون عن نبيل ، واستجمع بيشوب نفسه ووقف ، وتجهم وجه المقيم وسأل نبيل : « ما معنى هذا ؟ .. هل



ضربت بيشوب ؟ » . فأجاب: « أجل يا سيدى » . وعاد المقيم يسأله : « ولماذا ؟ » . واذ أجاب : « لانه فاه بعبارة تمس شرف سيدة » ، أبرقت عينا المقيم ولكنه استمر ى حديثه قائلا : « وأية سيدة ؟ »

فرفع نبيل رأسه عاليا ، وانتصبت قامته ، وقال : « اننى أرفض الاجابه ! »

ولو لم يكن المقيم أطول من نبيل ببوصتين ، وأكبر منه حجما ، لكان موقف الشاب أدعى للارهاب .. وقال المقيم لنبيل : « لا تكن غبيا ! » . فقال جونسون : **« انها داريا مورو ! »** . واذ ذاك قال المقيم : « وماذا قلت يا بيشوب؟ » .

— لقد نسيت الكلمات التى استخدمتها ، ولكنى قلت ما معناه انها شاركت عددا كبيرا من الشبان الفراش ، وعبرت عن ظنى بأنها لم تفلت فرصه لان تفعل ذلك مع « ماك آدم » أيضا !

— انه ظن ينطوى على أشد الاهانات ، ويحسن بك أن تعتذر اليه وتصافحه !

— لقد تلقيت لكمة شديدة ، ولن تلبث عينى أن تتورم .. وليلعننى الله اذا أنا اعتذرت عن صدق قلته !

— انك من كبر السن بحيث تدرك أن مجرد صدق قولك يجعله أبلغ اهانة . أما عن تورم عينك ، فيقال أن قطعة من

اللحم النيىء تفيد فى مثل هذه الظروف ! ! .. واذا كنت أضع رغبتى فى ان تعتذر ، فى قالب رجاء ، فليس هذا سوى مجاملة وتادبا ، ولكنها فى الواقع أمر !

وسادت فترة من الصمت ، بدا المقيم خلالها متلطفا .. وما لبث بيشوب أن قال فى تجهم : « اننى أعتذر عما قلت يا سيدى » . فقال المقيم : « والآن .. دورك يا ماك آدم ! »

— آسف لاننى آذيته يا سيدى ، وأعتذر أنا الآخر !

فقال المقيم : « فلتتصافحا ! » .. وتصافح الشابان ، فاستطرد المقيم قائلا : « لست أحب أن يتسع هذا الموضوع ، لانه لن يكون سارا لمونرو الذى نحبه جميعا على ما أعتقد . فهل أعتمد عليكم فى ان تعقلوا ألسنتكم ؟ » . فأومأوا جميعا برؤوسهم . ومضى المقيم يقول : « والآن .. انصرفوا ، وابق أنت يا ماك آدم ، فانى أحب أن أزجى اليك بضع كلمات ! » ..

وعندما أصبح الاثنان وحيدين ، جلس المقيم وأشعل سيجارا لنفسه ، وقدم آخر لنبيل ، ولكن هذا اعتذر لانه لم يكن يدخن غير السجائر .. وقال المقيم مبتسما : « انك شاب عنيف جدا ، ولست أحب أن يظهر الموظفون الذين تحت امرتى بمثل هذه المظاهر فى مكان عام » .

— ان المسز مونرو صديقة حميمة لى ، وقد أظهرت لى عطفا كبيرا ، فلست أطيق أن أسمع شيئا ضدها !

— اننى أخشى اذن أن تضطر الى أن تنشىء لنفسك وظيفة جديدة تناسبك ، اذا بقيت هنا زمنا أطول

فصمت نبيل برهة ، ووقف منتصبا أمام المقيم ، فارع الطول ، لا يشوب وجهه الجاد سوى امارات الصدق .. وطوح برأسه الى الوراء فى تحد ، وأظهر الانفعال لكنته الاسكتلندية أوضح من المألوف ، وهو يقول : « لقد أقمت مع آل مونرو أربعة أشهر ، وأقسم لك بشرفى على أنه — فى النطاق الذى يمسنى — ليست هناك أية ذرة من الحقيقة فيما قاله

هذا الوحش .. فلم تبد المسز مونرو لى معاملة يمكن أن تصفها بأنها منطويه على ود لا مبرر له ، ولم تظهر أية بادرة توحى الى — بالقول او بالفعل — بأن لديها أية فكرة غير بريئة . وانما كانت لى بمثابة الام أو الشقيقة الكبرى ! » .. وظل المقيم يراقبه فى تهكم واستهزاء ، ثم قال : « **يسعدنى جدا أن أسمع هذا فهو أحسن ما سمعته عنها منذ وقت طويل ! »**

— أنت تصدقنى يا سيدى .. أليس كذلك ؟

— طبعاً ! .. وربما تكون قد أصلحتها !

ونادى المقيم الساقى ، فطلب منه كأسا من الجن ثم التفت الى نبيل وقال: « هذا يكفى ، ويمكنك الآن أن تذهب اذا أردت . ولكنى لا أريد المزيد من العراك ، فحذار ، والا أوقعك هذا فى متاعب ! »

* * *

وعندما سار نبيل عائدا الى دار مونرو ، كان المطر قد توقف عن الهطول ، وظهرت النجوم فى رقعة السماء المخملية ، وأخذت الفراشات تطير فى الحديقة وتنتقل بين الازهار ، وتصاعد من الارض دفء معطر .. مما كان يوحى اليك بأنك اذا توقفت عن السير استطعت أن تسمع حركة نمو الزرع الجميل .. وكانت زهرة الليل البيضاء تبعث فى الجو أريجا شذيا .

وكان مونرو يجلس فى الشرفة منهمكا فى نسخ بعض المذكرات على الالة الكاتبة ، بينما استلقت « داريا » على مقعد طويل ، وراحت تقرأ .. **وكان المصباح المعلق وراءها يلقى ضوءه على شعرها الفاتم ، فيكسبه بريقا يبديه كالهالة ! .. وعندما سمعت خطواته ، وضعت الكتاب جانبا ونظرت اليه وابتسمت ابتسامة مسرفة فى الود .. وقالت :** « أين كنت يا نبيل ؟ » . فأجاب : « فى النادى » . وعادت تقول : « **وهل كان هناك أحد ؟** »

وكان المنظر عائليا مريحا ، وفى مسلك « داريا » دعة وطمأنينة يستحيل على الانسان أن لا يتأثر بهما ، وقد انصرف كل من الزوجين الى مايهمه ، ومع ذلك فقد لاح أنهما متحدان ، وان ائتلافهما طبيعي الى حد لا يمكن لاى انسان أن يتصور معه أنهما غير سعيدين ! .. ولم يصدق نبيل كلمة واحدة مما قال بيشوب وما لمح به المقيم ، فقد كانت هذه أمورا لا يقبلها العقل ، ولئن هو متأكدا - على أية حال - من أن ماساورهم من ريب نحوه كان بعيدا عن الحقيقة ، فلماذا لا يكون باقى الحديث غير حقيقى كذلك ؟ .. لقد كانت لهؤلاء الناس افكار خبيثة ، وكانوا أشرارا ، ولهذا فهم يظنون أن كل شخص آخر على شاكلتهم ! .. وشعر بألم فى مفاصل أصابعه ، ولكنه شعر أيضا بالاغتباط لانه آذى بيشوب .. وتمنى لو يعرف من الذى بدأ اذاعة هذه الشائعة الخبيثة ، اذن لدق عنقه !

غير أن مونرو قطع عليه أفكاره ، معينا موعد الرحلة التى بحثا امرها طويلا . وبدأ - بطريقته الدقيقة - يعد العدة للرحلة ، حتى لا ينسيا شيئا فى اللحظة الاخيرة . وكانت الخطة التى رسمها تتمثل فى أن يمضيا فى النهر الى أقصى مايستطاع ، ثم يشقا طريقهما خلال الغابة ويسعيا وراء العينات على جبل (هيتام) الذى لا يعرفه الكثيرون . وكانا يتوقعان أن تستغرق الرحلة شهرين . وأخذت روح مونرو المعنوية ترتفع باقتراب موعد الرحيل . ومع أنه لم يكن يتحدث كثيرا - بل ظل هادئا متماسكا أعصابه - الا أنه لم يكن من العسير على المرء أن يحكم من البريق الظاهر فى عينيه والنشاط الذى دب فى خطواته ، بمدى تشوقه الى البدء فى الرحلة .. وبينما كان فى المتحف فى صبيحة أحد الايام ظهر عليه المرح ، وقال فجأة لنبيل ، بعد أن فرغا من بعض تجارب كانا يجريانها : « لدى أنباء سارة لك ... ان داريا ستأتى معنا ! »

- هل ستأتى حقيقة ؟ .. انه لامر عظيم حقا !

واغتبط نيل لهذا النبأ ، بينما قال مونرو :

ـ انها المرة الاولى التى تمكنت فيها من اغرائها بمرافقتى . وكم نبأتها أنها ستسر وتستمتع بالترحال ، ولكنها لم تكن تصغى الى ! .. يا للنساء من مخلوقات شاذة ! .. لقد يئست من اقناعها ، فلم أسألها المجىء فى هذه المرة ، ولكنها فاجأتنى فى الآونة الماضية برغبتها فى مرافقتنا !

فقال نيل : « لشد ما أنا مسرور ! » . وأردف مونرو : « لم أكن أستسيغ فكرة تركها وحدها فترة طويلة . أما الآن ، فبوسعنا أن نبقى فى الرحلة أطول فترة نشاء ! »

وبدأت الرحلة فى ساعة مبكرة من صباح أحد الايام وقد استقلوا أربعة قوارب ، يقودها بحارة من أبناء الملايو . وكانت الحملة تتألف من خدمهم وأربعة من الصيادين ، من عشائر « الدياك » . وجلس البيض الثلاثة متجاورين تحت السقيفة ـ فى أحد هذه القوارب ـ بينما كان الخدم الصينيون و « الدياك » فى القوارب الاخرى . وقد اصطحبوا أكياسا من الارز لمرافقيهم ، وأطعمة لانفسهم ، وملابس ، وكتبا ، وكل ما كان ضروريا لعملهم .. وما كان أسعدهم حين تركوا المدنية وراءهم ، فاستولى عليهم المرح ، وأخذوا يتحدثون ، ويدخنون ، ويقرأون ! .. وكانت حركة النهر مهدئة للاعصاب الى حد رائع ! .. وتناولوا طعام الغداء على شاطىء مكسو بالحشائش والاعشاب ، حتى اذا كان الغسق ، ألقوا المراسى لقضاء الليل ، وقد ناموا فى دار طويلة ، واحتفل الاهالى بزيارتهم ، فقدموا شراب « العرق » ، وأقاموا حفلة راقصة يقصر عن وصفها الخيال !

وفى اليوم التالى ، أخذ مجرى النهر يضيق ، فزاد فى شعورهم بأنهم مقدمون على المجهول . أما النباتات التى حفلت بها حواف الشاطئين ـ وكأنها حشد من الناس المتحمسين تدفعهم من الوراء حشود أكبر ـ فقد فتنت نيل الى حد بهر أنفاسه عجبا وغبطة ! .. حتى اذا كان اليوم الثالث ،

انتقلوا الى قوارب أخف وزنا ، اذ ازداد المجرى ضحلا والتيار اندفاعا . ولكن التيار اشتد ، فلم يعد فى طاقة البحارة أن يجدفوا ، بل استخدموا المدراة لتسيير القوارب ضد التيار بحركات قوية رائعة . وكانوا بين الحين والآخر يمرون بشلالات ، فينزلون الى الشاطىء ، ويفرغون القوارب ، ثم يسحبونها خلال ممرات مملوءة بالصخور ..

* * *

وفى اليوم الخامس بلغوا بقعة لم يتمكنوا بعدها من التقدم . وكانت هناك دار حكومية فقضوا فيها ليلتين ، قام خلالها مونرو باتخاذ الاجراءات اللازمة ليوغلوا فى داخل البلاد . فطلب حمالين لنقل متاعهم ، ورجالا ليبنوا لهم دارا عندما يصلون الى جبل (هيتام) . وكان لزاما على مونرو أن يقابل زعيم قرية مجاورة ، فرأى ـ اقتصادا فى الوقت ـ أن يذهب بنفسه الى الزعيم ، بدلا من أن يستدعيه اليه . وهكذا ذهب الى القرية فى فجر اليوم التالى لوصولهم ، ورافقه دليل واثنان من « الدياك » . وكان يتوقع أن يعود فى بضع ساعات .

وبعد أن ودع نبيل رئيسه ، رأى أن يستحم . وكانت هناك بركة غير بعيدة عن الدار ، ينساب فيها الماء صافيا ، حتى لتستطيع أن ترى كل ذرة من رمال القاع . وكان النهر فى هذه البقعة ضيقا للغاية ، حتى أن أشجار الضفتين كانت تتعانق فوقه .. كانت بقعة جميلة ، ذكرت نبيل بالبرك الاسكتلندية التى كان يستحم فيها وهو غلام ، وان كانت ـ مع هذا ـ تختلف عنها اختلافا غريبا ، اذ كان يخيم عليها جو شاعرى ، واحساس بالطبيعة البكر ، مما ملأ قلبه بمشاعر تعذر عليه تحليلها .. ولقد حاول تحليلها ـ فى الواقع ـ ولكن رؤوسا اكبر سنا من رأسه ، عجزت عن تعرف كنه هذه السعادة ! .. وكان هناك طائر أزرق اللون ، يقف على فرع شجرة ، وقد انعكس لونه

الازرق الزاهى على ماء الجدول الشفاف . ثم طار ، فاذا له جناحان فى بريق الجواهر . والظاهر أنه فوجىء بظهور نبيل الذى خلع ثيابه ، وارتمى فى الماء !

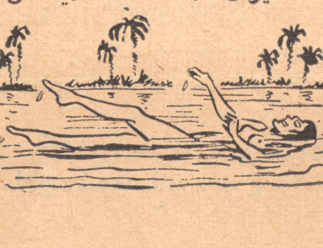
وكان الماء عذبا ، ولكنه لم يكن باردا . فأخذ يضرب فيه بيديه ورجليه ، مستمتعا بحركة ساقيه القويتين . ثم استلقى على ظهره ، وأخذ يتطلع — خلال الاغصان — الى السماء الزرقاء ، والى الشمس التى كانت ترسل أشعتها على سطح الماء . ولكنه سمع فجأة صوتا يقول : ((ما أنصع بياض جسمك يا نبيل !)) . فشهق وانتفض من استلقائه ، وغاص بجسمه فى الماء ، ثم استدار فرأى داريا واقفة على الشاطىء !..

وقال : ((اسمعى .. ليست على جسدى ثياب ما !))

— اننى ارى هذا .. وانه لاكثر متعة أن يستحم الانسان بغير ملابس! انتظر برهة ، فانى آتية اليك ، اذ يلوح الاستحمام ممتعـا !

وأخذت تخلع ملابسها ، فأسرع يشيح بوجهه . ثم سمع صوت ارتطام جسمها بالماء ، فضرب الماء مرتين أو ثلاثا ليبتعد فيفسح لها مكانا تسبح فيه بمنأى عنه . ولكنها سبحت نحوه وقالت : ((أليس الشعور بالماء على الجسم لذيذا ؟))

وضحكت ، وفتحت كفها ناثرة الماء عليه ، فارتبك ولم يدر الى أية ناحية يوجه نظره ، اذ كان من المستحيل عليه — فى هذا الماء الصافى — الا يرى أنها كانت عارية من كل شىء . ولم



يكن الأمر سيئا وهى فى الماء ، ولكنه لم يتمالك أن يفكر فى الصعوبة التى ستحف بمبارحة الماء . وبدا أن « داريا » كانت منتشية ، اذ هتفت : « لست أبالى بأن يبتل شعرى ! » . ثم انقلبت على ظهرها ، وسبحت حول البركة بضربات قوية ، بينما كان نبيل يقول لنفسه أن خير ما يجب ان يفعله — عندما تغادر الماء — هو أن يوليها ظهره ريثما ترتدى ملابسها وتنصرف .. ثم يغادر الماء بعد ذلك . ولكنها لم تكن شاعرة بحرج الموقف — فيما بدا — فاغتاظ منها ومن مسلكها غير اللائق . وقد ظلت تتحدث اليه وكأنها على البر فى كامل ملابسها .. بل انها راحت تلفت انتباهه اليها ، اذ قالت : **« هل يبدو شعرى بشع المنظر ؟ .. انه من النعومة بحيث يغدو كذيول الجرذان اذا ما ابتل ! .. امسكنى من تحت كتفى لحظة ، ريثما أحاول أن أعقصه ! »**

— انه لا بأس به ، ومن الخير أن تتركيه الآن

— انني أكاد أموت من الجوع ، فما رأيك فى تناول الفطور ؟

— اذا خرجت من الماء أولا ، وارتديت ملابسك ، فسأتبعك بعد دقيقة واحدة

قالت : « حسنا » . وسبحت نحو الشاطىء بحركتين من ذراعيها . أما نبيل فقد حول نظره الى ناحية أخرى حتى لا يراها وهى تخرج عارية من الماء .. ولكنها لم تلبث أن صاحت : « لست قادرة على الخروج ، فتعال وساعدنى ! » .. فقد كان النزول الى النهر سهلا ، ولكن الشاطىء كان عاليا ، بحيث يتعين على المرء أن يرفع نفسه بأن يتشبث بغصن شجرة .. وقال نبيل : « لا أستطيع ذلك ، فليست على جسمى قطعة من الملابس »

— أعرف هذا ، فلا تكن متزمتا كمواطنيك الاسكتلنديين ، بل اخرج الى الشاطىء ، ومد الى يدك لتساعدنى على الخروج!

ولم يكن هناك مفر من هذا ، فخرج نبيل وسحبها وراءه . وكانت قد تركت ملابسها بجوار ملابسه ، فأخذت تجفف جسمها . ولم يسع نبيل الا أن يحذو حذوها . ولكنه أدار لها ظهره من باب الكياسه والذوق ، فقالت له : ((**الحق أن لك جسداً جميلا للغاية ، فهو أبيض ، ناعم الملمس ، كأنه جسم امرأة !.. انه لامر عجيب أن تكون هذه الصفات مقترنة بمثل قوتك وفتوتك.. ثم أنك لم تؤت شعرة واحدة على صدرك !**)).

فلف نبيل ((الساورنج)) ــ المئزر ــ حول خصره ، وسلك ذراعيه فى ((الباجو)) ، ثم سألها : ((أعلى استعداد أنت ؟)).

وظل نبيل بعد الفطور متجهما بعض الشىء .. لقد كانت ((داريا)) ممعنة فى صبغتها الروسية الى أبعد مدى . وكان من أغباء أن تتصرف تصرفا كهذا ، لم يكن فيه شىء من الضرر ــ بطبيعة الامر ــ ولكنه كان عين النوع الذى يحمل الناس على أن يظنوا فيها الظنون .. وأسوأ ما كان فى الامر ، أنك لم تكن تملك أن تنبهها الى الامر بأية اشارة ، فانها ما كانت تفعل سوى أن تضحك منك. **ولكن الواقع هو أنه لو كان قدر لواحد من أولئك الرجال الذين فى (كوالا سولور) أن يراهما يستحمان سويا وهما عاريان ، لما أفلحت أية حجة فى اقناعه بأنه لم يحدث بينهما شىء غير لائق !..** وقد اعترف نبيل بينه وبين نفسه ــ وبطريقته المنصفة ــ بأنه لايملك أن يلوم أشخاصا كهؤلاء.. كان تصرفها أسوأ ما يكون ، فما كان من حقها أن تزج بشخص فى مثل هذا المأزق .. وشعر بأنه مغفل، فقد كان المسلك مجافيا للياقة ، مهما يكن رأيك أو حجتك !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، شاهدا الحمالين آتين فى صف طويل ، وقد حمل كل منهم نصيبه من الامتعة فى سلة علقت على ظهره ، ووراءهم الخدم والاولاد والصيادون . فانضما

الى هذا الموكب ، وسار الجميع فى طريق يمتد فوق الحواف السفلى للجبل ، خلال وهاد ومرتفعات تكسوها أعشاب طويلة . وكانوا يصادفون - بين فترة وأخرى - جداول ضيقة اجتازوها على جسور مصنوعة من الغاب . وكانت الشمس تلفحهم بحرارتها العنيفة . ووصلوا بعد ظهر ذلك اليوم الى ظلال أجمة من أشجار الغاب ، فكانت متنفسا لهم بعد ذلك القيظ الشديد . وكان منظر الغاب رائعا وهو ينتصب فى رشاقة الى ارتفاعات لا يكاد يصدقها العقل .. وأخيرا ، وصلوا الى الغابة الكبرى : أشجار ضخمة تلتف حولها النباتات المتسلقة الغزيرة ، وقد تعانقت الفروع والاغصان ، وخيمت عليها الرهبة ! .. وشق القوم طريقهم خلال الاعشاب والنباتات الكثيفة ، ضاربين وسط ظلام خفيف كظلام الغسق ، لا يحظون بلمحة من ضياء الشمس الا بين آن وآخر ، خلال الاغصان المتشابكة فوقهم .. ولم يروا انسانا أو حيوانا ، لان سكان الغابة يجفلون عادة لاول صوت لوقع الاقدام ، فيختفون عن الانظار ! .. وكانوا يسمعون الطيور فى أعالى الاشجار ، ولكنهم لم يروا منها غير طائر « أبى الزهور » المغرد ، الذى يتنقل بين الشجيرات ويحط على الزهور ليداعبها ويغنى لها . وما لبث القوم أن حطوا الرحال لقضاء الليل . فأعد الحمالون فرشا من الاغصان بسطوا عليه قماشا واقيا من البلل والرطوبة . وأعد الطاهى الصينى العشاء ، فلما انتهوا من تناوله ، تأهبوا للنوم .

وكانت هذه هى الليلة الاولى التى يقضيها نييل فى غابة ، ولهذا لم يستطع النوم . فقد كان الظلام دامسا ، وأصوات الحشرات التى لا تحصى تكاد تصم أذنيه ، ولكنها كانت أشبه بصوت حركة المرور فى مدينة كبيرة .. صوت مسترسل ، رتيب ، حتى لقد كان يخيل لنييل - فى لحظات وجيزة - انه صمت لايعكره شيء .. فاذا ما سمع صرخة أطلقها قرد هاجمته

أفعى ، أو صياح طائر من طيور الليل ، اوشك قلبه أن يقفز من صدره ، ودخله احساس خفى ، بأن جميع المخلوقات المحيطة بهم تراقبهم .. كان هناك صراع وحشى مستعر فى جوف الغابة ، وراء نار المعسكر ، بينما كانوا — هم البيض الثلاثة — ينامون على فراشهم المعد من أغصان الاشجار ، لا يملكون دفاعا عن أنفسهم . كانوا وحيدين أمام أهوال الطبيعة . وكان مونرو بجواره ، وأنفاسه تتردد بهدوء خلال نومه العميق .

وهمست داريا : « أمستيقظ انت يا نييل ؟ » . فأجاب :

— أجل ! ماذا بك ؟ — انى خائفة

— ليس هناك ما يخيف

— الصمت رهيب .. ليتنى لم أرافقكم !

وأشعلت سيجارة .. وما لبث النعاس أن استولى على نييل ، ولكنه سرعان ما استيقظ على صوت نقر طير « نقار الخشب » وضحكته الرقيقة ، وهو يطير من شجرة الى أخرى ، وكأنه يسخر منهم !

وبعد أن تناولوا فطورا سريعا — فى الصباح التالى — استأنفت الحملة سيرها . وكانت القردة تقفز بين الاغصان وتتجمع فى ندى الفجر المتساقط من أوراق الشجر ، وصرخاتها الغريبة أشبه بنداء الطير .. وبدا الهدوء مخاوف « داريا » ، فاذا بها متيقظة الحواس ، مرحة ، بالرغم من أنها قضت ليلة لم تر فيها النوم . ومضى القوم يتسلقون الجبل حتى وصلوا بعد الظهر الى مكان مناسب لاقامة معسكر ، وهنا قرر مونرو أن يقيم بيتا . وبدأ الرجال العمل ، فقطعوا بسكاكينهم الطويلة جريد النخيل وأغصان الشجيرات ، وسرعان ما اقاموا كوخا من غرفتين ، يرتفع عن الارض فوق أعمدة من الخشب .. وكان نظيفا ، جديدا ، ناضر الخضرة ، زكى العبير .

ولم يكن مونرو وزوجته يشعران بالغربة فى أى مكان : هو

بفضل قدم تعوده ، وهى لانها ظلت سنوات تجوب العالم ، ولانها أوتيت موهبة القطط فى اراحة نفسها أينما حلت . فان هو الا يوم واحد ، حتى كانوا قد دبروا كل شيء ، واستقروا ، وأصبح لهم برنامج يومى لا يتغير . ففى الصباح الباكر ، كان نبيل ومونرو يخرجان – كل على حدة – لجمع العينات . أما فترة بعد الظهر ، فكانت تقضى فى تثبيت الحشرات فى صناديق ، والفراشات بين صفحات من الورق ، وتحنيط الطيور . حتى اذا حل الظلام ، راحا يتصيدان اليرقات . وكانت « داريا » تشغل بشؤون البيت والخدم والحياكة والقراءة ، وتدخن ما لا حصر له من السجائر . ومرت الايام بهيجة ، رتيبة ، ولكنها حافلة بالاحداث . وكان نبيل مفتونا : ارتاد الجبل من جميع نواحيه . وعثر فى أحد الايام على أنواع جديدة من الحشرات العصوية ، فأطلق عليها مونرو اسم « كوبيكيوليتا ماك آدم » .. وهذه هى الشهرة بعينها ! .. وشعر نبيل – وكان عندئذ فى الثانية والعشرين من العمر – بأنه لم يعش سدى ، ولكن حدث – فى يوم آخر – ان كادت أفعى أن تقتله ، ولكنه نجا بأعجوبة .. لم يكن قد رآها نظرا لخضرة لونها ، ولم ينقذه من عدوانها سوى احد الصيادين « الدياك » ، وكان يرافقه . فتعاون معه على قتلها ، ونقلاها الى المعسكر . وقد ارتجفت « داريا » عندما شاهدتها ، فقد كانت تعانى من ذعر – يكاد يكون جنونيا – من وحوش الغابة . ولم تكن تبتعد عن المعسكر أكثر من بضع ياردات ، خوفا من أن تضل الطريق . وقد سألت نبيل – ذات ليلة – عندما كانوا جالسين يتناولون العشاء : « هل أخبرك انجوس يوما كيف ضل الطريق ؟ » . فابتسم أنجوس وقال : « انها لم تكن تجربة سارة ! » . واذ ذاك قالت داريا : « خبره عنها يا أنجوس ! » .

* * *

وتردد أنجوس برهة ، فقد كانت تجربة يكره ان يتذكرها . ولكنه قال أخيرا : « كان ذلك منذ بضع سنوات ، وكنت قد خرجت ومعى شبكة صيد الفراشات . وأسعدنى الحظ فى ذلك اليوم ، اذ حصلت على عينة نادرة ، كنت أبحث عنها منذ زمن طويل . وبعد فترة من الوقت احسست بأننى جوعان ؛ فعدت أدراجى . وسرت قليلا ، وهنا طرأ على بالى أننى قد سرت مسافة أبعد من المنطقة التى كنت أعرفها . وشاهدت فجأة علبة ثقاب فارغة ، ففزعت اذ أدركت أنها عين العلبة التى ألقيتها عندما بدأت فى العودة . وهذا معناه أنى كنت أسير فى دائرة ، فعدت الى النقطة التى كنت فيها منذ ساعة ! .. ولم يسعدنى هذا بطبيعة الحال ، ولكنى فحصت المكان حولى ، ثم بدأت السير من جديد . وكان الجو خانقا ، وقد نضح العرق جسمى .. وظننت أننى اهتديت الى اتجاه المعسكر ، فأخذت أبحث عن الآثار التى طبعتها قدماى فى مجيئى . وخيل الى أنى عثرت على علامة أو اثنتين ، فانتعش الامل فى نفسى ، وواصلت السير .. وشعرت بظمأ شديد .. ومضيت فى سبيلى مهتديا ببعض النباتات والمعالم الاخرى . غير أنى أدركت فجأة أننى ضللت الطريق ، اذ لم يكن من المعقول أن أكون قد سرت فى الطريق الصحيح هذه الفترة من الزمن دون أن أصل الى المعسكر ! » ، وأعترف أننى جزعت . غير أنه كان من الواجب أن أتمالك نفسى . فجلست ، وأخذت أفكر فى الموقف .. وكنت أتعذب من العطش ، وقد انقضى الظهر منذ وقت طويل ، ولم يبق على حلول الظلام غير ثلاث ساعات أو أربع . ولم أعجب بفكرة قضاء الليل فى الغابة . وكان الشىء الوحيد الذى هدانى اليه التفكير ، هو محاولة العثور على جدول . فاذا تتبعت مجراه أوصلنى الى جدول أكبر ، ثم الى النهر . ولكن هذا كان يقتضى ـ بطبيعة الحال ـ يومين أو ثلاثة أيام ، فلعنت نفسى

لغفلتي ! .. غير انه لم يكن أمامي سبيل آخر ، فعاودت السير ، حتى اذا قدر لى أن أصادف جدولا ، استطعت أن أشرب وأروى عطشي على أية حال . ولكنني لم أعثر على قطرة ماء في أية ناحية ، فبدأت أشعر بالخوف . ورأيت أنني سأظل في تجوالي هذا الى أن أسقط اعياء .. وكنت أعرف أن في الغابة كثيرا من الحيوانات الكاسرة ، وانني هالك لا محالة اذا صادفت خرتيتا . **وكان أدعى الامور الى جنوني ، انني كنت أعرف أنني لم أكن أبعد عن المعسكر بأكثر من عشرة أميال ، فأرغمت نفسي على أن أظل متماسكا قواى العقلية** .. وكان النهار قد بدأ يولى ، وأخذ الظلام ينتشر فعلا في أعماق الغابة .. وشعرت بالاسف لانى لم أكن قد حملت معي بندقية فكنت أطلقتها ليسمعها من كانوا في المعسكر فيعرفوا أني ضللت الطريق ويبحثوا عنى .. وكانت النباتات كثيفة حتى أنه لم يكن في استطاعتي أن أرى الاشياء ، على بعد يزيد عن ست أقدام .. **وشعرت — ولست أعرف أكان ذلك بتأثير الاعصاب المرهفة ، أم لا — بأن هناك حيوانا يتسلل بجانبي ، فوقفت ، ووقف هو الآخر .. ومشيت فمشي هو !** .. ومع أنني لم أستطع أن أرى شيئا ، أو ألمح اية حركة بين النباتات — بل ولم أسمع صوت تكسر اى غصن ، أو احتكاك جسم بأوراق الشجر — الا أنني كنت أعرف الى أى مدى تستطيع هذه المخلوقات أن تسير دون أن تحدث أى صوت .. وكنت متأكدا من أن شيئا ما يتعقبني ، فأخذ قلبي يدق بعنف حتى ظننت أنه يكاد ينفجر ، وشعرت بخوف شديد ، ولم أستطع أن أمنع نفسي من العدو الا باستخدام كل ما لدى من قدرة على ضبط النفس . **فقد كنت أعرف أنني أقضي على نفسي بالهلاك اذا عدوت ، اذ لم يكن ثمة معدى من أن أتعثر في جذع شجرة فأسقط على الارض ، وعندئذ ينقض الحيوان على .. ولو أنني عمدت الى الجرى ، لما كان ثمة من**

يعلم غير الله الى أين أذهب ! .. وشعرت بأن على أن أتمالك قواى .. وأحسست بأننى أكاد أبكى . هذا فضلا عن ذلك العطش غير المحتمل ، الذى كنت أشعر به .. أبدا لم يتملكنى الخوف كما تملكنى اذ ذاك !.. وصدقنى اذا قلت أننى لو كنت أحمل مسدسا ، لاطلقته على رأسى . فقد كان الموقف رهيبا ، فلم أكن أصبو الى أكثر من انهائه . وكنت تعبا بحيث لم أعد أقوى حتى على الترنح ! .. ولو كان لى عدو أصابنى باساءة قاتلة ، لما تمنيت له العذاب الذى عانيته اذ ذاك ! .. وفجأة ، سمعت صوت طلقتين ، فسكن قلبى ! .. اذن فهم يبحثون عنى ؟! .. وهنا فقدت صوابى ، فرحت أعدو فى اتجاه الصوت وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. وسقطت على الارض ، ولكنى نهضت واقفا ، وواصلت العدو ، وظللت اصرخ حتى خيل الى ان رئتى ستنفجران .. وسمعت صوت طلق آخر ، أقرب من الطلقين السابقين ، فعاودت الصراخ .. واذا بى أسمع صراخا يجيبنى ، كما سمعت جلبة تدافع بعض الرجال خلال النباتات .. وسرعان ما رأيت نفسي محاطا بصيادين من « الدياك » ، أخذوا يشدون على يدى ويقبلونهما .. وكانوا يضحكون ويبكون فى وقت واحد ، فكدت أبكى أنا أيضا .. وسقطت فاقد الوعى ، ولكنهم أعطونى بعض الشراب . ولم نكن نبعد بأكثر من ثلاثة أميال عن المعسكر .. وكان الظلام حالكا عندما عدنا اليه ! .. لعمرى ، لقد كانت تجربة جعلتنى أقرب ما أكون الى الهلاك ! »

وسرت فى جسد « داريا » رعشة قوية ، بينما أردف زوجها: « صدقانى اذا قلت أننى لا أود أن أضل طريقى فى الغابة مرة أخرى ! » . فسأله نييل: « وماذا كان يحدث لو أنهم لم يعثروا عليك ؟ »

— أستطيع أن أخبرك بهذا : كنت أجن ! .. واذا لم تلدغنى أفعى ، أو يهاجمنى خرتيت ، كنت أمضى متخبطا الى أن أسقط

أعياء .. أو أموت جوعا أو ظمأ .. ولا تلبث الوحوش أن تنهش جسمى ، وينظف النمل عظامى من البقايا التى تخلفها الوحوش !

ورن عليهم — بعد هذا الحديث — صمت ممض !

* * *

وحدث بعد أن قضوا قرابة الشهر على جبل (هيتام) ، أن أصيب « نبيل » بالحمى ، برغم « الكينين » الذى حمله مونرو على أن يتعاطاه بانتظام . ولم تكن الاصابة شديدة ، ولكنه حنق على نفسه لاضطراره الى ملازمة الفراش .. وتولت داريا تمريضه ، فخجل من نفسه لانه أتعبها . ولكنها لم تكن تصغى الى اعتراضاته .. وكانت — فى الواقع — ذات كفاءة بالغة !.. وزاد من ضيق نبيل أن اضطر الى ان يسمح لهابأن تؤدى له أشياء كان بوسع الخدم الصينيين أن يؤدوها عنها ، ولكنها ظلت ترعاه رعاية تامة . **وعندما بلغت الحمى أقصى عنفوانها ، راحت تغسل جسمه بالماء البارد بقطعة من الاسفنج ، فكان يشعر لذلك براحة لا سبيل الى وصفها ، ولكنه كان يشعر بحرج شديد كذلك** . بيد أنها أصرت على أن تغسل له جسمه فى الصباح مرة ، وفى المساء أخرى . وكانت تقول له : « اننى لم أمكث فى المستشفى البريطانى فى (يوكوهاما) ستة أشهر ، دون أن أتعلم أبسط مقتضيات التمريض .. على الاقل ! »



وكانت تقبله فى فمه فى كل مرة ، بعد أن تنتهى من غسل جسمه . وكانت هذه مودة وتلطفا منها استعذبهما ، ولكنه لم يضف عليهما أهمية تذكر . بل أنه تمادى الى أكثر من ذلك ، فعلق على الامر بدون حياء ، وهو شيء نادر منه . فقد سألها يوما : « هل اعتدت دائما أن تقبلى مرضاك ، فى المستشفى ؟ » . فابتسمت وقالت : « أو لست تحب أن أقبلك ؟ » . والجاب : « لايضيرنى هذا » . فقالت بتهكم : « لعله يعجل بشفائك ! »

وحلم بها فى احدى الليالى ، فاستيقظ فجأة والعرق يكسو جسمه . وشعر بأن درجة حرارته هبطت ، وأن حالته قد تحسنت . ولكنه لم يهتم بذلك ، لان ما رآه فى المنام ملأه بالخجل .. واستولى عليه الفزع ، لان مجرد توارد هذه الافكار على رأسه — ولو فى النـوم — أثار أسـاه ، اذ احس بأنه وحش فاسق ! .. وكانت تباشير النهار قد بدأت تنبثق . وسمع « مونرو » يستيقظ فى الغرفة المجاورة — التى كان يشغلها وزوجته — وكانت داريا قد نمت فى ساعة متأخرة ، فحرص مونرو على أن لايزعجها .. وعندما مر بغرفة نبيل ، هتف به بصوت خافت : « هالو ! .. أمستيقظ أنت ؟ »

— أجل لقد عاودتنى النوبة ، ولكنى تحسنت الآن

— حسن .. يحسن بك أن تبقى فى الفراش اليوم ، وستصبح غدا فى أكمل صحة

— أرجو أن ترسل الى « آه تان » بعد أن تتناول فطورك

* * *

وسمع مونرو عندما غادر الدار .. ثم جاء الخادم الصينى ، فطلب نبيل منـه ما كان يبغى . وان هى الا سـاعة حتى استيقظت داريا ، فجاءت اليه ، وألقت بتحية الصباح . ولكنه لم يستطع التطلع اليها .. وقالت له : « سأتناول فطورى ، ثم آتى لاغسل لك جسمك » . ولكنه أجابها : « لقد اغتسلت ..

استعنت بآه تان على ذلك » . فهتفت متسائلة : « ولماذا ؟ » . وكان جوابه : « انما أردت أن أعفيك من هذه المشقة ! »

ودنت من الفراش ، وانحنت لتقبله ، ولكنه حول رأسه بعيداً عنها ، وقال : « أرجو ألا تفعلى ! » . فتساءلت فى عجب: « ولماذا ؟ » . فتمتم : « انه عمل سخيف ! » .. وتفرست فيه برهة وهى مأخوذة ، ثم هزت كتفيها وتركته . ولكنها لم تتغيب كثيراً ، بل عادت اليه لترى ما اذا كان بحاجة الى شىء . واذا به يتظاهر بالنوم . فربتت على خده برقة ، ولكنه هتف بها: « بالله لا تفعلى هذا ! »

– ظننتك نائما ! .. ماذا بك اليوم ؟

– لا شىء !

– لماذا تعاملنى بجفاء ؟ .. هل فعلت ما ساءك ؟

وأجاب باقتضاب : « لا » . ولكنها ألحت قائلة : « نبئنى بما هناك ! » ..

وجلست على الفراش ، وأخذت يده ، فحول وجهه نحو الحائط وقد بلغ منه الخجل حداً جعله لا يستطيع كلاما . ولكنه تمالك نفسه وقال : « يبدو أنك نسيت اننى رجل ، فاذا بك تعاملينني كصبى فى الثانية عشرة ! »

وغمغمت : « آه ! » ، ثم سكتت . وأخذ وجهه يشتد احمراراً ، وقد غضب على نفسه واغتاظ منها .. كان خليقا بداريا أن تكون أكثر لباقة ! .. ولم تلبث قبضتاه أن شدتا على الغطاء بعنف ، وقال : « اننى أعرف أن ليس لمسلكك أى معنى لديك ، وأنه ينبغى أن يكون كذلك لدى .. والحق أننى لا أرى له تأويلا ، عندما أكون مستيقظا ، ولكن المرء لا يستطيع شيئا مع أحلامه، وان كانت الاحلام دليلا على مايدور فى العقل الباطن ! »

– هل حلمت بى ؟ .. وماذا لو كان هذا قد حدث فعلا ؟ ..

لست ارى فيه أى ضير !

وحول وجهه ، ونظر أليها .. كانت عيناها تتألقان بريقا ، بينما كانت عيناه هو مفعمتين بالانقباض وتبكيت الضمير .. وقال لها : « انك لا تعرفين الرجال ! » . **فانفجرت ضاحكة ، وانحنت فوقه ، وطوقت عنقه بذراعيها ، وهى تقول : « أخبرنى أيها الحبيب عن حلمك ! »** .. وفوجىء بحركتها هذه ، فكاد يجن ، ودفعها جانبا بعنف ، وقال : « ماذا تفعلين .. المجنونة أنت ؟ ! » . وقفز من فراشه فقالت :

ـ ألا تعرف أننى أحبك حب الجنون ؟

فهتف مبهوتا : « عم تتحدثين ؟ » . وجلس على جانب الفراش ، والارتباك ظاهر عليه بوضوح . فضحكت وقالت : **« وماذا تظننى جئت أفعل فى هذا المكان المرعب ؟ .. انما جئت لاكون معك يا حبيبى !** .. ألا تعلم أننى أموت رعبا من الغابة ؟ .. اننى خائفة من أن تكون هناك أفاعى أو عقارب أو أى شىء آخر .. حتى فى هذا البيت ، ولكنى .. أعبدك ! » . فقال بحدة : « ليس لك أن تتحدثى الى هكذا ! » . فابتسمت قائلة : **« لا تكن متزمتا ! »** .. فقال متعجلا : « لنخرج من هنا ! »

وخرج الى الشرفة فتبعته . وألقى بنفسه على مقعد ، فجثت الى جانبه وحاولت أن تمسك يديه ، ولكنه سحبهما قائلا : « أرى أنك لا بد مجنونة ، واضرع الى الله الا تكونى قد عنيت حقيقة ما قلت ! » . فقالت مبتسمة : **« بل أعنى كل كلمة قلتها ! »** .. وضايقه انها لم تبد أى ادراك لفظاعة اعترافها ، فقال : « أنسيت زوجك ؟ »

ـ وماذا يهم من أمره ؟ .. ان أنجوس لم يعد يهمنى فى شىء !

فظللت وجهه الناعم سحابة من العبوس وقال ببطء : « أخشى أن تكونى امرأة سوء ! » . **فضحكت باستهزاء ، وقالت : « الاننى وقعت فى حبك ؟ .. ما كان يجب أن تكون بهذا الجمال يا حبيبى ! »**

– لا تضحكى برب السماء !

– لا أستطيع ، فأنت مضحك .. ولكنى أعبدك مع هذا ! .. اننى أحب جسمك الابيض ، وشعرك اللامع ! .. أحبك لانك جامد ، واسكتلندى ، ولا تعرف المجون ! .. أحب قوتك ، وأحب شبابك !

. . . .

وأومضت عيناها ، وتسارعت أنفاسها ، وانحنت فقبلت قدميه العاريتين ، فسحبهما بسرعة وهو يصيح محتجا ، فكاد فى حركته العنيفة أن يقلب المقعد ، وقال : « انك لمجنونة أيتها المرأة ، الا تشعرين بالخجل ؟ » .. وأجابته : « لا ! »

– ماذا تريدين منى ؟ **– الحب !**

– أى نوع من الرجال تحسبيننى ؟

فأجابت بهدوء : « رجل .. كبقية الرجال ! »

– وهل تظنين ، بعد كل ما فعله « أنجوس مونرو » معى ، أن بوسعى أن أكون ذلك الوحش اللعين الذى يعبث مع زوجته ؟ .. اننى معجب به أكثر من اعجابى بأى شخص آخر عرفته . فهو عظيم ، وهو يقدر بعشرة من أمثالى وأمثالك معا . اننى لاوثر أن أقتل نفسى عن أن أخونه . ولست ادرى كيف تظنين أن بوسعى أن أقدم على عمل دنىء كهذا الذى تريديننى عليه !

– أوه يا عزيزى ، لا تتحدث بمثل هذا الهراء ! .. بماذا يضره هذا ؟ .. ما ينبغى لك ان تأخذ المسألة بهذا الجد ، فان الحياة جد قصيرة ، ونحن أغبياء اذا لم نقتنص كل فرصة يمكن أن نستخدمها للسرور !

– لن تستطيعى بهذا الكلام أن تقلبى الخطأ صوابا !

– لست أعرف شيئا عن هذا ، وما أرى الا أن قولك موضع جدال !

فنظر اليها مذهولا .. كانت جالسة عند قدميه ، وهى

متماسكة نفسها . وبدا أنها كانت مستمتعة بالموقف ، غير شاعرة بما كان يشعر به من جدية !.. وما لبث أن قال : « أتعرفين أننى ضربت فتى فى النادى ، لانه ألقى ملحوظة مهينة عنك ؟ »

ــ ومن هو ؟ ــ انه بيشوب

ــ يا له من كلب قذر ! .. وماذا قال ؟

ــ قال أنك كنت على علاقات ببعض رجال !

ــ لست أدرى لماذا لا يعنى الناس بشؤونهم ؟ .. ومع ذلك ، فمن ذا الذى يأبه لما يقولون ؟ .. **انى أحبك ، ولم يسبق لى أن أحببت احدا مثلك .. أننى لمجنونة فعلا بحبك !**

ــ هدئى من تهورك ! .. اهدأى !

ــ اسمع ! .. عندما ينام « أنجوس » الليلة ، سآتى الى غرفتك ! .. انه ينام كصخرة ، فلا خطر يخشى منه !

ــ لا تفعلى ! **ــ ولم لا ؟**

فهتف : « لا ، لا ، لا ! » .. وشعر بخوف شديد .. وفجأة ، هبت « داريا » واقفة ، واندفعت نحو البيت !

★ ★ ★

وعاد مونرو عند الظهر ، فانهمك نييل معه فى العمل خلال فترة ما بعد الظهيرة .. واشتركت « داريا » معهما كما اعتادت أن تفعل أحيانا . وكانت مرحة حتى لقد ظن مونرو انها بدأت تستمرىء الحياة فى هذه البقعة . وقد اعترفت فعلا بهذا ، حينما قالت : « ان الحياة ليست رديئة الى هذا الحد ، وانى لاشعر اليوم بالسعادة ! » .

وكانت تغيظ نييل بقولها ، وهى تبدو كما لو كانت لا تفطن الى أنه كان صامتا وكان يحاول أن يبعد نظره عنها . وقال مونرو : « أن نييل هادىء للغاية ، وأحسب أنه لا يزال يشعر ببعض الضعف ! »

ــ لا .. ولكننى لا أشعر بميل كبير للكلام

كان فى حيرة من امره ، فقد كان يوقن من أن « داريا » قادرة على أن تفعل أى شيء . وتذكر ذلك التهور الجنونى الذى اتسمت به « ناستاسيا فيليبوفنا » — بطلة قصة « الغبى » — فشعر بأنها قادرة على أن تتصرف هى الاخرى بتلك الرعونة التعسة .. ولقد رآها — أكثر من مرة — تحتد على الخدم الصينيين ، فعرف الى أى مدى تفقد سيطرتها على اعصابها . ولم تكن المقاومة تؤدى الا الى امعانها فى الحنق ، وما لم تحصل فوراً على بغيتها ، فانها كانت تذهب فى الغضب الى حد الجنون ، ولكنها — لحسن الحظ — كانت تفقد فجأة اهتمامها بالشيء بعين السرعة التى تهفو بها اليه . ولو أنك استطعت أن تحول انتباهها برهة ، لنسيت كل شيء عن هذا الشيء . وفى مثل هذه المواقف ، كان نيبل يزداد اعجابا بلباقة مونرو . وكان غالبا ما يشعر بسرور خبيث حين يشهد الدهاء الرقيق الذى يستخدمه مونرو ليهدىء من ثورة غضبها النسوى .. وكان سخط نيبل عليها يزداد بقدر حبه لمونرو .. لقد كان قديسا رفعها من وهاد المهانة والادقاع ، ليتخذها لنفسه زوجة . فهى تدين له بكل شيء ، اذ حماها باسمه ، فاكتسبت الاحترام .. ولعل أبسط عرفان بفضله كان كفيلا بأن يجعل من المستحيل عليها أن تكن فى نفسها أفكارا كالتى عبرت عنها فى ذلك الصباح !.. ولقد كان من العادى أن تصدر المراودات الجريئة عن الرجال ، فهذه شيمتهم !.. أما اقدام النساء على ذلك فكان أمرا يثير الاشمئزاز .. وهكذا شعر نيبل بأن حياءه وعفته قد خدشا ، وأن العاطفة الجامحة التى رآها فى وجهها ، والايماءات غير المحتشمة ، قد أذهلت احتشامه !

وساءل نفسه : أتراها ستنفذ حقيقة وعيدها ، وتأتى الى غرفته ؟ .. ولم يخطر له أنها ستجرؤ على هذا . ولكن ما ان حل الليل وذهب الجميع الى أسرتهم ، حتى شعر بجزع

شديد حرمه النوم !.. واستلقى على الفراش وجعل يصغى. ولم يكن يعكر السكون غير صيحات رتيبة تصدر عن قنبرة.. وكن يسمع - خلال الجدار المبنى من سعف النخيل - صوت تنفس مونرو المنتظم . **وفجأة ، فطن الى ان هناك من كان يسترق الخطى الى غرفته .. وعرف أنها « داريا » ! .. وكان رأيه قد استقر على ماينبغى أن يفعل . فقد صاح بصوت عال : « أهذا أنت يا مونرو ؟ »**



وتوقفت داريا فجأة .. واستيقظ مونرو . وقال نبيل : « هناك شخص فى غرفتى ، وقد ظننته اياك ! » . فقالت داريا : « لاتنزعجا .. انا هذا الشخص ! .. لم أستطع النوم ففكرت فى تدخين سيجارة فى الشرفة » . فقال مونرو : « آه ، أفهذا كل شيء ؟ .. حذار أن تصابى ببرد ! » . واجتازت داريا غرفة نبيل وخرجت الى الشرفة . ورآها الشاب تشعل سيجارة ، ثم سمعها - بعد برهة - تأوى الى فراشها .

ولم يرها فى صباح اليوم التالى ، لانه خرج - قبل أن تستيقظ - ليستأنف جمع العينات . وتعمد الا يعود الاوهو واثق من أن مونرو قد عاد الى البيت . وتجنب الانفراد بها الى أن حل الظلام ، ونزل مونرو ليضع شباكا لصيد اليرقات . **فلما أصبحا وحيدين ، همست داريا فى صوت غاضب : « لماذا أيقظت أنجوس فى الليلة الماضية ؟ »** .. فهز كتفيه ، وواصل

عمله دون أن يجيب . وعادت تتساءل : « هل خفت ؟ » . فأجاب : « لقد أوتيت قدرا من الحشمة ! »

ـ أوه !.. لا تكن مغرورا

ـ لخير أن أكون مغرورا ، عن أن أكون خنزيرا قذرا !

ـ انني أكرهك ! ـ اذن فدعيني وشأني

ولم تجب ، وانما صفعته ، فاحمر وجهه ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة ! .. وعاد مونرو ، فتعمدا أن يتظاهرا بالانهماك فى عملهما

وظلت داريا بضعة أيام لاتتحدث الى نبيل الا فى أوقات الاكل ، وفى المساء ، وقد حرصا ـ بغير أتفاق سابق ـ على اخفاء ما طرأ على علاقتهما من توتر . غير أن الجهد الذى بذلته لتخرج عن صمتها لم يكن ليخفى على أى شخص آخر أكثر شكا من « أنجوس » . ولم تكن تتمالك أن تحتد أحيانا على نبيل ..وكانت تمازحه ، ولكن شيئا من الوخز كان يخالط مزاحها ! .. وكانت تعرف كيف تكشف قلة درايته ، ولكنه كان حريصا على ألا ترى هذا فيه . وداخله شعور بأن ما كان يبديه من انبساط كان يغيظها !

* * *

وفى أحد الايام ، عاد نبيل من جمع العينات . وكان قد حرص على ألا يصل الى البيت الا فى آخر دقيقة ممكنة قبل موعد الغداء . ولكنه دهش عندما وجد أن مونرو لم يكن قد عاد بعد . فسألها : « أين المستر مونرو ؟ »

ـ انه لن يجىء ، فقد بعث برسالة قال فيها أن المكان الذى يوجد فيه ، مكان جميل وانه لن يعود قبل هبوط الليل !

وكان مونرو قد خرج فى الصباح قاصدا الى قمة الجبل ، لان الاماكن المنخفضة لم تمكنه من الحصول على نتائج طيبة

فيما كان يجرى من بحوث على الحيوانات الثديية ، فخطر له أن يبحث عن مكان أعلى – تتوفر فيه المياه – فينقل إليه المعسكر .. وتناول نييل ودارياً غداءهما فى صمت ، حتى اذا فرغا منه ، دخل الشاب البيت ، فأتى بصندوق جمع العينات وبالقبعة . ولم يكن من عادته أن يخرج فى فترة ما بعد الظهر . فسألته داريا بحدة : « الى أين تذهب ؟ »

– سأخرج – ولماذا ؟

– لاننى لا أشعر بتعب ما ، وليس ثمة شيء آخر أفعله بعد الظهر .

وفجأة انفجرت باكية وقالت : « كيف يتسنى لك أن تكون قاسيا الى هذا الحد ؟ .. آه ، من القسوة أن تعاملنى هكذا ! » .
فتساءل وهو يطل عليها من علياء قامته ، وقد حمل وجهه المليح – الذى نم عن شيء من الصلابة – امارات الحيرة : « ماذا فعلت ؟ »

– لقد كنت فظيع القسوة .. اننى لا أستحق أن أتعذب هكذا ، مهما يكن ذنبى ! لقد فعلت كل شيء ممكن من أجلك ، فنبئنى بأى شيء كان بوسعى أن أفعله ولم أفعله عن طيب خاطر .. لشد ما أنا تعيسة !

فتململ فى وقفته .. كان فظيعا أن يسمعها تقول ذلك . ولقد كان يزدريها ويخشاها ، ولكنه مع هذا ظل يكن لها ذلك القدر من الاحترام الذى كان يشعر به على الدوام نحوها ، لا لانها سيدة فحسب ، وانما لانها زوجة أنجوس مونرو كذلك ! .. ومضت تبكى دون أن تستطيع ضبط نفسها .. ولحسن الحظ ، كان الصيادون « الدياك » قد خرجوا مع مونرو فى الصباح ، ولم يبق فى المعسكر غير الخدم الصينيين الثلاثة ، الذين ناموا – كعادتهم بعد الغداء – فى المكان المخصص لهم ، على خمسين ياردة من الدار . ومن ثم فقد كانا وحيدين !

.. وقال نيبل أخيراً : « لست أبغي أن أشقيك ، ولكن الامر كله سخيف ، ومن الغباء أن تقع سيدة مثلك فى حب فتى مثلى . ان الامر يحرجنى . أليس لديك شيء من ضبط النفس ؟ ! »

ـ آه يا الهى ! .. ضبط النفس !

ـ أعنى أنك اذا كنت تهتمين بى حقا ، لما رغبت فى أن تجعلى منى هذا المخلوق السافل . أما من قيمة لما يضعه زوجك فينا من ثقة مطلقة ؟ .. ان مجرد تركه ايانا وحيدين ـ كما نحن الآن ـ خليق بأن يجعلنا نتشبث بشرفنا . انه لا يؤذى ذبابة ، ولن استطيع أن أحترم نفسى اذا خنت هذه الثقة !

فرفعت نظرها فجأة وقالت : « ما الذى يحملك على الظن بأنه لا يرتضى أن يؤذى ذبابة ؟ .. ان كل هذه الزجاجات والصناديق مليئة بحيوانات لا أذى منها ، وقد قتلها جميعا ! »

ـ لمصلحة العلم ! .. ان هذا أمر آخر !

ـ يا لك من غبى ! .. غبى !

ـ اذا كنت غبيا ، فهذا ليس ذنبى .. فلماذا تضايقيننى ؟

ـ أتظننى كنت راغبة فى أن أقع فى حبك ؟

ـ يجب أن تخجلى من نفسك !

ـ أخجل ؟ ! .. ما هذا الغباء ؟ .. يا الهى ، ماذا فعلت حتى جعلتنى أدوس قلبى من أجل حمار عنيد مثلك !

ـ انك تتكلمين عما فعلته من أجلى ، فماذا فعل مونرو من أجلك ؟

ـ ان مونرو يضـجرنى حتى الموت .. لقد برمت به .. سئمته حتى الموت !

ـ اذن فأنا لست الاول ؟ !

كان منذ اعترافها الغريب ـ بحبه ـ يتعذب بالشك .. الشك فى أن ما قاله أولئك الرجال في (كوالا سولور) لم يكن

خلوا من الحقيقة .. لقد كان يرفض أن يصدق كلمة واحدة مما قالوا ، بل أنه ظل — حتى الآن — عاجزا عن أن يحمل نفسه على التفكير بأن فى وسعها أن تكون بمثل هذا الفجور !.. كان من الفظيع حقا أن يفكر فى أن « أنجوس مونرو » كان يعيش فى جنة المغفلين ، وهو الرجل الرقيق ، الكبير الثقة بالناس ! .. لا ، ما كان من المحتمل أن تكون على مثل هذا القدر من السوء ، ولعلها قد أساءت فهمه !

وابتسمت خلال دموعها ، وقالت : « طبعا ، لست الاول .. كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من الغباء ؟ .. أواه يا عزيزى ! لا تكن متزمتا الى هذا الحد ! .. اننى أحبك ! »

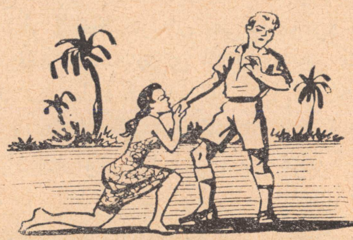
اذن فالامر حقيقى ! .. لقد حاول أن يقنع نفسه بأن شعورها نحوه كان لونا من الشذوذ .. جنونا قد يستطيعان أن يعملا معا على مغالبته ، فاذا بها .. مجرد عابثة مستهترة ! .. فقال لها : « أو لا تخشين أن يعرف مونرو الحقيقة ؟ » .. ولم تعد تبكى ، فقد كانت تهوى التحدث عن نفسها ، فخامرها شعور بأنها قد تستطيع أن تغرى نبيل بالاهتمام من جديد بها . فقالت : « يخيل الى أحيانا أنه يعرف .. ان لم يكن بعقله فبقلبه ، اذ أنه أوتى ما للمرأة من غريزة ، وما للمرأة من حس مرهف . بل اننى كنت أوقن أحيانا من أنه يشك ، وقد أحسست فى عذابه بلون عجيب من التسامى الروحى ! .. **وكم خيل الى أنه فى ألمه يجد لذة ونشوة لا حد لها ! .. فهناك — كما تعلم — نفوس تشعر بفرح طاغ فى الاسى والعذاب ! »**

ولم يستطع نبيل صبرا على هذه المغالطات ، وقال : « يا للفظاعة ! .. ان عذرك الوحيد هو أن تكونى مجنونة ! » .. وكانت قد أصبحت أكثر ثقة بنفسها ، فرمته بنظرة جريئة ، وقالت : « ألا ترانى جذابة ؟ .. كم من الرجال رأونى كذلك ! .. ولا بد أنك عرفت فى اسكتلندا عشرات من النساء ،

ولكنهن لم يكن بديعات الحسن مثلى ! » .. وراحت تنظر في خيلاء الى جسمها الجميل المغرى . فقال نبيل : « انني، لم أعرف أية امرأة اطلاقا ! » . فسألته منكرة : « ولم لا ؟ »

* * *

وبلغت منها الدهشة مبلغا جعلها تقفز واقفة على قدميها . لكنه هز كتفيه ، ولم يجد من نفسه قدرة على أن يخبرها بمدى اشمئزازه من مثل هذه الفكرة ، وبمدى ما كان يراه من دناءة الحب العرضى العابر ، الذى كان زملاؤه فى جامعة (أدنبره) يقبلون عليه . **فقد كان يشعر بغبطة روحية لنقائه وطهره .. كان يعتبر الحب مقدسا ، وكانت العملية الجنسية تثير اشمئزازه واستنكاره ، ولا يجد لها مبررا سوى انجاب الاطفال وقداسة الزواج .** ولكن «داريا» ظلت تتفرس فيه وهى مسمرة فى وقفتها ، وقد تهدجت أنفاسها . وفجأة ، صاحت — وهى تبكى — صيحة متهدجة ، مفعمة بالتهلل ومشوبة



برغبة جامحة . والقت بنفسها على ركبتيها راكعة — على الارض — وهى تهتف : « أليوشا ! .. اليوشا ! » . وأخذت تبكى وتضحك فى آن واحد .. وانحنت حتى اصبحت مكورة عند قدميه ، وقد انبعثت من حلقها أصوات لا تكاد تشبه الاصوات الآدمية . وسرت رعدة شديدة فى أوصالها ، هزت جسمها هزا ، وكأنما مسها تيار كهربائى شديد .. ولم يدر نبيل أهذه نوبة من الهستيريا ، أو هى نوبة صرع ، فصاح

بها : « كفى عن هذا ! .. كفى ! »

واحتواها بين ذراعيه القويتين ، وأجلسها على المقعد. حتى اذا حاول أن يتركها ، لم تمكنه من ذلك ، بل ألقت ذراعيها حول عنقه فطوقته ، وكست وجهه بالقبلات ! .. وأخذ يناضل لينأى عنها ، وأشاح بوجهه ، ووضع يده بين وجهها ووجهه ليقى نفسه ، ولكنها عضت يده فجأة ، وغرست أسنانها فيها ! .. وشعر بألم شديد . وبدون وعى أو تفكير ، انتزع يده وانهال عليها بضربة عنيفة ، وصاح : « يا لك من شيطانة ! »

وأرغمتها حركته العنيفة على التخلى عنه . وأخذ يتأمل يده .. كانت قد عضته فى الجانب المكسو باللحم من راحته ، فأخذ الدم ينزف منها . ولمعت عيناها ، اذ بدأت تشعر بيقظة وحشية ! .. وعاد يقول : « حسبى هذا منك ... اننى خارج ! » . فقفزت واقفة ، وقالت : « سآتى معك ! » . وارتدى القبعة ، وتناول أدوات الصيد ، واستدار دون أن ينبس بكلمة ، وقفز الدرجات الثلاث المؤدية الى الخارج . ولكنها تبعته فقال : « اننى ذاهب الى الادغال » . فهتفت : « لست أبالى ! » . **فقد نسيت - وسط الرغبة الجامحة التى استولت عليها - خوفها الشديد من الغابة ، ولم تعد تبالى بالافاعى ولا بالوحوش الكاسرة ، ولم تعد تعبأ بالاغصان التى تؤذى وجهها ولا بالنباتات المتسلقة التى تتعلق بقدميها !**

وكان نييل قد قضى شهرا يرتاد هذا الجزء من الغابة، فعرف كل شبر فيه . وقال لنفسه أنه سيلقنها درسا لن تنساه ، فشق طريقه - وسط النباتات - بخطوات واسعة.. فتبعته وهى تتعثر ، ولكن عزيمتها كانت قوية . واندفع وقد أعماه الغضب ، فاندفعت وراءه . وراحت تخاطبه دون أن يصغى الى قولها : توسلت اليه أن يشفق عليها ، وأخذت تندب مصيرها .. وتذللت ، وبكت ، وعصرت يديه عصرا ..

وحاولت أن تتملقه ، والكلمات تتدفق من شفتيها كجدول لا ينقطع . **كانت كالمجنونة ! .. وأخيرا ، وصلا الى بقعة منبسطة ، فوقف فجأة ، واستدار نحوها ، وقال : « هذا مستحيل . لقد تعبت ، وعندما يعود « انجوس » سأبلغه أننى سأرحل ، وسوف أعود الى (كوالا سواور) صباح غد ، ومنها أرحل الى بلدى ! »**

ـ لن يدعك تذهب ، اذ أنه يحتاج اليك ، وهو يعتقد أن لا غنى له عنك !

ـ لست أحفل بهذا ، وسألفق له حجة !

وتساءلت : « وما هى ؟ » . فأساء فهم مقصدها ، وقال : « آه ، لا حاجة بك الى أن تخافى ، فلن أقول له الحقيقة .. بوسعك أن تحطمى قلبه اذا شئت . أما أنا ، فلن أقدم على هذا ! »

ـ أنك تعبده ، أليس كذلك ؟ .. هذا الشخص الفاتر البليد الحس !

ـ انه بمائة من أمثالك !

ـ سيكون من البديع أن أقول له أنك رحلت لاننى لم أذعن لك اذ راودتنى عن نفسى !

وجفل .. وتفرس فيها ليعرف ما اذا كانت جادة فى هذا . وقال : « لاتكونى غبية ، فما أراك تعتقدين أنه سيصدق ذلك ، لانه يعرف أن هذا لا يمكن أن يصدر عنى البتة ! » .

ـ لا تغال فى ثقتك !

وكانت تتحدث بغير مبالاة ، وبغير ما غرض سوى مواصلة المحاجة . ولكنها رأته خائفا ، فدفعتها غريزة القسوة الى أن تفيد من هذا الموقف . وقالت : « **أتنتظر رحمة منى ؟ ! .. لقد أذللتنى الى درجة لا تطاق ، وعاملتنى كما لو أننى كنت مخلوقا قذرا ، وأقسم لو انك فكرت فى الرحيل لذهبت رأسا**

الى انجوس وقلت له أنك انتهزت فرصــة غيابه وحاولت اغتصابى ! »

ـ أستطيع أن أنكر هذا الاتهام ، وليس لديك شهود ، ولن يكون هناك سوى أقوالك وأقوالى !

ـ أجل ، ولكن كلمتى ستكون هى الفيصل ، ويمكننى أن أبرهن على ما أقول !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ ان الكدمات تظهر بجسمى بسرعة ، وبوسـعى أن أريه الكدمة التى نتجت من ضربك اياى .. فضلا عن الجرح الذى فى يدك ! .. فكيف تعلل علامات الاسنان فيها !

فنظر اليها مشدوها وقد شحب وجهه ، وساءل نفسه : كيف يستطيع تبرير وجود الكدمة والجرح حقا ؟ ! .. او كان الدافع لهذا هو الدفاع عن النفس ، لامكنه أن يقول الحق ، ولكن هل يصدقه أنجوس ؟ .. انه يعبد زوجته « داريا » ، ومن ثم فهو سيرجح قولها على قوله .. فأى جحود منكر فى مقابل كل ما أبداه مونرو من كرم ، وأى غدر فى مقابل مثل الثقة التى أودعه مونرو اياها ! .. لسوف يحسـبه عربيدا قذرا ، وسيكون على حق ، من وجهة نظـره ! .. وحز فى قلبه التفكير فى أن مونرو ـ الذى كان نبيل على استعداد لان يجود بحياته من أجله ـ قد يسىء الظن به . وأحس بتعاسة جعلت الدموع تتبادر الى عينيه ، رغم ما فى ذلك من نبو عن الرجولة .. **ورأت داريا انكساره فطربت ، وأيقنت أنها بدأت ترد اليه ما كلفها من تعاسـة وشقاء .. وأصبح فى قبضتها وتحت سيطرتها ، فاستعذبت انتصارها ! ..** وفى غمرة المها ضحكت فى نفسها لفرط غبائه ، ولم تعـرف فى تلك اللحظة أكانت تحبه أم كانت تكرهه ! .. وسألته : « والآن .. هل **تكون طيبا ؟ ! »**

وشهق .. وبدافع من رغبة غريزية طارئة للهرب من هذه المرأة الفظيعة ، دار على عقبيه ، وجرى بأقصى ماوسعه من سرعة . واندفع موغلا فى الغابة كحيوان جريح ، لا يستبين وجهته ولا طريقه ، حتى تقطعت أنفاسه . فوقف وهو يلهث ، وأخرج منديله ، فمسح العرق الذى كان يتساقط على عينيه فيعميهما . وخارت قواه ، فجلس ليستريح ، وهو يقول لنفسه : «يجب أن أحترس،والاضللت الطريق.» . وما كان هذا أقل المتاعب التى قد يصادفها ، ولكنه تذكر أن لديه بوصلة صغيرة ، وانه يعرف الوجهة التى يجب أن يتجه اليها . وبدأ السير .. وأخذ يرقب طريقه ، ويسائل نفسه — فى الوقت ذاته — عما ينبغى أن يفعل .. **كان موقنا من أن ((داريا)) ستنفذ وعيدها ! .. وكان من المقرر أن يبقوا ثلاثة أسابيع أخرى فى هذا المكان اللعين ، فما كان ليجرؤ على الرحيل ، وما كان ليجرؤ على البقاء ! .. وكان عقله فى دوامة ، فرأى أن المسلك الوحيد ، هو أن يعود الى المعسكر ، وأن يفكر فى الامر بهدوء !**

وبعد ربع ساعة ، وصل الى بقعة عرفها ، فان هى الا ساعة حتى كان قد وصل الى المعسكر ، فارتمى على مقعد .. كان كل تفكيره منصرفا الى ((أنجوس)) ، وكان قلبه يدمى عطفا عليه ، وقد وضحت له الآن جميع الامور التى كانت غامضة ، وتكشفت فى ومضة من ومضات الغريزة المريرة ، فعرف لماذا كانت نساء (كوالا سوالور) يقفن موقفا عدائيا من ((داريا)) ، ولماذا كن ينظرن الى ((أنجوس)) نظرات غريبة ، ويعاملنه بعطف مشوب بسخرية .. لقد كان نبيل يعتقد أن هذا راجع الى أن ((أنجوس)) كان رجل علم ، فكان يبدو — فى أنظارهن — أحمق ، سخيفا بعض الشىء . **ولكنه ادرك الآن أن ذلك انما كان راجعا الى اشفاقهن عليه ، برغم ايمانهن**

بغبائه ! .. فقد جعلت منه ((داريا)) أضحوكة الجميع . وإذا كان هناك رجل لا يستحق سوء المعاملة من زوجته ، فقد كان هذا الرجل هو ((مونرو)) ! ..

وشهق نييل فجاة وارتجف ، فقد طرأ على فكره خاطر فجائى : هو أن ((داريا)) لم تكن تعرف الطريق خلال الغابة ، وقد نسى — فى غمرة كربه الشديد — الجهة التى ذهبا اليها ، فماذا يحدث لها اذا ضلت الطريق ؟ .. لسوف تصاب بالرعب ! .. وتذكر القصة الرهيبة التى رواها له ((أنجوس)) عن ضلاله فى الغابة . وكان أول ايحاء غريزى شعر به ، هو أن يعود ليبحث عنها ، فاستوى واقفا على قدميه . **واذا بسخط عنيف يتملكه ، فقال لنفسه : ((لا ، لادعها ترجع بنفسها ، فقد ذهبت بمحض ارادتها ، ولتبحث الآن بنفسها عن طريق عودتها .. انها امرأة فظيعة ، تستحق كل ما قد تصادفه !))** .. ورفع نييل رأسه فى تحد ، وارتسمت على جبينه الناعم علامات النقمة ، وشد قبضتيه يستجدى الشجاعة .. وأخيرا استقر على رأى : سيكون من الخير لانجوس ألا تعود !

وجلس ثانية . وأخذ يحاول سلخ جلد حيوان صغير ، ولكن الجلد كان رقيقا للغاية ، وكانت يدا نييل ترتجفان برغم محاولته أن يركز اهتمامه فى هذا العمل .. وكانت أفكاره تضطرب بعنف — وكأنها يرقات فى مصيدة — فلم يستطع السيطرة عليها ! .. **ترى ماالذى كان يحدث الآن فى الغابة ؟ .. ماذا فعلت عندما تركها ؟**

وأخذ — بين الفترة والاخرى — يرفع رأسه متطلعا الى الفضاء بالرغم منه ، وكأنه كان يتوقع أن تظهر ((داريا)) فى الساحة الخارجية ، وتسير بهدوء فتدخل المنزل .. وشعر بأنه لا يستحق أى لوم ، فهذه كانت يد الله ! .. وارتجف اذ بدأت السحب تتجمع فى السماء ، وحل الليل بسرعة . **وما**

لبث مونرو أن وصل بعد حلول الظلام بقليل ، فقال اذ دخل المنزل : « لقد جئت فى الوقت المناسب ، فلسوف تهب عاصفة هوجاء ! »

وكان فى خير حالاته ، فقد عثر على سهل فيه مياه كثيرة ، ويطل على منظر رائع للبحر . كما عثر على فراشتين أو ثلاث فراشات نادرة الوجود ، وعلى سنجاب طائر . وبدأ يعد الخطط لنقل المعسكر الى ذلك المكان الذى تبين له أنه حافل بالاحياء الحيوانية .

وأخيرا دلف مونرو الى داخل البيت لتغيير حذائه الثقيل ، ولكنه لم يلبث أن عاد بسرعة وسأل : « أين داريا ؟ » .. وحاول نبيل أن يكون طبيعيا ، فتساءل هو الآخر « أليست فى غرفتها ؟ »

ــ لا .. ربما نزلت الى مأوى الخدم .

وهبط درجات السلم ، ونادى «داريا» ، ولكنها لم تجب . فنادى الخدم ، وسرعان ما أقبل خادم صينى ، فقال انه لم يكن يعلم شيئا عنها ، وانه لم يرها بعد الغداء .. فعاد مونرو وهو يتساءل فى دهشة : « أين يحتمل أن تكون ؟ » . وسار الى الساحة الخلفية للبيت ، وأخذ يناديها ، ثم قال لنبيل : **« ليس من المعقول أن تكون قد خرجت ، فليس هناك مكان تذهب اليه . متى رأيتها آخر مرة يا نبيل ؟ »**

ــ اننى خرجت بعد الغداء لاجمع عينات ، لان الجمع لم يكن ــ فى الصباح ــ على مايرام ، ولهذا رأيت أن أجرب حظى بعد الظهر

وهتف مونرو فى قلق : « أمر غريب ! » . وأخذا يبحثان عنها حول المعسكر .. وظن مونرو انها ربما وجدت لنفسها مكانا مريحا ، فنامت فيه . واشترك الجميع فى البحث عنها .. وبدأ مونرو يشعر بالخوف والقلق ، فقال : « من المستحيل أن تكون قد خرجت للرياضة فضلت الطريق فى الغابة ، فما

سبق لها أن سارت الى أكثر من مائة ياردة من المنزل ، أوهذا ما أعرفه عنها أنا - على الاقل - مذ جئنا الى هنا ! »

وشاهد نبيل الرعب المتجسم فى عينى « مونرو » فنكس رأسه . وعاد مونرو يقول : « يحسن بنا أن ننادى الجميع ونشرع فى البحث ، فمن المؤكد أنها لم تذهب بعيداً ، كما أنها تعرف أن خير ما يفعله الانسان اذا ضل فى الغابة ، أن يبقى فى مكانه وينتظر حتى يأتى اليه من يبحثون عنه .. يانها من مسكينة ! .. لسوف تجن من الخوف ! »

ونادى الصيادين ، وطلب من الخدم الصينيين أن يحضروا المصابيح ! . وأطلق مسدسه كاشارة لداريا . ثم انقسم الجميع الى فريقين ، أحدهما بقيادة مونرو ، والآخر بقيادة نبيل . **وسلك الفريقان الطريقين الوعرين اللذين شقوهما فى غدوهم ورواحهم خلال الشهر الذى اقاموه فى المعسكر . واتفقوا جميعا على أن يطلق الفريق الذى يعثر على «داريا» ثلاث رصاصات سريعة متتابعة .**

وانطلق نبيل واجما ، مكفهر الوجه ، ولكن ضميره كان مستريحا . وخيل اليه أنه يحمل فى يديه مرسوم العدالة الالهيه ، فقد كان يعلم أنهم لن يعثروا على « داريا » . وتلاقى الفريقان .. ولم تكن ثمة حاجة الى النظر فى وجه مونرو ، فقد كان شارد الفكر . **وشعر نبيل بنفسه كالجراح الذى يرغم على اجراء جراحة خطرة بغير مساعدين ولا أدوات ، فى سبيل انقاذ شخص يحبه .. وهو موقف يحتم عليه أن يكون حازما !**

وقال مونرو : « من غير المعقول أن تكون قد ابتعدت كل هذه المسافة ، فعلينا أن نعود فنفتش الغابة فى نطاق ميل من البيت . ولننقب فى كل شبر منها ، فان التفسير الوحيد للموقف هو انها ارتعبت ، أو أغمى عليها ، أو لدغتها أفعى ! »

ولم يعقب نبيل .. وبدءوا البحث من جديد ، فساروا فى

صفوف ، يفتشون بين النباتات . وأطلقوا الصيحات ، كما كانوا يطلقون رصاصه – بين آونة وأخرى – ثم يصغون الى رد . وحومت طيور الليل ، ثم فرت مذعورة من المصابيح .. وكانوا يشهدون من آن لآخر ما يخيل اليهم انه حيوان – كغزال أو دب او خرتيت – وهو يهرب من اصواتهم !

وثارت العاصفة فجأة .. فهبت ريح عاتية ، وارعدت السماء ، وشق البرق ظلام الليل ، وكأنه صرخة امرأة برح بها الألم . وأخذت «ومضات» «المعذبة» تظهر بسرعة خاطفة ، واحدة فى أعقاب الاخرى ، وكأنها راقصات من الجن تتمايل فى هوس وجنون .. وتكشفت أهوال الغابة وكانما كان القوم فى يوم الحشر .. وظل الرعد يقصف فى السماء ، ويدوى فى هزيم بعد هزيم ، وكأنه موجات كبيرة تتدافع على شواطىء الخلود .. ورنت هذه الاصوات المخيفة فى الفضاء ، فكان للصوت حجما ووزنا .. وهطل المطر وتدفق سيولا عارمة ، فتهاوت الصخور والاشجار الضخمة ، وتدحرجت من أعلى الجبل .. وكانت الضوضاء عاتية مخيفة ، وتملك الذعر الصيادين « الدياك » من الارواح الغاضبة التى تتكلم وسط العاصفه . ولكن مونرو حثهم على مواصلة البحث .

وظل المطر يهطل طول الليل ، ولم يتوقف الرعد ولا البرق حتى بزغ الفجر ، فعادوا الى المعسكر يرتجفون .. وكانت ثيابهم قد ابتلت ، وأضناهم الجهد والتعب . حتى اذا فرغوا من فطورهم ، أراد مونرو أن يواصل البحث الميئوس منه ، ولكنه أدرك أن لا أمل يرتجى ، وأنهم لن يروا « داريا » بعد ذلك على قيد الحياة .. فارتمى فى اعياء .. وكان وجهه شاحبا ، يحمل أمارات الضنى والعذاب .. وهتف فى أسى ولوعة : « ياللطفلة المسكينة ! .. ياللطفلة المسكينة ! »

جبان..!

(خيط من الدم الأصفر)



THE YELLOW STREAK



كان القاربان يتقدمان فى يسر وسهولة ، منسابين مع التيار ، يسبق أحدهما الآخر ببضع ياردات ، وقد استقله الرجلان اللذان كانا يشعران بالغبطة والارتياح ، اذ اطمأنا الى أنهما سيقضيان الليل فى منزل متمدين ، بعد رحلة استغرقت سبعة أسابيع قضياها على الانهار ..

وكان « ايزارت » يعيش فى (بورنيو) منذ الحرب ، ولهذا لم تكن بيوت « الدياك » ـ أهل العشائر المحلية ـ ولا ولائمهم بالغريبة عنه ، أما « كامبيون » فمع أنه كان جديدا على البلاد وقد استمرأ فى البداية هذه الجدة وما بعثت فيه من شعور بالاستغراب ، فانه أصبح فى أشد الشوق الى مقعد يجلس عليه ، وفراش ينام فيه .. **فقد كان « الدياك » بالغى** الحفاوة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول أن ثمة أسبابا **للراحة فى دورهم ، كما كانت ثمة رتابة مملة فيما كانوا يقدمونه الضيف ، فسرعان ماينطرق الملل الى نفسه .**

ذلك لان زعيم القرية كان يتقدم فى كل مساء ـ عند وصول الرحالتين الى المرفأ ـ حاملا علما ، وقد رافقه علية القوم . فيستقبلون القادمين ويقودونهما الى المنزل « الطويل » ، وهو فى الواقع قرية اقيمت على عمد ، تحت سقف واحد ، لاسبيل الى دخولها الا بتسلق جذع شجرة شدت ـ بطريقة بدائية ـ على شكل درجات سلم . وكان الجميع يسيرون فى موكب

خلال هذه القرية ، بين دق الطبول وقرع اللوحات النحاسية، وقد اصطفت على جانبى الطريق حشود من القوم ذوى البشرة السمراء ، جالسين ، متربعين ، يتطلعون فى صمت تام الى مرور الضيفين !

وكانت الارض مفروشة بحصير نظيف ، ليجلس عليه الضيفان . وكان الزعيم لا يلبث أن يحضر دجاجة حية ، فيمسكها من ساقيها ، ويلوح بها ثلاث مرات فوق رأسيهما، ثم ينادى الارواح بصوت عال ، داعيا اياها ان تشهد .. بينما كان القوم يتوافدون جالبين البيض وشراب « العرق » . **ثم تتقدم فتاة صغيرة جدا ، مستحيية ، فى بهاء الزهور ، وان شاعت فى وجهها الجامد الملامح قداسة كهنوتية ، فتحمل كأسا تقدمها الى الرجل الابيض ، وتحملها الى شفتيه ، فيشرب منها حتى يفرغ جميع محتوياتها فى جوفه ، فترتفع – اذ ذاك – الاصوات مهللة** . ويشرع الرجال فى الرقص ، واحدا بعد آخر ، كل بالطريقة التى يهواها ، وهو يحمل درعه ورمحه ، ويدور الرقص على قرع الطبول ودق الالواح النحاسية .. حتى اذا انتهى هذا العرض ، أقتيد الضيفان الى احدى الغرف المؤدية الى الشرفة الطويلة ، حيث تجرى الحياة العامة فى القرية . وهناك ، كانا يجدان طعام العشاء معدا ، فتأخذه الفتيات فى اطعامهما بالملاعق الصينية . واذ يبدأ الشراب يعبث بالعقول ، يأخذ الجميع فى الحديث ، ويظلون كذلك الى ساعة مبكرة من الصباح !

* * *

وها قد انتهت زيارتهما للقرية ، فغادراها فى الفجر متجهين الى الشاطىء . وكان النهر – اذ ذاك – ضحلا للغاية ، ومياهه تجرى فى صفاء وبريق فوق القاع المكسو بالحصباء ، وقدمالت الاشجار عليه وتشابكت حتى لم تكن تظهر من السماء غير شقة

زرقاء اللون . ولم يلبث النهر أن اتسع ، فلم يعد الرجال يستعملون المدراة فى تسيير الزورق ، بل أخذوا يستخدمون المجاديف . وظهرت الاشجار وأعواد الغاب والنباتات كأنها باقات ضخمة من ريش النعام ، كما ظهرت أشجار ذات أوراق ضخمة ، وأشجار ذات أوراق شبيهة بالريش كأشجار السنط ونخيل جوز الهند ، وقد نمت سيقانها الطويلة نموا غزيرا وحشيا . وكانت تقوم ــ هنا وهناك ــ شجرة ذاوية عارية : قضت عليها صاعقة ، أو ماتت لتقادم العهد عليها ، فاذا بياضها يلوح ناصعا اذا قيس بكل الخضرة الناضرة المحيطة بها .. كما كانت تقوم ــ هنا وهناك ــ الاشجار التى كانت تتنافس على سيادة الغابة : أشجار طويلة ، تتطاول فوق المستوى العادى للادغال .. وكانت هناك ــ أيضا ــ الطفيليات : فبين تقاطع أى فرعين تنمو باقات ضخمة من الاوراق الخضراء اليانعة ، أو نباتات متسلقة ذات أزهار تحجب أوراق الشجرة المنتشرة وكأنها خمار عروس .. وهى تلتف أحيانا حول جذع طويل ، فكأنها غمد بديع ، أو كأنها أذرع مزدهرة تمتد من فرع الى آخر .. وكان ثمة شىء يبهر النفس فى ذلك النماء الضارى المتوثب .. كان يمثل الجراة الوافرة التى التى اتسمت بها البدوة المتمردة بين خلق الله !

وأخذ النهار يولى ، ولم تعد حرارة الجو مرهقة . وألقى « كامبيون » نظرة على ساعة معصمه الفضية القديمة . ووجد انه لن يمضى طويل وقت حتى يصلوا الى مقصدهم ، فسأل رفيقه : « أى نوع من الرجال هتشينسون هذا ؟ »

ــ لست أعرفه ، واعتقد أنه من نوع بالغ الطيبة .

وكان هتشينسون هذا هو المقيم العام ، الذى كانا يزمعان أن يقضيا الليل فى داره .. وقد أرسلا أحد الاهالى فى قارب صغير ليبلغه بوصولهما . فأردف « كامبيون » قائلا : «أرجو

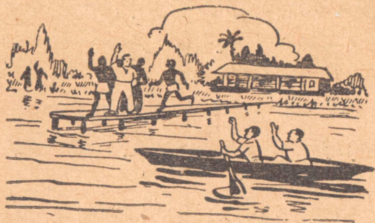
أن يكون لديه بعض الويسكى ، فقد شربت من العرق مايكفينى طول الحياة ! »

وكان « كامبيون » مهندس مناجم ، قابله السلطان فى (سنغفورة) — وهو فى طريقه الى انجلترا ، فلما وجده بلا عمل ، عهد اليه بالذهاب الى (سمبورو) ليرى ماإذا كان من الممكن العثور على أى معدن ذى قيمة . وارسل الى « ويليس » المقيم العام فى (كوالا سولور) تعليماته لتقديم جميع التسهيلات لكامبيون ، فعهد « ويليس » به الى « ايزرت » لانه كان يتكلم لغة الملايو ولغة « الدياك » — وهى اللغة الوطنية — وكأنه من أهلهما .. وكانت هذه ثالث رحلة يقومان بها فى داخل البلاد ، وقد آن لكامبيون أن يعود ليقدم تقريره ، فكان لزاما عليهما أن يلحقا بالسفينه « السلطان أحمد » ، التى كان من المنتظر أن تمر بمصب النهر عند الفجر — بعد يومين — عسى أن يساعدهما الحظ فيصلا الى (كوالا سولور) بعد ظهر اليوم ذاته .. وكانا مغتبطين بعودتهما اليها ، فهناك التنس والجولف والنادى بما فيه من موائد « البلياردو » وأطعمة لا بأس بها ، وأسباب الراحة التى توفرها المدنية . وكان « ايزارت » فرحا لانه سيلقى صحبة أخرى غير « كامبيون » . وقد نظر اليه بطرف عينه يتأمل جسمه الضئيل ، ورأسه الكبير الاصلع .. ومع أنه كان فى الخمسين من العمر — يقينا — فقد كان قويا صلبا ، ذا عينين زرقاوين براقتين سريعتى الحركة ، وشاربين كثين أشيبين قصيرين .. وكان نادرا ما يظهر بغير غليونه القديم يعض عليه بأسنانه المتكسرة التى زال لونها .. ولم يكن نظيفا ولا أنيقا ، بل كان سرواله القصير « الخاكى » رثا ، وقميصه ممزقا . وكان يضع على رأسه قبعة مهشمة من الفلين .

ولقد خرج « كامبيون » يضرب فى الارض وهو فى الثامنة

عشرة من العمر ، فزارجنوب أفريقيا والصين والمكسيك .. وكان رفيقا مسليا ، يجيد رواية اية قصة ، كما كان على استعداد لان يشرب الخمر ويعاود الشراب مع كل امرىء يقابله ! .. وقد ارتبط الاثنان بعلاقات طيبة ، وان لم يشعر « ايزارت » بألفة تامة معه .. فمع أنهما كانا يتمازحان ويتضاحكان ويسكران معا ، الا أن « ايزارت » شعر بأنه لم يكن ثمة تقارب وثيق بينهما ، وبأن علاقتهما لم تتجاوز المعرفة ، رغم ماسادها من ود . وكان مرهف الشعور بما يحدثه من أثر فى نفوس الآخرين ، وقد شعر بأن البهجة — التى كان « كامبيون » يبديها — كانت تخفى وراءها بعض الفتور ! .. وكذلك استطاعت العينان الزرقاوان البراقتان أن تلما بفكرة شاملة عنه ، وقد ضايق « ايزارت » أن يؤلف « كامبيون » فكرة عنه ، لاسيما وأنه لم يعرف هذه الفكرة ونوعها ، كما ضايقه احتمال ألا يكون هذا الرجل البسيط الهزيل قد كون لنفسه فكرة طيبة عنه . فقد كان تواقا الى أن يكون محبوبا وموضوع اعجاب .. **كان يحب أن يكون «شخصية محبوبة» ، وأن يغالى الناس فى تصور مكانته ، حتى يستطيع أن يرفض صداقتهم ، أو يمنحهم صداقته وكأنه يتكرم بها عليهم ..** كانت أمنيته أن يكون معروفا للجميع بلا استثناء ، وما كان يقعده عن محاولة ذلك سوى الخوف من الصد .. وكان يمضه أحيانا أن يشعر بأن افاضته فى التلطف والتودد كانت تدهش أولئك الذين كان يبديها نحوهم !

ولم يكن — للمصادفة — قد التقى بهتشينسون من قبل ، وان كان قد عرف — فى الواقع — كل شىء عنه ، كما كان هتشينسون يعرف — بدوره — كل ما يتعلق به .. وربما كان لهما أصدقاء عديدون مشتركون يستطيعان التحدث عنهم لو قدر لهما أن يلتقيا .. ثم أن هتشينسون كان قد



تلقى علومه فى (ونشستر) ، وقد اغتبط ايزارت اذ كان بوسعه أن يقول لهتشينسون أنه كان فى كلية « هارو » !

ودار الزورق حول منحنى فى النهر ، فظهرت فجأة الدار قائمة على ربوة بارزة . وان هى الا بضع دقائق حتى ظهرت مرساة وقف عليها نفيف من الاهالى ، وشخص فى ثياب بيضاء، وقد راحوا يلوحون للقادمين .

وكان ((هتشينسون)) طويل القامة ، قوى البنية ، أحمر الوجه ، يوحى مظهره اليك بأن تتوقع أن تجد فيه شخصا خفيف الظل ، واثقا من نفسه . ولكنك لاتلبث أن تدهش اذ تكتشف أنه حيى خجول ! .. وبعد أن صافح ضيفه ، قدم ايزارت نفسه ، ثم قدم كامبيون اليه ، فقادهما الى الطريق المفضية الى الدار . وظهر أنه كان يحاول جاهدا أن يبدو ودودا ، بيد أنه لم يكن من المتعذر على أحدهما أن يتبين أنه كان يجد مشقة فى أن يبتكر مادة للحديث .. وأخذهما الى الشرفة فوجدا مائدة عليها كؤوس وزجاجات الويسكى والصودا ، فجلسوا جميعا فى مقاعد طويلة مريحة . واذشعر « ايزارت » بأن الارتباك البسيط الذى كان هتشينسون يشعر به ـ عادة ـ نحو الاغراب قد ازداد ، أخذ يسهب فى الحديث والمرح ؛ وبدأ يتكلم عن معارفهما المشتركين فى (كوالا سولور) ، وسرعان ما نجح فى أن يذكر ـ بطريقة غير

ملحوظة ـ معلومات توحى بأنه كان فى كلية « هارو » ثم قال: « أظنك كنت فى ونشستر . أليس كذلك ؟ » . فأجابه هتشينسون : « بلى » .

ـ هل تعرف « جورج باركر » ؟ .. لقد كان فى فرقتى فى الجيش ، وكان أيضا فى كلية ونشستر .. وربما كان أصغر منك سنا !

وشعر « ايزارت » أن وجودهما فى هاتين المدرستين بالذات يعد رابطة بينهما .. رابطة أبعدت كامبيون عنهما ، الذى كان من الجلى أنه لم يحظ بهذه الميزة ! .. وشربوا كأسين أو ثلاث كؤوس من الويسكى ، وان هو الا نصف ساعة ، حتى كان « ايزارت » ينادى مضيفه باسم « هتشى » ، وتحدث كثيرا عن « فرقتى » ، وعمن توثق الود بينه وبينهم من الضباط الذين زاملوه فيها . وذكر اسمين أو ثلاثة أسماء لا يمكن أن تكون غير معروفة لدى هتشينسون ، وان كان أصحابها من فئة من الناس لم يكن من المحتمل أن يكون كامبيون قد تعرف اليها . ولم يتورع عن أن يوجه اليه سخرية متوارية متعمدة ، عندما أدعى معرفته بشخص ممن تحدث عنه ، فقد قال كامبيون : « بيلى ميدوز ؟ .. لقد عرفت شخصا يدعى بيلى ميدوز فى (سينالوا) ، وكان ذلك منذ عدة سنين ! » . فقال ايزارت مبتسما :

ـ لا أظن أنه نفس الشخص ، فان « بيلى » الذى أعنيه من النبلاء ، انه « اللورد ميدوز » ، الذى يملك جيادا للسباق ، ألا تذكره ؟ .. انه صاحب الجواد « سبرينج كاروتس »

واقترب وقت العشاء .. وبعد أن اغتسلوا واستبدلوا ثيابهم ، شربوا قدحين من « الجن » .. ولم يكن هتشينسون قد ذهب الى (كوالا سولور) منذ سنة تقريبا ، ولم ير رجلا أبيض منذ ثلاثة أشهر ، فكان تواقا الى أن يسرف فى الترحيب

بضيفيه . ولم يكن يملك أن يقدم لهما نبيذا ، وانما كانت هناك كميات كبيرة من الويسكى . وأحضر لهما بعد العشاء زجاجة غالية من « البندكتين » ، فازداد مرحهم ، وأسرفوا فى الضحك والحديث . وبدأ « ايزارت » يبرز فى المجال ، وخيل اليه أنه لم يحب ـ من قبل ـ شخصا أكثر مما أحب « هتشينسون » ، فأخذ يلحف فى دعوته أن يزوره فى (كوالا سـولور) بأسرع ما كان يستطيع . وأوحى شىء من الخبث الى « ايزارت » أن يستبقى « كامبيون » بعيدا عن الحديث ، لكى يضعه فى مكانه ، كما نأى هتشينسون عن محادثه بحكم خجله وحيائه . فما لبث كامبيون أن ابدى رغبته فى أن يأوى الى فراشه ، بعد أن أكثر من التثاؤب . فاقتاده هتشينسون الى غرفته . وعندما عاد الى ايزارت قال له : « ألا تريد الذهاب الى الفراش الآن ؟ »

ـ لا ، وحياتك ! .. لنتناول كأسا أخرى !

وجلسا يتبادلان الحديث .. وبدأت الخمر تلعب برأسيهما . واذ ذاك ذكر « هتشينسون » لضيفه أنه كان يعاشر احدى فتيات الملايو ، وقد أنجب منها طفلين ، ولكنه طلب منهم ألا يظهروا خلال مقام كامبيون ! .. وأردف ، وهو يمد النظر نحو الباب الذى أدرك ايزارت أنه يؤدى الى مخدع المضيف : « أحسبها نائمة الآن ، ولكنى أحب أن ترى الطفلين ، وسأفعل ذلك فى صباح غد »

وهنا انبعث عويل خافت ، فقام هتشينسون واتجه الى الباب ، وهو يقول : « لقد استيقظ الشيطان الصغير ! » . وفتح الباب ، ودخل الغرفة .. وبعد برهة ، ظهر وهو يحمل طفلا بين ذراعيه ، ووراءه امرأة تتبعه .

وقال لايزارت : « لقد بدأت أسنانه تشق طريقها للظهور ، وهى تتعبه وتؤرقه ! » .. وكانت المرأة ترتدى الســارونج

(وهو مئزر يرتديه الرجال والنساء على السواء فى جاوة والملايو) ، وسترة بيضاء خفيفة . وكانت حافية القدمين ، صغيرة السن ، ذات عينين سوداوين جميلتين . وعندما تحدث « ايزارت » أليها ، ابتسمت له ابتسامة مشرقة تفيض بهجة ، ثم جلست وأشعلت سيجارة، وأخذت تجيب ـ بدون حرج ، ولكن بلا اسراف ـ عن الاسئلة التى أخذ يوجهها اليها بأدب وكياسة . وسألها هتشينسون عما اذا كانت تحتسى كأسا من الويسكى معهما ، فرفضت . وعندما عاود الرجلان الحديث بالانجليزية ، جلست ساكتة تتأرجح برفق فى مقعدها ، وقد أستغرقت فى أفكار هادئة ما كان بوسع أحد أن يتنبأ بها !

وقال هتشينسون : « انها فتاة طيبة للغاية ، تتولى العناية بالبيت ، ولا تضايقنى فى شىء . وهذا بطبيعة الحال هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعمل فى مكان كهذا ! » . فقال ايزارت: « اننى ـ شخصيا ـ لا أقدم على شىء كهذا ، فلا بد للانسان ـ فى النهاية ـ من أن يرغب فى أن يتزوج ، واذا كان فى ماضيه مثل هذا الشىء ، فانه يغدو مصدرا للكثير من الحرج!»

ـ ولكن .. من ذا الذى يريد الزواج ؟ .. ياله من حياة لسيدة بيضاء ! !.. اننى لا أجسر قط أن أسأل أية سيدة بيضاء أن تعيش هنا ، مهما يكن الثمن !

ـ انها بطبيعة الحال مسألة مزاج .. واذا قدر أن يكون لى أولاد ، فيهمنى أن تكون أمهم من البيض !

فغض هتشينسون نظره ، وأخذ يتفرس فى الطفل الاسمر اللون ، الذى كان يحمله بين ذراعيه . وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وقال : **« من الطريف حقا أن تعرف الى أى مدى ستحبهم ، فليس من المهم أن يكونوا سودا أو بيضا مادام أبناءك ! »**

وألقت المرأة نظرة على الطفل ثم نهضت قائلة انها تبغى أن تحمله الى الفراش . فقال هتشينسون :« أرى من المناسب أن نذهب جميعا الى النوم ، فالله وحده يعلم فى أية ساعة نحن الآن ! »

* * *

وذهب « ايزارت » الى غرفته ، ففتح النوافذ التى كان خادمه « حسن » – الذى رافقه فى رحلته – قد أغلقها ، وأطفأ الشمعة حتى لايجتذب ضوؤها البعوض ، ثم جلس الى النافذة ، وأخذ يتطلع الى الظلام الهادىء ، وقد أوحى اليه الويسكى الذى شربه أنه كان يقظا ، متنبها كل الانتباه ، وليست به رغبة فى أن يأوى الى فراشه . وقام فخلع ملابسه ، وارتدى « السارونج » ، وأشعل سيجارة من تبغ « المانيلا » ، وقد اختفت علامات البشر من وجهه . **فان رؤيه هتشينسون وهو ينظر فى شغف الى الطفل الذى أنجبه من امرأة غير بيضاء ، عكر عليه هدوء باله ! .. وقال يحدث نفسه : « لم يكن لهما أى حق فى أن ينجبا أبناء ، فلن تكون لهؤلاء الابناء أية فرصة فى الدنيا ! .. أبدا ! »**

ومر بيديه على ساقيه العاريتين من الثياب ، المكسوتين بالشعر . وارتجف قليلا ، ولا غرو ، فقد حاول كثيرا أن ينمى هاتين الساقين ، ولكنهما ظلتا دائما أشبه بعصا المكنسة ، حتى لقد بات يكرههما ، ويشعر على الدوام بما فيهما من عيب .. كانت أشبه بسيقان أبناء تلك البلاد .. بل أنهما – فى الواقع – الساقان اللتان خلقت الاحذية الطويلة من أجلهما . ولذلك كان يظهر بمظهر طيب جدا ، اذا ما ارتدى الزى الرسمى . فقد كان طويل القامة ، قوى المبنية ، يزيد طوله على ست أقدام ، وكان ذا شاربين حالكى السواد ، وشعر اسود . أما عيناه السوداوان ، فكانتا جميلتين كثيرتى

الحركة .. وكان مليح الشكل ، وقد أدرك ذلك حقا ، كما كان حسن الملبس ، واسع الثياب مهدلها عندما تقتضى « المودة » ذلك بالثياب المهدلة ، وأنيقا عندما يقتضى الظرف أن تكون ثيابه محبوكة حول جسده !

ولقد أحب الجيش ، فكانت صدمة قوية له أن انتهت الحرب ، ولم يتسن له البقاء فى صفوفه .. وكانت مطامعه بسيطة ، فقد كان يرجو دخلا يبلغ ألفى جنيه فى العام ، ويتوق الى اقامة حفلات العشاء الفخمة ، وأن يذهب الى الحفلات والمآدب وهو فى أزى العسكرى .. وكان يصبو الى الاقامة فى لندن !

وكانت والدته تعيش هناك فى الواقع ، وهى التى كانت تعرقل خططه ! .. اذ كان يحار فى أمر تقديمها للمجتمع اذا قدر له أن يخطب الفتاة التى كان يتطلع الى الزواج بها ، وهى من أسرة طيبة ، وتملك بعض المال .. وكان أبوه قد توفى منذ زمن طويل ، وقد قضى الفترة الاخيرة من حياته مقيما — أى حاكما — فى أقصى ولاية من ولايات الملايو . ولهذا كان « أيزارت » واثقا من أنه ما من أحد فى (سمبولو) يعرف شيئا عن أمه .. **ومع ذلك ، فقد كان يعيش فى ذعر ، خشية أن يصادفها أحد فى لندن ، فيكتب الى القوم فى (الملايو) ، ويذيع أنها كانت « مولدة » .. من أب أبيض وأم من بنات تلك الاصقاع !..** ولقد كانت حسناء عندما تزوجها والد « ايزارت » — الذى كان مهندسا فى خدمة الحكومة — ولكنها أصبحت عجوزا بدينة ، شيباء الشعر ، تقضى يومها فى خمول ، ولا تكف عن التدخين ! ..

ولقد كان « أيزارت » فى الثانية عشرة عندما توفى والده ، وكان — عندئذ — يستطيع التحدث بلغة الملايو بطلاقة تفوق طلاقته فى الانجليزية !.. وقد أبدت احدى عماته استعدادها للتكفل بنفقات تعليمه ، فسافر الى انجلترا .. ورافقته أمه ،

التى اعتادت أن تقيم فى مساكن مفروشة ، فكانت غرفها مقبضة للنفس ، شديدة الحر ، لكثرة ماكانت تحشد فيهامن ستائر شرقية ، وأدوات للزينة مصنوعة من فضة الملايو .. وكانت الام على شقاق دائم مع صاحبات المساكن التى تستأجرها ، بسبب ماكانت تنثره حولها من بقايا السجاير فى كل مكان . **وكان ايزارت يكره طريقتها فى المصادقة ، فقد كانت تتمادى فى الالفة فترة من الزمن ، الى درجة تثير الدهشة ، ثم يدب الفتور ، وبعد شجار عنيف ، تغادر المنزل الى سواه !**

وكانت أفلام السينما متعتها الوحيدة ، فكانت تذهب الى دور السينما فى جميع أيام الاسبوع .. وكانت ترتدى — فى مسكنها — ثوبا رخيصا ، كثير الزركشة والنقوش . أما اذا خرجت ، فكانت ترتدى — فى غير أناقة ولا نظافة — ثيابا ذات ألوان صاخبة ، مما كان يثير كمد ابنها الانيق ، فكان يتشاجر معها كثيرا . ولا عجب فقد كانت تستنفد صبره ! .. **كان يخجل منها ، ولكنه — مع هذا — كان يشعر نحوها بحنان رقيق عميق ، فكأنما بينهما رابطة مجسدة ، تتجاوز مجرد الشعور العادى بين الام والابن ، ولهذا فقد كانت — برغم سيئاتها التى أقضت هناءه — هى الشخص الوحيد فى العالم ، الذى يرتاح اليه ارتياحا تاما !**

ونظرا للمركز الذى كان والده يشغله ، ولمعرفته هو بلغة الملايو — لان والدته كانت تحدثه بها على الدوام — فانه عمد حين وجد نفسه بلا عمل أو منصب، الى السعى للالتحاق بخدمة سلطان (سمبولو) . وقد أصاب نجاحا فى هذه الخدمة ، وفى المجتمع الذى يقيم هناك . اذ كان يجيد العابا كثيرة ، وكان قويا ورياضيا مبرزا ، وقد عرض فى استراحة (كوالا سولور) الكؤوس التى ظفر بها فى مسابقات العدو

والقفز فى كلية « هارو » ، وقد أضاف اليها بعد ذلك كؤوسا أخرى ظفر بها فى مباريات الجولف والتنس .. وكان بفضل ما حوته جعبته من أحاديث شيقة ، النجم اللامع فى المآدب والحفلات .. وكانت بشاشته عاملا فى تصريف الامور ، وكان خليقا ـ بعد كل هذا ـ بأن يكون سعيدا ، ولكنه كان ـ الواقع ـ كان بائسا شقيا !.. ولقد كان يتوق أن يكون من الشخصيات المعروفة المحبوبة . ولكن هاجسا راح يوحى اليه ـ فى الحاح كان فى هذه اللحظة أقوى منه فى أية لحظة من قبل ـ بأن الشهرة الشعبية قد أفلتت منه . وكان يخشى أن يكون أهل (كوالا سولور) قد عرفوا ـ ولو بمحض المصادفة ـ أن فى عروق هذا الشخص الذى يقابل بالترحيب فى كل مكان ، دما من بلادهم !

وكان يعلم تماما ما ينبغى أن يتوقعه لو أنهم عرفوا ذلك ، فلن يقولوا عندئذ أنه مرح ودود ، بل سيقولون أنه عادى الى أقصى حد .. وسيقولون كذلك انه مهمل ، وغير كفء ، كغيره من المولدين .. وسوف يسخرون منه عندما يتحدث عن الزواج بسيدة من البيض ! .. ياله من اجحاف وغبن ! .. أى فارق هذا الذى تحدثه هذه القطرة من الدم المحلى التى تجرى فى عروقه ؟ ! .. ان هذه القطرة بالذات ستحملهم على أن يكونوا على الدوام متحفزين ، انتظارا للفشل المرتقب فى



اللحظة الحرجة . فان كل امرىء كان يوقن من انه لا يمكن الاعتماد على الخلاسيين ، ومن ثم فقد أخذ يتوقع أن يتخلوا عنه ، عندما تحين هذه اللحظة ، أن آجلا أو عاجلا ! .. كان يعرف ذلك ويوقن منه ، ولكنه راح يسائل نفسه ، فى تلك الليلة : **ألا يكون فشل الخلاسيين راجعا الى أن الفشل كان منتظرا منهم ؟ ! .. يالهم من بؤساء مساكين ، لم تتح لهم أية فرصة !**

وصاح ديك بصوت عال ، فانتبه « ايزارت » الى أن الوقت قد مضى به بعيدا .. وبدأ يشعر بالبرد ، فأوى الى مرقده.

وعندما أحضر له « حسن » الشاى – فى الصباح التالى – كان يشعر بصداع حاد . وعندما ذهب الى حجرة المائدة لتناول الفطور ، لم يقو على أن يلقى نظره على شرائح اللحم والبيض الموضوعة أمامه .. وكان هتشينسون – هو الآخر – فى حال غير طيبة ، فقال وهو يبتسم ليخفى تعبه : «أحسب اننا جعلنا من ليلة الامس ليلة ليلاء ! » . فهتف ايزارت : « اننى أشعر كأننى فى جحيم ! » .. وهنا قال هتشينسون : « سأفطر بقدح من الويسكى والصودا » . ولم يكن ايزارت « سأفطر بقدح من الويسكى والصودا ! » . ولم يكن ايزارت وهو يقبل على التهام اللحوم بشهية طيبة !

وقال كامبيون فى سخرية : « يالله يا ايزارت ! .. شد مايبدو خيشو ماك أسمرين ! .. أبدا لم أر فى حياتى مثل هذه السمرة العجيبة ! » . فضرج وجه ايزارت ، اذ كان اسمرار لونه نقطة حساسة بالنسبة له . ولكنه أرغم نفسه على أن يطلق ضحكة ، مظهرا البهجة ، وقال :

– الواقع ان لى جدة اسبانية ، وأذكر أننى عندما كنت فى « هارو » ، تشاجرت مع أحد الصبية وضربته ضربا مبرحا لانه نعتنى بأنى « مولد » !

فقال هتشينسون : « انك أسمر اللون ! .. هل سألك

أحد من الملايو عما اذا كان يجرى فى عروقك دم محلى ؟ » .
فأجاب ايزارت متضاحكا : « أجل .. لعنة الله على جرأتهم ! »

* * *

وفى الصباح ، أقلع قارب بأمتعتهما ليسبقهما الى مصب النهر، وليخبر ربان السفينة « السلطان أحمد » ـ اذا قدر ان تصل قبل الموعد المقرر لها ـ انهما كانا فى طريقهما الى السفينة وكان على ايزارت وكامبيون أن يقلعا فورا ، حتى يصلا الى المكان الذى كان مقررا أن يقضيا الليل فيه ، قبل أن تمر موجة المد ، وهى موجة من مياه المد تندفع فى بعض الانهار ـ بسبب خاصية فى الارض ـ وكان النهر الذى يبحران فيه يتعرض لمثل هذه الموجة . وكان هتشينسون قد أبلغهما عنها فى الليلة الماضية .. وقد أبدى كامبيون ـ الذى لم يسبق له أن رأى شيئا كهذا ـ أهتماما كبيرا بأمرها . فقال هتشينسون : « انها من خير الموجات فى بورنيو ، وهى جديرة بالمشاهدة ! »

وأبلغهما كيف أن الوطنيين يترقبون عادة اللحظة التى تأتى فيها الموجة فيمتطونها لتنقلهم بسرعة رهيبة تخطف الانفاس خطفا . وقال لهما انه قام بهذه التجربة مرة واحدة . ثم أردف : « ان أعاود التجربة مرة أخرى ، فقد أخرجنى الرعب الذى شعرت به عن وعيى ! »

وقال ايزارت : « لكم أود أن أجرب ذلك مرة ! »

ـ انها مثيرة الى حد بالغ ، ولكن صدقونى اذا قلت أنكما اذا كنتما فى أحد القوارب المحلية ، ولم يعرف الوطنى الذى يقوده اللحظة المناسبة التى تهب فيها الموجة ، فانها لا تلبث أن تدهمكما وتلقى بكما فى تيار عارم . وعندئذ لا تكون هناك أية فرصة للنجاة ! .. وفى رأيى أن المجازفة بالتعرض لها ليست من الرياضة فى شىء !

فقال كامبيون : « اننى اجتزت فى حياتى عددا كبيرا من

الشلالات ! »

– كل الشلالات تعد تافهة اذا قيست بهذه الموجة . وما عليك الا أن تنتظر لتراها ! .. انها من أفظع ما عرفت ! .. الا تعلم ان مالا يقل عن عشرة من الاهالى يغرقون فى الموجة التى تدخل هذا النهر ، فى كل عام ؟

وجلسوا على مقاعد مريحة فى الشرفة، حيث قضوا الشطر الاكبر من فترة الصباح . ثم أخذهما هيتشنسون فأراهما دار المحكمة . وأديرت كؤوس « الجن » بعد ذلك ، فشربوا كأسين أو ثلاثا .. وانتعش ايزارت ، فلما مد الطعام – فى النهاية – شعر بشهية رائعة .. وكان هتشينسون يطنب فى امتداح « الكارى » الذى يطهى فى الملايو ، فما ان وضعت الاطباق الساخنة – التى كان البخار يتصاعد منها – حتى أقبل الضيفان عليها ، وراحا يأكلان بشراهة . وألح هتشينسون عليهما بالشراب ، وهو يقول : « ليس أمامكما – خلال الرحلة – غير النوم ، فلماذا لاتسكران ؟ »

ولم يكن يطيق أن يتركهما يفارقانه بهذه السرعة ، فما كان أجمل أن يجتمع – بعد هذه الفترة الطويلة التى قضاها فى هذه البلاد – برجلين من البيض ويتحدث اليهما ، ولهذا راح يتلكأ فى الاكل ، ويلح عليهما فى تناول مزيدمن الطعام . وقال لهما أنهما لن يجدا فى البيت الطويل – الذى ينزلان فيه خلال الرحلة – غير طعام تافه ، وغير شراب العرق فقط .

واقترح كامبيون مرة أو مرتين أن يشرعا فى الرحلة ، ولكن هتشينسون كان يستمهله مؤكدا له ان هناك متسعا من الوقت .. وكذلك فعل « ايزارت » ، اذ كان قد أحس بالسعادة والطمأنينة . وبعث هتشينسون فى طلب زجاجة « البندكتين » الثمينة .. وكانوا قد شربوا بعضا منها فى الليلة السابقة ، فرأى أن يأتوا عليها معا قبل أن يغادراه !

وعندما رافقهما – فى النهاية – الى النهر ، كانوا جميعا فى منتهى المرح ، ولم يكن أى منهم ثابت القدمين ! .. وكانت تقوم فى وسط الزورق سقيفه ، وقد فرش هتشينسون حصيرة تحتها .. اما البحارة فكانوا من المسجونين ، وقد جىء بهم من السجن ليبحروا بالرجلين الابيضين ، وقد ارتدى كل منهم مئزرا « سارونج » قذرا ، عليه علامة السجن . ووقفوا ممسكين بالمجاديف فى انتظار الراحلين .. وبعد أن صافح « ايزارت » و « كامبيون » هتشينسون ، تهالكا على الحصير ! .

* * *

وأقلع الزورق فى النهر الواسع الهادىء ، الذى كان ماؤه يتألق تحت حرارة شمس بعد الظهر الساطعة ، فكأنه نحاس مصقول براق . وكان فى امكانهما أن يريا من القارب ضفة النهر – على البعد – بأشجارها الخضراء المتشابكة . وشعر الاثنان بالنعاس ، ولكن « ايزارت » وجد متعة غريبة فى أن يقاوم قليلا ذلك التثاقل الذى أخذ يدب فى جسمه ، وقد استقر عزمه على أن لايدع النوم يغلبه قبل أن ينتهى من تدخين السيجارة المصنوعة من طباق « المانيلا » . وأخيرا ، كاد عقب السيجارة أن يحرق أصابعه ، فقذف به فى البحر ، وقال : « سأنعم باغفاءة بديعة ! »

فسأله كامبيون : « وما رأيك فى موجة المد ؟ »

– آه ، لا بأس ! .. لاداعى لان نضايق نفسينا بهذا !

وتثاءب فى صوت عال ، وشعر بأن مفاصله قد ثقلت حتى أصبحت كالرصاص..ومرت برهة شعر فيها بخدر لذيذ ، ثم راح فى غفوة لم يعد خلالها يشعر بشىء ! .. ولكن « كامبيون » أيقظه فجأة ، وأخذ يهزه صائحا :

– أنظر ... ما هذا ؟

ـ ماذا ؟ .. ما الذى تتساءل عنه ؟

وكان يتحدث بتثاقل ، لان النوم كان لا يزال يغالبه ، ولكنه تابع بعينيه اشاره « كامبيون » .. ولم يسمع شيئا ، ولكنه راى ـ على مسافة ليست بالقريبة ـ قمتين او ثلاثا لموجات متتابعة ، يلاحق بعضها بعضا . ولم يكن في منظرها ما يدعو الى الخوف أو الجزع ، فقال ايزارت : « أوه .. أظنها موجة المد ! »

فسأله كامبيون : « **وماذا ترانا فاعلين ازاءها ؟** »

ولم يكن « ايزارت » قد أفاق تماما من نعاسه ، فابتسم للقلق الذى بدا جليا فى صوت كامبيون ، وقال له :

ـ لا تقلق ، فان الذين معنا يعرفون كل شىء عن هذه المسألة ، كما أنهم يعرفون كل المعرفة ما يجب أن يعملوه .. وربما أصابنا بعض الرذاذ فحسب !

وبينما كانا يتبادلان هذه الكلمات ، كانت الموجة تقترب بسرعة كبيرة ، وقد سمع لها هدير كهدير بحر غاضب . ورأى ايزارت أمواجا أكبر بكثير مما كان يتصور ؛ فلم يرتح الى منظرها . وشد حزامه حول خصره ، حتى لا ينزلق سرواله (بنطلونه) القصير اذا تأرجح الزورق ..

ولم تكد تنقضى لحظة ، حتى داهمتهم الموجة .. كانت أشبه بجدار ضخم من الماء ، لاح أنه يرتفع شامخا فوقهم .. ولعل ارتفاعه كان يبلغ عشر أقدام أو اثنتى عشرة قدما ، ولكنك لم تكن تستطيع قياسه الا بالنسبة الى فزعك ! .. وتبدى بجلاء أنه لا سبيل لاى زورق الى أن يقاوم هذا الطوفان الجارف !

واندفعت الموجة الاولى فغمرتهم وأغرقتهم جميعا ، وملأت نصف الزورق بالماء .. وجاءت الموجة الثانية فى أعقاب الاولى مباشرة ، فلطمتهم ! .. وأخذ البحارة يصرخون ويحركون المجاديف بجنون . وصاح مراقب الدفة مصدرا أمرا ، غير

أن البحارة كانوا عاجزين فى وسط هذا السيل الطاغى ، وكان من المفزع لهم حقا ان يروا كيف كانوا يفقدون بسرعة كل سيطرة على الزورق .. فقد حولت قوة المياه اتجاه الزورق ، فأصبح فى وضع مستعرض فى النهر ، ثم حملته معها على قمة الموجة .. واقتربت موجة ضخمة اخرى ، ثم اندفعت نحوهم بقوة ، فغمرتهم . وبدأ الزورق يغرق ، فخرج « ايزرت » و « كامبيون » من تحت السقيفة ، حيث كانا مستلقيين ، وقد شعرا — على حين غرة — بأن الزورق راح يميد تحت أقدامهما ..

ووجد نفسيهما يصارعان المياه ، وهى تحيط بهما وتدفعهما بقوة . وكان أول خاطر تبادر لذهن « ايزرت » هو أن يسبح فى اتجاه الشاطىء ، ولكن خادمه « حسن » صاح به وناشده أن يتشبث بالقارب .. وحذا الجميع حذوه .

وصاح كامبيون ، يسأل ايزرت . « أأنت بخير ؟ »

فأجابه ايزرت قائلا : « أجل ، وها أنذا أنعم بالاستحمام! »

★ ★ ★

وظن أن اضطراب الماء سينقطع — بعد أن مرت موجة المد سارية فى النهر — وأنهم لن يلبثوا بعد بضع دقائق أن يخرجوا مرة اخرى الى مياه هادئة . وقد نسى انهم كانوا — فى الواقع — محمولين على قمة موجة المد الكبرى ، وقد أخذت الامواج — التى أثارها اندفاعها — تتدافع نحوهم ، وتهاجمهم بعنف. **فتشبثوا بحافة الزورق ، وبالقاعدة التى كانت السقيفة تقوم عليها . ثم مرت موجة أكبر ، فاعتربت القارب بقوة جعلته ينقلب ويهوى فوقهم . وأفلتت قبضاتهم ما كانوا يتشبثون به ، فراحوا يتخبطون .. وبدا لهم أنه لم يعد أمامهم غير قاع الزورق المقلوب يستطيعون التعلق به ، ولكنه كان أملس ، وكأنه مطلى بالشحم ! .. وقد حاول «ايزرت»**

عبثا أن يتشبث به ، ولكن يديه كانتا تنزلقان عن هذا السطح الاملس ..

واستمر القارب ينقلب على كل جانب ، فأمسك ايزارت بحافته باستماتة .. ولكنه شعر به ينزلق من قبضته . وأخيراً نجح فى التعلق بالسقيفة . ومضى الزورق فى تقلبه ، وهو يدور ببطء .. وحاول مرة أخرى أن يمسك بأسفله ، ولكنه كان يدور بانتظام رهيب ! .. وظن أن السبب فى هذا راجع الى أن الجميع كانوا يتعلقون بجانب واحد منه ، فحاول أن يحمل البحارة على الانتقال الى الجانب الآخر ، ولكنه لم يستطع أن يحملهم على فهم الموقف ، فكان كل واحد منهم يصرخ ، وكانت الامواج تنقض عليهم فى زئير رهيب مرعب! ..

وكلما انقلب الزورق فوقهم ، كان ايزارت يندفع الى جوف الماء ، ولا يرتفع الا عندما تتيح له حافة الزورق وسقيفته فرصة التشبث بأى منهما ..

كان نضالا رهيبا ! .. وكادت أنفاسه تنقطع ، وشعر بأن قواه أخذت تخور .. وكان يعرف أنه لم يكن يستطيع الصمود طويلا ، ولكنه مع هذا لم يشعر بخوف ولا جزع ، اذ أن التعب كان قد بلغ منه مبلغا لم يعد معه يهتم بمايحدث!

وكان « حسن » بجانبه ، فما لبث ايزارت أن أبلغه أن التعب قد برح به ، وأنه كان يرى أن خير مايمكن عمله هو الاندفاع نحو الشاطىء ، اذ أنه لم يكن يبدو بعيدا بأكثر من ستين ياردة . ولكن حسنا ناشده ألا يفعل ذلك .. وكانوا لايزالون محمولين على هذه الامواج الصاخبة العارمة .. وظل الزورق يدور ويدور ، وهم يتخبطون فوقه ، وكأنهم سناجب فى قفص ! .. وابتلع « ايزارت » كمية كبيرة من الماء ، وشعر بأنه أوشك أن يهلك !

ولم يكن فى مقدور « حسن » أن يقدم له أية مساعدة ،

ولكن وجوده كان مدعاة لاطمئنانه . فقد كان ايزارت يعرف أن هذا الفتى قد ألف الماء طوال حياته ، وأنه هدا كان سباحا قويا .

وشعر ايزارت — لدقيقة أو دقيقتين — ان قاع الزورق ظل الى أسفل ، فلم يدر سبب هذا ، ولكنه تمكن — في هذه الحالة — من التشبث بحافة الزورق . وبالهام من لحظة عظيمة ، استطاع فيها أن يتنفس ! .. وشاهد عندئذ قاربين صغيرين يقلان بعض أهل الملايو . وكانا محمولين على هذه الامواج ، وقد مرا كلمح البرق ، فصاح ركاب زورق ايزارت يطلبون النجدة ، ولكن الملايويين أشاحوا بوجوههم ومضوا في طريقهم .. ولقد رأوا الرجلين الابيضين ولكنهم لم يشاءوا أن يزجوا بأنفسهم فيما قد يعود عليهم بمتاعب .. وكان من الؤام حقا أن يريا هؤلاء الناس يمرون بهما ويتركونهما دون أن يهتما بسلامتهما !

وعلى حين فجأة ، عاد الزورق يدور ، ويدور ، ويدور ببطء .. وعاد الزحف ، والافلات ، والتسلق ، تتكرر في ارهاق وضنى مؤلمين .. ولكن الفترة القصيرة التي كان ايزارت قد قضاها متشبثا بحافة القارب — دون كفاح — ساعدته كثيراً ، وأطالت من فترة نضاله الجديد .. وشعر — مرة اخرى — بأن أنفاسه تتقطع ، وأحس بصدره يكاد ينفجر .. ونفدت قواه ، ولم يعد يدرى ما اذا كان قد بقى منها مايمكنه



من السباحة الى الشاطىء ..

وعلى حين غرة ، سمع صرخة .. وتبين صوت كامبيون يصيح قائلا : « ايزارت ! النجدة ! .. النجدة ! »

وكانت صرخة ألم هدت أعصاب ايزارت .. وأخذ يردد فى نفسه : « كامبيون ! .. كامبيون ! » .. وماذا يهمه من أمر كامبيون ؟ ! .. واستولى عليه الخوف .. خوف حيوانى أعمى ، أشاع فيه قوة جديدة . واذا هو لايجيب النداء والاستصراخ ، وانما قال لحسن : « ساعدنى ! انقذنى ! .. أسرع ! أسرع ! »

وفهم حسن جلية أمره فى الحال .. وبمعجزة ما ، ظهر أحد المجاديف بالقرب منهما ، فأمسك به حسن ، ودفع به الى « ايزارت » . ثم وضع يده تحت ذراع « ايزأرت » ، وابتعدا عن الزورق .. وكان قلب « ايزارت » يدق بعنف ، وانفاسه تنبعث بعناء . واحس بضعف بالغ .. وأخذت الموجات تلطمه فى وجهه .. وبدأ الشاطىء وكأنه على بعد سحيق ، فلم يخالجه رجاء فى أن يستطيع الوصول اليه ..

وفجأة ، صاح الخادم قائلا أنه استطاع أن يلمس قاع النهر ، مبشرا بأنهما بلغا بقعة ضحلة ، فأنزل ايزأرت ساقيه ، ولكنه لم يشعر بشىء تحته .. وتحول يسبح ويضرب الماء بذراعيه بضع ضربات واهنة ، وعيناه مركزتان لاتتحولان عن الشاطىء . وعاد يجرب حظه مرة أخرى ، فأنزل ساقيه ومدهما فى الماء . واذ ذاك شعر بقدميه تغوصان فى طمى كثيف . وامتلأ قلبه فرحا وحمدا . وأخذ يتقدم ويخوض الماء متخبطا ، واذا الشاطىء على قيد ذراع منه . وغاصت ساقاه فى الطمى الى ركبتيه ، فناضل مستيئسا لكى يخرج من هذه المياه القاسية .

واخيرا ، وجد أمامه بقعة مسطحة من الارض ، مكسوة بحشائش طويلة ، فارتمى وحسن عليها .. واستلقيا برهة بلا

حراك ، وكأنهما ميتان ، وقد كساهما الطمى الاسود من قمتى رأسيهما الى أدنى أقدامهما !

* * *

ولكن عقل ايزارت لم يلبث أن بدأ يعمل من جديد . واذا بوخز أسى مفاجىء يهز كيانه .. لقد غرق « كامبيون » ! يا له من أمر مروع!..ولم يدر كيف سيتسنى له أن يشرح هذه النكبة عندما يعود الى (كوالا سولور) .. لسوف يوجه اليه اللوم ، اذ كان ينبغى له أن ينتبه الى موجة المد ، والمويجات التى تثيرها ، فيأمر قائد الدفة بأن يحول الزورق الى الشاطىء عندما رأى هذه الموجات مقبلة .. ولكن ذلك لم يكن خطأه ، وانما كان خطأ قائد الدفة الذى كان يعرف النهر خير معرفة . فلماذا – بحق السماء – لم يخطر له أن يخرج الى بر الامان ؟ .. وكيف كان بوسعه أن يتوقع أنه فى الامكان امتطاء هذا السيل العرم ؟ !

وأخذت ركبتا « ايزارت » ترتجفان عندما تذكر جدار المياه الضخم الذى داهمهم . ورأى لزاما عليه أن يعثر على الجثة ، وأن يأخذها الى (كوالا سولور) .. ولم يكن يدرى ما اذا كان أحد من البحارة قد غرق كذلك .. وبلغ من ضعفه أنه لم يستطع حراكا ، ولكن حسنا كان قد قام ونفض الماء عن « الساورنج » ، وأخذ ينظر الى النهر ، ثم تحول بسرعة الى ايزارت وقال :

– سيدى .. هناك قارب يقترب !

ولكن الحشائش الطويلة حالت دون أن يرى ايزارت شيئا . فاكتفى بأن قال لحسن : « نادهم ! »

وغاب حسن عن النظر واتجه نحو جذع شجرة كانت تميل على الماء ، فتسلقه ، وأخذ يصيح ويلوح بيديه . وما لبث « ايزارت » أن سمع – فى النهاية – أصواتا .. كانت أصوات

حديث سريع بين الخادم وركاب القارب ، ثم عاد حسن فقال لايزارت :

ــ لقد شاهدونا عندما انقلب الزورق بنا ، فعادوا الينا حالما مرت موجة المد .. انهم يقولون ان هناك بيتا طويلا على الجانب الآخر ، فاذا عبرنا النهر معهم قدموا لك ((السارونج)) والغذاء .. ويمكننا أيضا أن ننام هناك !

على ان ايزارت شعر ــ لبرهة ــ بأنه لم يعد يستطيع أن يطمئن على نفسه مرة أخرى ، وسط هذه المياه الغادرة .

واخيرا سأل الخادم :

ــ وما أمر السيد الابيض الآخر ؟

ــ انهم لا يعرفون عنه شيئا

ــ اذا كان قد غرق ، فعليهم أن يبحثوا عن جثته !

ــ هناك قارب آخر خرج الى عرض النهر

ولم يعرف ايزارت ماكان ينبغى أن يفعل ، فقد كان مشتت الحس والحركه . ووضع حسن ذراعه تحت أبطه ورفعه وأوقفه على قدميه . ثم سعى به وسط الحشائش الكثيفة ، متجها الى حافة الماء . وهناك ، رأى ((ايزارت)) القارب الصغير الذى كان يستقله اثنان من ((الدياك)) . وكان النهر قد عاد الى هدوئه ، بعد أن مرت الموجة الكبرى . وما كان لانسان أن يتصور أن هذا السطح الهادىء كان منذ لحظات أشبه ببحر مصطخب !

وأعاد الرجلان ((الدياك)) على مسمع ((ايزارت)) ماقالاه للخادم حسن .. ولم يكن فى ميسور ايزارت أن يحمل نفسه على الكلام ، اذ كان يشعر بأنه لن يتمالك أن يجهش بالبكاء ، اذا هو حاول ان ينبس بكلمة واحدة !

وساعده حسن فى الصعود الى القارب ، فأخذ الوطنيان يجدفان . وشعر ايزارت بأنه فى أشد الحاجة الى مايدخنه ،

ولكن سجايره وعلبة الثقاب كانت مبتلة فى جيبه .. وخيل اليه أن طريق عبور النهر لايكاد ينتهى ! .. وكان الليل قد حل ، فلما وصلوا الى الضفة الاخرى ، كانت النجوم المبكرة تشع فى السماء . ونزل « ايزارت » الى الشاطىء ، فأخذه أحد الرجلين « الديناك » وذهب به الى المنزل الطويل . أما حسن ، فاخذ المجداف الذى تركه الرجل ، وانطلق بالقارب — بمعونة الرجل الآخر — الى عرض النهر .

* * *

وجاء رجلان أو ثلاثة رجال وبعض الاطفال لاستقبال « ايزارت » . وما لبث أن تسلق صاعدا الى المنزل ، وسط أصوات مختلطة انطلقت بالحديث فى آن واحد ، فكأنه كان فى برج بابل . حتى اذا تسلق السلم ، أقتيد — وسط ايات الترحيب والتعليقات المثيرة — الى المكان الذى كان شبان القرية ينامون فيه عادة . وفرشت الحصائر المصنوعة من الخيزران بسرعة ، فأعد منها فراش أنقى « ايزارت » بنفسه عليه .

وأحضر له أحد الموجودين دنا من العرق ، فشرب جرعة كبيرة ، نزلت فى جوفه وكأنها لهب من نار ، بعد أن كوت حنجرته . ولكنها مالبثت أن بعثت الحرارة فى قلبه . ثم خلع ملابسه ، وارتدى « الساورنج » الذى قدمه له أحد الحضور ولمح — بمحض المصادفة — القمر الاصفر اللون ، وقد بزغ على شكل هلال ارتكز على ظهره ، فبعث مرآه الغبطة والسرور فى نفسه .. **ولم يتمالك أن يفكر فى أنه كان من المحتمل أن يكون الآن جثة طافية على النهر ، يسحبها المد معه !.. وخيل اليه أن القمر لم يبد له يوما بمثل الجمال الذى تراءى له اذ ذاك !**

وبدأ يحس بالجوع ، فذهبت احدى النسوة الى الغرفة لتعد له الارز . وكان قد تمالك نفسه فى تلك الاثناء ، وشرع يفكر

من جديد فى الايضاحات التى سيقدمها فى (كوالا سولور) ..
ورأى أنه لم يكن لاى انسان أن يلومه لانه نام فى القارب ..
ولسوف يؤكد لاولى الامر أنه لم يكن مخمورا ، ولن يتردد هتشينسون فى أن يظاهره على ذلك ! .. ثم ، كيف كان له أن يتصور أن يكون قائد الدفة بمثل هذا الغباء ؟ ! .. ان المسألة كلها كانت مجرد سوء حظ !

ومع ذلك فانه لم يكن يستطيع التفكير فى ((كامبيون)) دون أن يشعر برجفة !

وأخيرا ، قدم اليه طبق من الارز . وبينما كان يهم بتناوله ، دخل رجل مهرولا ، وهو يصيح قائلا : ((لقد حضر السيد الابيض !)) .. فأمسك ايزارت عن الطعام ، وهتف مأخوذا : ((أى سيد ؟ !))

وقفز واقفا .. وسمع هرجا عند المدخل ، فخطا نحوه .
وبرز حسن من الظلام مهرولا صوبه . وعندئذ سمع صوتا يقول :

ـ ايزارت ! .. أأنت هنا ؟

ذلك كان صوت ((كامبيون)) ، الذى تقدم منه وهو يقول :

ـ حسنا ! .. هانحن قد اجتمعنا مرة أخرى . لقد كان منظرا جميلا ، والله .. أليس كذلك ؟ .. الظاهر أنك قد استرحت واستردت جأشك وهدوءك .. وهذا ما سوف تفعله بعد جرعة من الشراب !

وكانت ملابسه المبتلة ملتصقة بجسمه .. كما كان ملطخا بالطمى ، مشعث الهيأة . ولكنه كان فى خير حالاته النفسية ! .. وعاد يقول :

ـ لم أكن أعلم الى أى مكان كانوا يقودوننى .. وكنت قد
رضت [illegible] الضفة

النهر .. وقد ظننت أنك غرقت !

فقال له ايزارت : « هاك بعض العرق ! »

ووضع كامبيون شفتيه على الدن وشرب . ثم غص حلقه، فأخذ يدمدم لحظة ، عاود بعدها الشرب . ثم قال : « ياله من شراب قذر ، ولكن ما أشد مفعوله ! »

ونظر الى ايزارت فى ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنانه المهشمة ، الحائلة اللون ، وقال :

ـ يبدو لى أيها العزيز أن الاستحمام قد يفيدك وينعشك!

ـ سأستحم فيما بعد !

ـ حسنا ! .. وكذلك سأفعل أنا الآخر ، فأرجو أن تطلب منهم احضار « سارونج » لى ! .. ولكن كيف قدر لك أن تنجو من النهر ؟

ولم ينتظر جوابا ، وانما مضى فى حديثه قائلا :

ـ لقد ظننت أننى انتهيت ، ولكنى مدين بحياتى الى هذين الشهمين !

وأشار الى اثنين من المسجونين « الدياك » ، تبين ايزارت انهما كانا ضمن بحارة الزورق .. واستطرد كامبيون فى حديثه:

ـ كانا معلقين على ذلك القارب المنكود ، كل منهما الى أحد جانبى القارب . ولم يكن فى ميسورى اذ ذاك ان أصمد دقيقة أخرى ، فأشارا الى . وفهمت أنهما أرادا أن يقولا أنه كان فى امكاننـا



ان نجازف فنحاول الوصول الى الضفة ، ولكنى لم أكن أعتقد أن لدى القوة الكافية ، فما شعرت فى حياتى قط بمثل هذا الضعف . ولست أدرى كيف دبرا مافعلا ، وانما الذى أدريه هو أنهما حصلا بطريقةما على الحصيرة التى كنا مستلقيين عليها ، وعمدا الى لفها فجعلا منها عمودا .. **والحق أنهما شهمان ، فلست أدرى لم لم ينجوا بنفسيهما دون ان يشغيا بأمرى ؟! .. ولكنهما أعطيانى الحصيرة ، فخيل الى أنها حزام انقاذ ضعيف لايصلح .. غير أننى رأيت بعينى صدق** باحصيرة فعلا ، بينما أحاط بى الرجلان ، وأخذ يجرنني الى **المثل القائل بأن الغريق يتشبث بأيه قشة !** فلقد تشبثت الشاطىء بكل حيلة وسعتهما !

* * *

وكان الخطر الذى نجا منه « كامبيون » قد أشاع فيه انفعالا ، وأطلق لسانه بالثرثرة . ولكن « ايزارت » لم يكن يصغى الى مايقول ، وانما هيأ له خياله أنه كان يسمع من جديد ، تلك الاستغاثة الحافلة بالذعر والهلع ، التى أطلقها كامبيون مستنجدا ، وهما فى النهر .. **وكان الصوت واضحا ، وكأنه لايزال يدوى فى الفضاء المحيط به ، فشعر « ايزارت » بالرعب ، ودب الفزع الاعمى فى جميع أوصاله ! .. وكان كامبيون لايزال ماضيا فى الحديث ، فساءل ايزارت نفسه : أتراه كان يتحدث ليخفى حقيقة ماكان يجول بأفكاره ؟ ..**

وتطلع الى العينين الزرقاوين محاولا أن يقرأ المعانى المستترة وراء هذا السيل المتدفق من الكلام .. وأخذ يسائل نفسه : أفكان فى العينين وميض قاس ، أم كان فيها شىء من السخرية اللاذعة ؟ .. وهل كان « كامبيون » يعرف أن « ايزارت » قد هرب منه ، وتخلى عنه ، وتركه يلاقى مصيره وحيدا ؟

وتضرج وجهه ، ولكنه حاول أن يقنع نفسه بأنه لم يكن

بوسعه أن يفعل شيئا ما . ففى لحظة كهذه ، لا يفكر الانسان الا فى نفسه ، وليأخذ الشيطان الآخرين ! .. ولكن ما الذى سيقوله المسئولون فى (كوالا سولور) ، اذا أبلغهم كامبيون ان ايزارت هجره ؟ ! .. لقد كان من واجبه أن يبقى ، وقد أصبح يود من صميم قلبه لو انه كان قد بقى .. ولكن حكم الظروف — اذ ذاك — كان أقوى من نفسه ، فلم يستطع البقاء .. فهل يلومه أحد ؟!.. لايمكن لاى شخص رأى هذا السيل العرم المخيف ، أن يلومه !

وقال لكامبيون : « اذا كنت جوعانا مثلى ، فمن الخير أن تشاركنى هذا الارز ! »

وأكل كامبيون بسهولة اما ايزارت فانه لم يلبث — بعد أن ملأ فمه مرة أو مرتين — أن تبين أن شهيته للأكل قد ولت .. وكان كامبيون يواصل الحديث ، فأخذ ايزارت يصغى فى شك .. وشعر بأنه يجب أن يكون يقظا متنبها ، فشرب المزيد من العرق . وبدأ يشعر بأنه مخمور قليلا .

ولم يلبث ايزارت أن قال : « سوف أتعرض لفضيحة لعينة عندما نصل الى كوالا سولور ؟ » .. فقال كامبيون : « لست أدرى ما الذى يجعلك تتوقع هذا ! »

— لقد كلفت بأن أعنى بك وأرعاك ، ولن يرى المسئولون أنه كانت براعة منى أن أعرضك لان توشك على الغرق .

— لم يكن ذلك خطأك ، وانما هو خطأ قائد الدفة المغفل للعين .. ثم ان أهم مافى الامر — مع ذلك — هو اننا نجونا .. يا الهى ! .. لقد ظننت مرة أننى هلكت ، فصرخت أناديك .. ولست أدرى ما اذا كنت قد سمعتنى أم لا !

— لا . لم أسمع شيئا ، فقد كانت هناك ضجة كبيرة .. أليس كذلك ؟

— لعلك كنت قد تمكنت من الافلات قبل ذلك .. ولست

أعرف متى قدر لك أن تفلت !

وتطلع اليه ايزارت بحدة. وخيل اليه أن فى عينى «كامبيون» نظرة غريبة ، فقال : « لقد كان ثمة ارتباك شديد .. ورحت أغوص واطفو . ثم ألقى خادمى بمجداف الى ، واوحى الى بأنك كنت على مايرام.. بل قال لى أنك خرجت الى الشاطئ!»

وأمسك « ايزارت » عن الكلام ، وقد فطن الى أمر المجداف ؟ ! .. كان من الواجب عليه أن يعطى المجداف لكامبيون ، وأن يطلب الى حسن – وهو السباح القوى – أن يقدم له المساعدة ! .. ولكن ، أكان الوهم هو الذى اوحى اليه مرة اخرى أن كامبيون كان يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة ، وهو يتكلم ؟

وقال ايزارت : « وددت لو أننى كنت أكثر نفعا لك ! »

– آه ، اننى موقن من أنك كنت فى موقف لايتيح لك سوى العناية بنفسك !

* * *

وأحضر الزعيم اليهمـا كؤوس العـرق ، فشربا معا قدرا كبيرا . وبدأ راس ايزارت يدور ، فاقترح أن يذهبا للنوم . وكان ثمة فراشان قد أعدا لهما ، وبسطت فوقهما كلتان ..

وكان لابد لهما من أن يقلعا مع الفجر ، ليستكملا رحلتهما النهرية .. وكان فراش كامبيون مجـاورا لفراش ايزارت ، فان هى الا دقائق معدودات ، حتى سمع هذا غطيط الاول ، اذ استغرق فى النوم منذ اللحظة التى استلقى فيها على فراشه!

.. فى حين راح شباب المنزل الطويل ، والسجناء – ملاحو الزورق – يقضون شطرا طويلا من يلهم فى السمر .

وشعر « ايزارت » بألم فظيع فى رأسه ، ولم يستطع أن يفكر فى أمره ! .. وعندما أيقظه حسن مع بزوغ الفجر، خيل اليه أنه لم ينم .. وكانت ملابسهما قد غسلت وجفت ، ومع

ذلك فقد كانا فى مظهر رث مزر ، عندما سارا فى الطريق الضيق المؤدى الى النهر ، حيث كان الزورق فى انتظارهما .. وسرعان ما أقلع بهما الزورق يتهادى .. وكان الصباح جميلا ، وتلك المساحة الممتدة امامهما من الماء الهادىء تلمع تحت ضوء البكور .. فهتف كامبيون : « يا الهى ، ما أجمل أن يكون المرء على قيد الحياة ! »

وكان مشعثا ، نامى اللحية .. وراح يعب الهواء فى أنفاس طويلة ، وقد انفرج فمه بعض الشىء ، حتى لتستطيع أن تدرك من منظره أنه كان يجد فى استنشاق الهواء لذة ضافية، ومن ثم فقد راح يستنشقه فى نهم وقوة ليملأ به رئتيه ،وقد بدا مبتهجا بمنظر السماء الزرقاء ، وأشعة الشمس الوضاحة، وخضرة الاشجار اليانعة !

وشعر « ايزارت » نحوه بحقد ، اذ داخله يقين بأن خلقه كان – فى هذا الصباح – مغايرا لما كان عليه من قبل . ولم يكن « ايزارت » يدرى ما ينبغى عليه أن يفعل ! .. ، وتمنى لو انه استطاع أن يلوذ برحمة كامبيون ! .. لقد سلك مسلكا خسيسا مزريا ، ولكنه ندم على ذلك ، وبات على استعداد لان يجود بكل شىء فى سبيل أن تتاح له فرصة جديدة ! .. ومع ان أى امرىء غيره ماكان ليفعل سوى مافعل هو ، الا انه أيقن من أن « كامبيون » خليق بأن يقضى عليه قضاء مبرما ، لو انه كشف عما حدث منه ! .. **انه – اذ ذاك – لن يستطيع البقاء فى (سمبوا) ، وسيغدو أسمه ملطخا بالوحل فى (بورنيو) ومستعمرات المضايق . انه لو اعترف لكامبيون، لكان بوسعه – يقينا – أن يحصل منه على وعد بان يعقل لسانه . ولكن .. أترى كامبيون يبر بالوعد حقا ؟ ! ..**

وأخذ يتأمله : لقد كان رجلا ضئيل الجسم ، مراوغا ، متقلبا ، فكيف يركن اليه ؟ .. وفكر « ايزارت » فيما قاله

« كامبيون » فى الليلة السابقة .. أنه لم يقل الحقيقة فى الواقع ، ولكن منذا الذى يستطيع أن يعرف ذلك ؟ .. أو ، منذا الذى يستطيع — على أية حال — أن يثبت أنه لم يكن يعتقد — مخلصا ، صادقا — أن كامبيون كان قد نجا وصار فى مأمن ؟ ..

ومهما يقل كامبيون فلن يكون هناك غير كلامه ليعارض كلام « ايزارت » ، وفى امكان هذا أن يضحك من أقوال كامبيون ، وأن يهز كتفيه ، وأن يقول ان كامبيون قد فقد صوابه ، فلم يكن يدرى عم يتكلم ! .. ثم انه — فوق هذا — لم يكن موقنا من أن كامبيون لم يصدق روايته ، فما عاد — فى هذا الصراع الرهيب فى سبيل الحياة — يملك أن يوقن من شىء ! .. وكان يشعر برغبة قوية تغريه بالعودة الى الموضوع، ولكنه خشى ان يثير شك كامبيون ، اذا هو فعل ذلك . ومن ثم فقد كان من الواجب عليه أن يحفظ لسانه ، فقد كانت فى ذلك فرصته الوحيدة للنجاة .. حتى اذا عاد الى « كوالا سولور » ، حرص على ان يكون هو البادىء برواية القصة !

وقال كامبيون : « لو اننى وجدت شيئا أدخنه ، لاكتملت سعادتى الآن ! »

— سنستطيع أن نجد بعض السجاير الرديئة ، على ظهر السفينة

— ياللبشر من مخلوقات جائرة !.. لقد فرحت — فى بادىء الامر — لاننى على قيد الحياة ، فلم أفكر عندئذ فى شىء آخر. ولكنى بدأت الآن آسف على ضياع نقودى وصورى وادوات الحلاقة !

وصاغ ايزارت الفكرة التى كانت تقبع فى مؤخر رأسه ولكنه ظل — طيلة الليلة السالفة — يأبى السماح لها بالتسرب الى عقله الواعى .. فاذا بها تتخذ هذا الشكل :

« وودت من الله لو أنه كان قد غرق ، فكنت ـ اذ ذاك ـ أغدو فى أمن وسلامة ؟ !

* * *

وصاح كامبيون فجأة : « هاهى ذى ! »

فنظر ايزرت حوله .. كان القارب قد بلغ مصب النهر . ورأى الباخرة « السلطان احمد » تنتظرهما ، فغاص قلبه عندما تذكر ما كان قد نسيه من أن لهذه السفينة ربانا انجليزيا ، وأنه لابد من أن يعرف قصة مغامرتهما . فما الذى سيقوله كامبيون له ؟



وكان ربان السفينة يدعى « بريدون » ، وقد اعتاد « ايزارت » أن يلتقى به كثيراً فى (كوالا سواور) . وكان رجلا صريحا ، خفيف الروح ، ذا شاربين أسودين . واذ رأى القارب ، صاح بهم يحثهم على سرعة التجديف ، وهو يقول : « هيا .. أسرعوا ، فاننى فى انتظاركم منذ الفجر ! »

ولكنه بهت لمنظر صاحبينا حين صعدا الى ظهر السفينة ، فقال : « عجبا .. ماالذى أصابكما ؟ »

فقال كامبيون وهو يبتسم ابتسامته الماكرة : « أعطنا شرابا ، وسوف تسمع كل شىء ! »

فهتف الربان مشوقا : « هيا .. تعاليا ! »

وجلسوا تحت المظلة، وعلى المائدة زجاجة ويسكي وزجاجات

الصودا . واصدر الربان أمرا ، فان هى الا بضع دقائق حتى اقلعت السفينة ، وانبعث ضجيج محركاتها .

وشعر « ايزارت » بأن عليه أن يقول شيئا . وكان فمه جافا الى حد فظيع ، برغم الشراب الذى احتساه .. وقال أخيرا : « لقد دهمتنا موجة المد ! »

ـ يا الهى هل حدث هذا حقا ؟ .. انكما لسعيدا الحظ لانكما لم تغرقا . فماذا حدث ؟

وكان يوجه الخطاب الى « ايزارت » لانه كان يعرفه . ولكن كامبيون هو الذى تولى الرد ، بينما ظل ايزارت يصغى فى انتباه ! ..

وتحدث كامبيون ـ بضمير الجمع ـ عندما روى الجزء الاول من القصة . ولكنه مالبث أن استخدم ضمير الفرد عندما وصل فى حديثه الى اللحظة التى سقطوا فيها الى الماء .. وبعد أن كان يتحدث عما « كنا نفعله » ، أصبح يتحدث عما « جرى لى » ، مغفلا « ايزارت » فى هذا الجزء من القصة **.. ولم يدر ايزارت أيرتاح الى هذا أم ينزعج ؟ .. لماذا لم يكن يشير اليه بشىء ؟ .. أذلك لانه لم يكن يفكر فى شىء غير نفسه ، خلال ذلك النضال المميت فى سبيل الحياة ؟ أو .. أتراه كان يعرف ؟ ! .. يعرف ماكان من مسلك « ايزارت » فعلا !**

وتحول الربان « بريدون » الى « ايزارت » ـ بعد ذلك ـ فسأله : « وماذا حدث لك أنت ؟ »

وهم « ايزارت » بأن يجيب ، ولكن « كامبيون » سبقه الى الكلام قائلا :

« كنت الى وقت وصولى الى الجانب الآخر من النهر أعتقد انه غرق ! .. ولست أعرف كيف نجا ، بل انى لاعتقد أنه هو نفسه لا يعرف كيف تسنى له هذا ! »

لماذا قال كامبيون ذلك ؟ .. ووقع نظره على عينى كامبيون، فتأكد عندئذ من أن فيهما بريقا ينم عن طرب ! .. وكان من الفظيع حقا أن يجد نفسه غير واثق من أمر كامبيون.. وأحس بالخوف .. وتولاه الخجل . وأخذ يسائل نفسه : ترى هل بوسعه أن يقود دفة الحديث ـ سواء الآن أو فيما بعد ـ بحيث يسأل كامبيون عما اذا كانت هذه هى عين القصة التى يعتزم ان يرويها فى (كوالا سولور) ؟ .. ذلك لانها كانت خالية من أى شىء يثير ظنون أى أحد .. **ولكن ، اذا لم يقدر لاحد أن يعرف الحقيقة، فان ((كامبيون)) كان يعرفها ! .. لكم كان خليقا به أن يقتله !**

وقال الربان : ((أعتقد أنكما سعيدا الحظ جدا ، لانكما مازلتما على قيد الحياة !))

وكانت المسافة الى (كوالا سولور) قصيرة .. وبينما كانت السفينة تمخر مياه نهر (سمبولو) ، أخذ ايزارت يرقب الشاطئين فى كآبة وكمد ، وقد ظهرت على الجانبين الحشائش التى كانت المياه ترتطم بها .. ووراءها كانت ثمة غابة كثيفة خضراء ، وقد تناثرت بين أشجار الفاكهة بعض منازل أهل الملايو .

* * *

وحل الليل عندما ألقت السفينة مرساها . وصعد ((جورنج)) ـ مندوب البوليس ـ الى ظهر السفينة ، فصافحهما . وكان يقيم فى ((الاستراحة)) الحكومية ـ التى كان مقررا أن ينزلا فيها ـ فى تلك الفترة . واذ شرع فى أداء مهمته وتفقد الركاب من أبناء البلاد ، أنبأهما بأنهما كانا مقدمين على لقاء شخص آخر يدعى ((بورتر)) ، فى الاستراحة ، وانهم جميعا سيتقابلون فى وقت العشاء .

وأخذ الخدم يعنون بمتاعهما وينقلونه .. وسار ((كامبيون))

و « ايزارت » الى الاستراحة ، فبادرا الى الاستحمام واستبدال ملابسهما . وفى الساعة الثامنة والنصف ، اجتمع الاربعه فى القاعة العامة لتناول بعض المشروبات !

وقال جورنج وهو يدخل : « ماهذا الذى أخبرنى به « بريدون » من أنكما كنتما موشكين على الغرق ؟ »

فشعر ايزارت بأن وجهه قد تضرج .. وقبل أن يجيب بشىء انبرى « كمبيون » للكلام ، وقد بدا جليا لايزارت انه كان يبغى البدء بالكلام لكى يقدم القصة كما يروق له ! .. وشعر بخجل شديد ، فما من كلمة واحدة انطوت على استخفاف به .. بل ما من كلمة عنه اطلاقا ! .. وساءل نفسه : ألم ير هذان الرجلان اللذان كانا يصغيان ـ جورنج وبورتر ـ مايدعو الى الاستغراب ، لاقصائه عن القصة ، بهذا الشكل ؟ ! .. وراح يتفرس فى « كامبيون » وهو ماض فى سرد القصة .. كان يرويها بروح مرحة ، ولم يحاول اخفاء الخطر الذى كانا فيه ، ولكنه جعل منه موضوع فكاهة وتندر ، حتى ان المستمعين ضحكا من هذا المأزق الذى وجدا نفسيهما فيه !

وقال كامبيون : « والامر الذى يضحكنى ـ منذ ذلك الحين ـ هو اننى عندما خرجت الى الشاطىء الآخر ، كان الطمى يكسونى من رأسى الى أخمص قدمى . وشعرت بأن من الجدير بى حقا أن أقفز الى النهر لاغتسل ، ولكنى شعرت بأننى ـ كما تقرراننى ـ قد قضيت فى هذا النهر اللعين زمنا أطول مما اردت فى أى يوم من أيام حياتى . فقلت لنفسى : « لا بحق السماء ، سأظل متسخا ! » . وعندما وصلت الى البيت الطويل ، ورأيت ايزارت فى الحال ذاتها ، أدركت أنه شعر بعين الشعور الذى خالجنى ! »

فضحكوا ، وأرغم « أيزارت » نفسه على الضحك . ولاحظ أن « كامبيون » روى القصة مستخدما عين الكلمات والتعبيرات

التى استخدمها عندما رواها لربان السفينة «السلطان أحمد» . وادرك أنه لم يكن هناك غير تفسير واحد لهذا ، ذلك هو : ان كمبيون كان يعرف كل شيء ، وقد فكر ودبر القصة التى سيرويها حرفا بحرف ! .. وكان دهاء حسن « كمبيون » أنها فى الدقة فى سرد الوقائع ، وان كان قد أغفل كل شيء من شأنه أن يضير « ايزرت » . ولكن : لماذا كان يمسك يده عن أن يبطش به ؟ .. انه لم يكن من النوع الذى لايشعر بأى سخط أو كراهية نحو الشخص الذى هجره بقسوة فى لحظة الهلاك المريع !

وعلى حين غرة ، أومضت الفكرة فى راس ايزارت ، ففهم جلية الامر .. ان كمبيون كان يحتجز احجيته ليبلغها لعميم « ويلبس » ! .. وارتجف ايزارت عندما فكر فى مراجهة « ويلبس » . صحيح أن بوسعه أن ينكر ، ولكن هل سينفعه الانكار ؟ .. ان ويلبس لم يكن غبيا ، بل انه لن يلبث أن يسأل « حسن » ، ولم يكن بوسع « ايزارت » الاطمئنان الى حسن .. فمن غير المرتقب أن يلتزم الصمت ، بل انه سيفضحه ، وهذا معناه هلاكه .. فسيقترح عليه « ويلبس » ان يعود الى الوطن !

واصابه صداع شديد ، فأوى بعد العشاء الى غرفته ، اذ أراد أن يخلو الى نفسه ليتمكن من تدبير خطة للعمل .. وما لبث أن طرأ بباله خاطر أفزعه : فلقد أدرك ان السر الذى حافظ عليه طويلا ، لم يعد سرا .. لقد أصبح موقفنا من هذا فجأة ! .. لماذا قدر له أن تكون له هاتان العينان البراقتان ، وهذا الجلد الاسمر ؟ .. لماذا يتكلم لغة الملايو بهذه السهولة ، ولماذا تعلم لغة « الدياك » بهذه السرعة ؟ .. انهم يعرفون ولا بد ! .. ماكان اغباه اذا كان قد فكر يوما فى أنهم قد صدقوا تلك القصة التى ابتكرها عن جدته الاسبانية ! .. لابد

أنهم ضحكوا ملء أشداقهم عندما روى لهم هذه القصة ، ولعلهم كانوا يسمونه – من وراء ظهره – بازنجى اللعين !

وطرأ له خاطر آخر عذبه ، فراح يسائل نفسه : ابسبب هذه القطرة الملعونة من الدم الوطنى – التى تجرى فى عروقه – خانته أعصابه ، عندما صاح « مبيون » يطلب نجدته ؟ .. ان أى شخص قد يصاب بالهلع فى لحظة كتلك اللحظة التى خبرها ، على أية حال !.. ولم ، بحق السماء يضحى بحياته لينقذ حياة شخص آخر لا يهمه امره اطلاقا ؟ .. انه من الجنون أن يفعل هذا . ولكنهم – بطبيعة الحال – سيقولون فى (كوالا سولور) ان هذا ما كانوا يتوقعونه !

وأخيرا ذهب الى الفراش ، ولكنه اخذ يتقلب فيه بقلق وتعب . وقضى على هذه الحال فترة لايعلم مداها الا الله ، ثم غلبه النعاس – اخيرا – فنام . ولكنه لم يلبث أن صحا مفزوعا بعد حلم رهيب . فقد تراءى له فى المنام انه أصبح – مرة أخرى – وسط تلك الموجات العاتية ، وأن الزورق كان يدور ويدور .. وكان بعد ذلك التشبث المستيئس بقاع الزورق ، والحزن والألم عندما أفلت القاع من يديه ، بينما كان الماء يصطخب حوله وفوقه !

* * *

واستيقظ « ايزارت » قبيل الفجر .. كانت فرصته الوحيدة هى أن يرى « ويليس » ليكون السباق الى رواية قصته . وأخذ يفكر بعناية فيما يعتزم أن يقول ، ويختار الكلمات التى يريد أن يستخدمها بالنص !

وغادر فراشه مبكرا .. وبارح المنزل دون أن يتناول فطورا ما ، لكى يتجنب مقابلة ((كامبيون)) .. وسار فى الطريق العام . وظل يسير الى الوقت الذى كان يعرف أن المقيم يكون فيه فى مكتبه . واذ ذاك عاد أدراجه .. وأرسل اسمه ،

فسمح له بدخول مكتب « ويليس » .. وكان « ويليس » شيخا متقدما فى السن ، ذا شعر أشيب خفيف ، ووجه شاحب مستطيل . وقد بادر ايزارت وهو يصافحه : « اننى مسرور اذ أراك قد عدت سالما معافى .. ولكن ، ماهذا الذى سمعته من انكما كنتما على وشك الغرق ؟! »

وكان أيزارت بملابسه النظيفة يبدو فى مظهر الرجل الانيق، وقد نسق شعره الاسود بدقة ، وقص أطراف شاربيه بعناية . وكان يقف منتصب القامة فى مظهر عسكرى .. ورد على ويليس بقوله : « **لقد رأيت أنه يحسن بى أن آتى فأبلغك الامر فورا ياسيدى ، لانك عهدت الى بان أرعى كامبيون ! »**

ـ هات ماعندك !

وروى ايزارت قصته ، فخفف من مدى الخطر الذى تعرضا له ، وحمل « ويليس » على أن يفهم ان ذلك الخطر لم يكن بالغا ، وانهما ماكانا يتعرضان لاى شىء ، لولا أنهما شرعا فى الرحلة متأخرين !

ومضى ايزارت يقول : « **ولقد حاولت أن أحث كامبيون على بدء الرحلة فى ساعة مبكرة ، ولكنه آثر أن يشرب كأسين أو ثلاثا . والواقع انه لم يكن يبغى أن يتحرك ! »**

ـ هل كان مخمورا ؟

ـ لا أعرف ، وان كنت لا أملك ان أقول أنه كان فى كامل وعيه !

ومضى يسرد قصته . وحاول أن يوحى بأن كامبيون كان قد فقد وعيه ـ بعض الشىء ـ تحت تأثير الخمر . وقال انها كانت مهمة فظيعة ـ فى الواقع ـ بالنسبة لشخص لم يكن يجيد السباحة ، وأنه ـ أى ايزارت ـ كان أكثر اهتماما به من نفسه ، وقد عرف أن الفرصة الوحيدة هى فى الاحتفاظ

بالهدوء ورباطة الجاش . ولكنه ـ عندما وقعت الواقعة ـ رأى كامبيون يخور وينهار !

فقال المقيم : « لا تستطيع أن تلومه على هذا ! »

ـ لقد بذلت ، بطبيعة الحال ، كل ما فى وسعى ياسيدى . غير أننى لم أكن أملك شيئا كثيرا من أجله !

ـ حسنا .. المهم هو أنكما نجوتما .. لو أنه غرق ، لكان الامر جد محرج لنا !

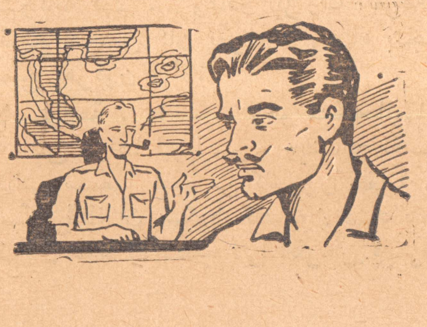
ـ لقد رأيت أنه من الخير أن آتى لأبلغك جميع الحقائق قبل أن تقابل « كامبيون » ياسيدى ، لأنه ـ كما تراءى لى ـ يميل الى المبالغة فى رواية القصة . ولكن .. ما من فائدة فى المبالغة !

فقال ويليس باسما : « ان روايتيكما تكادان أن تتطابقا فى مجموعهما ! »

فتفرس « ايزارت » فيه مأخوذا . واذ ذاك قال له ويليس :

ـ ألم تر « كامبيون » هذا الصباح ؟ .. لقد سمعت من « جورنج » أنكما صادفتما بعض المتاعب ، فعرجت على الاستراحة بنفسى فى الليله الماضية ـ وأنا فى طريقى الى ذرى من القلعة ـ بعد العشاء .. وكنت أنت قد ذهبت الى الفراش!

وشعر ايزارت برجفة تسرى فى جميع جسمه ، وقدبذل



جهدا كبيرا للمحافظة على تماسكه ، وقال ويليس :
ـ وعلى فكرة .. انك خرجت من الماء قبل كامبيون ، أليس كذلك ؟
ـ **لست ادرى ياسيدى فى الواقع ، فقد كان الارتباك بالغا !**
ـ لابد أن تكون قد خرجت قبله ، مادمت قد ذهبت الى الجانب الاخر قبله !
ـ **أظن اننى فعلت ذلك !**
ونهض ويليس واقفا وهو يقول : « حسنا .. وشكرا لك اذ حضرت لانبائى بما حدث ! »
وكان قد تعمد أن يوقع بعض الكتب ـ وهو ينهض ـ فسقطت على الارض بصوت مرتفع ، مفاجىء .. فاذا بايزارت يجفل بعنف ويشهق . واذ ذاك ، رماه المقيم بنظرة سريعة ، وقال : « أرى أن أعصابك مضطربة للغاية ! »
ولم يستطع ايزارت السيطرة على الرجفة التى اصابته ، ودمدم يقول :
ـ **اننى جد آسف يا سيدى !**
ـ أظنك قد أصبت بصدمة ، ومن الخير أن ترتاح بضعة أيام ، وتذهب الى الطبيب ليعطيك شيئا من العلاج !
ـ **اننى لم أنم جيدا فى الليلة الماضية !**
فأومأ المقيم وكأنه فهم .. وغادر ايزارت الغرفة . وبينما هو سائر ، قابله شخص كان يعرفه ، وهنأه بنجاته . اذن فقد كان الجميع يعرفون ؟ ! ..
وعاد الى الاستراحة . وأخذ ـ وهو متجه اليها ـ يعيد لنفسه القصة التى رواها ليويليس ، ويسائل نفسه : أكانت تشبه القصة التى سمعها المقيم من كامبيون حقا ؟ .. **ولم يكن قد خطر بباله قط أن يكون كامبيون قد سبقه لابلاغ القصة .. لكم كان غبيا اذ ذهب الى الفراش مبكرا وكان من**

الواجب الا يدع ((كامبيون)) يغيب عن نظره ! .. ولكن لماذا أصغى بأيه اهتمام — فى بادىء الامر — دون ان يبلغه انه عرف بالقصه فعلا ؟ .. واحد يلعن نفسه لانه اوحى بان كامبيون كان مخمورا فاقد الرشد .. لقد قال هذا ليحط من قدره ، ولكنه تبين الآن انه كان غبيا فى هذا .. ولماذا قال ويليس تلك العبارة التى توحى بأنه خرج من الماء قبل كامبيون ؟ .. لعله كان يريد التحرى ، فقد كان ويليس ماكرا وداهية !

ولكن ، ترى ما مدى قوة كامبيون ؟ .. يجب أن يعرف ذلك ، ويجب أن يعرفه بأيه وسيلة ، ومهما يكن الثمن !

وكان رأس ((ايزارت)) يغلى ويفور ، حتى انه شعر بأنه لم يكن يستطيع السيطرة على افكاره . ولكن الواجب كان يقتضيه أن يلتزم الهدوء ! .. وشعر بأنه أشبه بحيوان مطارد . فما كان يصدق أن ويليس يحبه ، اذ انه سبق أن وبخه فى المكتب — مرة أو مرتين — لاهماله .. ولعله لم يكن ينتظر الا ريثما يجمع المعلومات والحقائق .. وكاد ايزارت أن يجن !

* * *

ودخل الى الاستراحة فوجد كامبيون يجلس فى مقعد طويل ، باسطا ساقيه ، وهو يقرأ الصحف التى وصلت خلال فترة غيابهما فى الادغال . وشعر ايزارت بموجه من الكراهية العمياء تطغى عليه ، عندما تفرس فى هذا الرجل الضئيل ، الرث ، الذى كان يقبض عليه فى فراغ كفه !

وعندما رآه كامبيون صاح مرحبا : ((هالو .. أين كنت ؟))

وخيل لايزارت انه رأى فى عينيه نظرة تطفح بسخرية لاذعة ، فشد قبضتى يديه ، وأخذ تنفسه يزداد سرعة وتهدجا .. وسأل كامبيون بحدة : ((ماالذى قلته لويليس عني ؟))

وكانت اللهجة التى ألقى بها هذا السؤال المفاجىء حادة الى درجة جعلت كامبيون ينظر اليه فى دهشة ويقول : « ماأرانى قد قلت شيئا كثيرا عنك .. ولكن ، لماذا تسألنى ؟ »

— لقد أتى الى هنا فى الليلة الماضية ..

وكان « ايزارت » ينظر اليه وقد ضم حاجبيه فى غضب ، وأخذ يحاول قراءة افكار كامبيون ، الذى قال :

— لقد ابلغته انك كنت تشعر بصداع فذهبت الى الفراش .. وكأن يريد أن يعرف ما حدث لنا !

— لقد رايته منذ برهة !

وأخذ « ايزارت » يسير روأحا وجيئة ، فى الغرفة الكبيرة الظليلة . فمع أن الوقت كان مبكرا ، الا أن الشمس كانت شديدة الحرارة ومتوهجة .. وشعر « أيزارت » بأنه وقع فى شبكة صياد ، فأعماه الغضب ! .. وكان فى استطاعته أن يقبض على عنق كامبيون ويشدد الضغط عليه حتى يخنقه ، ولكنه شعر بأنه مسلوب القوة ، لانه لم يكن يعرف ما الذى ينبغى أن يكافحه ! .. واحس بنفسه عاجزا .. كان متعبا ، ومريضا . وكانت أعصابه مهتزة ، مختلة ! .. وعلى حين فجأة ، فارقه الغضب الذى منحه نوعا من القوة ، فشعر باليأس والقنوط ، وكأن الذى كان يجرى فى عروقه ماء وليس دما . **وغاص قلبه بين ضلوعه ، وتخاذلت ركبتاه ، وشعر بأنه اذا لم يتمالك نفسه ، فقد ينخرط فى النحيب .. فقد كان فى أشد الحزن على نفسه !**

وصاح بلهجة تثير الرثاء والاسى : « عليك اللعنة ! .. الا ليت نظرى لم يقع عليك قط ! »

فسأله كامبيون فى دهشة : « ماالذى جرى بحق السماء ! »

— دع عنك الادعاء ، فقد ظللنا يومين ندعى ماليس حقيقة! .. لقد ضقت ذرعا بهذا !

واخذ صوته يعلو فى نبرة رفيعة حادة ، فبدا غريبا أن يصدر من مثل ذلك الرجل القوى ، الكبير . ومضى يقول .

ـ لقدضقت ذرعا بهذا ..أجل لقد تخليت عنك ، وهربت من نجدتك .. تركتك تغرق ! .. وانى لاعرف أنى تصرفت تصرف الجبناء ، ولكنى لم أكن أملك أن أقاوم !

ونهض كامبيون ببطء من المقعد ، وقال : « ما الذى تتحدث عنه ؟ »

وكانت لهجته تنم عن دهشة حقيقية .. مما جعل ايزارت يجفل ، ويشعر برعدة باردة تسرى فى فقاره . وقال :

ـ عندما صرخت تطلب النجدة ، كنت أنا فى ذعر بالغ ، فلم اتمالك أن تشبثت بالمجداف ، وحملت حسنا على أن يساعدنى على النجاة !

ـ كان هذا أحكم ما تملك أن تفعله !

ـ لم يكن فى وسعى ان أساعدك .. ولم يكن هناك ما استطيع أن افعله !

ـ طبعا لم يكن ثمة ماتستطيع أن تفعله لى ، ولقد كان غباء مزريا منى ان صحت طالبا النجدة ، اذ ان الصراخ كان تبديدا للتنفس ، وهو الشىء الوحيد الذى كنت بحاجة اليه !

ـ هل تريد أن تقول انك لم تكن تعرف بتصرفى ؟

ـ عندما قدم لى البحارة الحصير ، كنت أظن أنك مازلت متشبثا بالزورق ، واعتقدت أننى سأنجو قبلك !

فوضع ايزارت يديه على رأسه ، وصاح فى ألم ويأس :

ـ يا الهى ، أى غبى كنته ؟

* * *

ووقف الرجلان برهة ، يتفرس كل منهما فى الآخر . وبدا كأنما لانهاية للصمت الذى سيطر عليهما . وأخيرا قطعه ايزارت ، اذ قال لكامبيون : « وماذا تراك فاعلا الآن ؟ »

ـ لا تقلق ياعزيزى .. لقد كنت أنا الآخر من الذعر بدرجة لا تجعلنى ألوم أى واحد يهز الخوف كيانه .. وان اقول شيئا لاى مخلوق !

ـ أجل ، ولكنك تعلم بما كان منى !

ـ اننى أعدك ، وبوسعك أن تثق بى .. هذا فضلا عن ان مهمتى هنا قد انتهت ، وسأعود الى الوطن .. اننى أعتزم أن ألحق بأول سفينة مسافرة الى (سنغافورة)

وسادهما الصمت من جديد .. وأخذ كامبيون يتأمل ايزارت برهة ثم قال : « هناك شيء واحد اود ان أطلبه منك .. لقد اكتسبت هنا عددا كبيرا من الاصدقاء ، وهناك أمر او أمران أرانى مرهف الحساسية ازاءهما . فعندما تروى قصة مغامرتنا ، أكون ممتنا لك اذا أنت لم تذكر أننى سلكت مسلكا مشينا .. فلست أود أن يعرف الناس هنا أنى فقدت أعصابى ! »

وتضرج وجه ايزارت واحتقن بالدم .. وتذكر ما قاله للمقيم ، فبدا له الامر كما لو أن كامبيون كان عندئذ واقفا وراءه ينصت الى حديثه . فسعل ليجلو حلقه ، وقال : « لست أدرى لماذا تظن أننى سأفعل ذلك ! »

وتهلل وجه كامبيون وشع بريق لاغتباط فى عينيه الزرقاوين واجاب فى ابتسامة أظهرت أسنانه المهشمة المعدومة اللون يقول :

ـ خيط من الدم الاصفر ! .. اليك سيجارة يا صديقى العزيز !

انتصار قاتل!

(ماكنتوش)



MACKINTOSH



خاض ماء البحر لبضع دقائق ، اذ كان من الضحل بحيث لم يكن بوسعه السباحة فيه ، كما انه لم يكن يستطيع أن يمضي الى عرض البحر ، خوفا من أسماك القرش .. وما لبث ان خرج الى البر ، وسعى الى الحمام ، يغتسل تحت المرذاذ (الدوش) . فاذا برودة الماء المنساب تنعشه ، بعد لزوجة الماء الملح الثقيل .. **ماء المحيط الهادى ، الذى كان من الدفء — رغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السابعة صباحا — بحيث أن الاستحمام فيه لم يكن لينشط بدنك ، وانما كان خليقا بأن يزيد خمولك !**

وعندما جفف بدنه ، واندس فى ثوب الحمام ، صاح منبها الطاهى الصينى الى أنه لن يلبث أن يكون متأهبا للفطور ، بعد خمس دقائق . ثم سار حافيا ، مجتازا الرقعة التى كان ينمو فيها العشب الخشن ، والتى كان « ووكر » — المدير (المأمور) — يزهو بها ويرى انها مرج أخضر .. وبلغ مسكنه ، فارتدى ملابسه . ولم يستغرق هذا منه وقتا طويلا ، اذ انه لم يرتد غير قميص وسروال (بنطلون) من الكتان . ثم يمم — بعدذلك — شطر دار رئيسه ، فى الجانب الآخر من الفناء ، فقد اعتاد الاثنان أن يتناولا وجبات الطعام سويا . ولكن الطباخ الصينى قال له — فى هذه المرة — ان « ووكر » خرج

راكبا جوادا ، فى الساعة الخامسة ، ولم يكن من المنتظر أن يعود قبل ساعة أخرى .. **ولم يكن « ماكنتوش » قد حظى بنوم هادىء منتظم ، فأخذ ينظر – بغير شهية – الى الفطور الذى وضع أمامه !**

كان البعوض قد أقض مضجعه فى تلك الليلة ، وكاد يذهب بعقله . اذ راح يحوم حول الكلة (الناموسية) – التى كان ماكنتوش ينام تحتها – بكثرة بالغة ، حتى لقد كان طنينه المزعج الكئيب، أشبه بنغمة متهالكة رتيبة ، صادرة عن أرغول فى بقعة نائية . وكان ماكنتوش – كلما غلبه النعاس – لايلبث أن يستيقظ فجأة فى فزع ، وهو يعتقد أن بعوضة قد نفذت الى داخل الكلة . وكان الطقس حارا ، فنام عاريا ، وظل يتقلب على جنبيه ، وهو يسمع هدير الامواج وصوت تكسرها على الشاطىء بانتظام رتيب ، غير منقطع ، لم يكن يفطن اليه من قبل .. بل ان رتابته أخذت تدق اعصابه المتعبة دقا .. وراح يتجلد – وقد تقلصت قبضتاه – ويحاول جاهدا تحمل هذا العذاب . **ولكنه وجد من المستحيل عليه أن يحتمل مجرد التفكير فى أنه ما من شىء يستطيع أن يوقف هذا الصوت، بل أنه سيظل كذلك الى ما لا نهاية !.. وعندما كان يخال أن قواه تستطيع الصمود لقوى الطبيعة القاسية ، كانت تجتاحه رغبة جنونية فى أن يقدم على عمل عنيف ! ..**

وشعر ماكنتوش بأن عليه أن يسيطر على أعصابه ، والا انتهى الامر به الى الجنون ، فنهض عن المائدة ، وسار الى النافذة ، حتى اذا رمى ببصره نحو الشاطىء ، ورأى خط الزبد الذى يميز حافته ، أحس برعدة تجرى فى أوصاله ، كراهية لهذا المنظر الواضح المنبسط ! .. وكانت السماء الصافية أشبه بوعاء مقلوب ! .. وأشعل غليونه ، وراح يعبث بكومة الصحف التى وردت من (آبيا) منذ بضعة أيام ..

كانت أحدث هذه الصحف قد صدرت منذ ثلاثة أسابيع، وكان مظهرها يبعث على السأم والملل !

وقصد — بعد ذلك — الى « المكتب » .. وكان عبارة عن غرفة كبيرة عارية ، ضمت مكتبين وأريكة امتدت فى احد جوانب الغرفة .. وقد جلس عليها — اذ ذاك — بعض الاهالى ، وبينهم سيدتان . وكان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ، فى انتظار « المدير » . وقد وصل « ماكنتوش » ، بدروه بالتحية فحياهم بدوره ، ثم جلس الى مكتبه ، وبدأ يكتب مستكملا تقريرا طلبه محافظ (ساموا) مررا ، ولكن «ووكر» أهمل اعداده كعادته .. وبينما عكف ماكنتوش على تدوين ملاحظاته ، فطن — فى حقد وتشف — الى أن تلكؤ « ووكر » فى كتابة التقرير ، انما كان راجعا الى جهله . والواقع انه كان من الجهل بدرجة جعلته يتحاشى أى عمل له صلة بالاقلام والاوراق ! .. ومع هذا ، فانه لن يحجم — اذا ما انتهى ماكنتوش من اعداد التقرير ، فى دقة وعناية — عن أن يتقبله منه ، كما يتقبل الرئيس عملا مفروضا على مرؤوسه .. دون كلمة تقدير ! بل انه ربما تقبله بشىء من التجهم ، أو بكلمة لاذعة ، ثم لن يلبث أن يرسله الى السلطات وكأنه من وضعه هو وانشائه ، وان لم يكن قد كتب كلمة واحدة منه — فى الواقع — وما كان بوسعه أن يكتب !.. ولقد لاحظ ماكنتوش — بشىء من السخط — أن رئيسه كان يعمد — فى الحالات التى يرى أن يضيف فيها عبارة ما — الى التعبير عنها بأسلوب كأسلوب الاطفال ، وبلغة كلها أخطاء ! .. فاذا ما أراد ماكنتوش اصلاح الخطأ ، أو اعادة صوغ العبارة لتصبح مفهومة ، ثار « ووكر » وصاح قائلا : « فيم تعنينى قواعد اللغة ، بحق الجحيم ؟ .. هذا هو ما أريد أن أقوله ، وهذه هى الطريقة التى أريد أن أقوله بها ! »

ووصل « ووكر » أخيرا ، فما ان دخل المكتب ، حتى أحاط به الاهالى محاولين الظفر باهتمامه . ولكنه تحول اليهم ، فأمرهم بغلظة أن يجلسوا ولا ينطقوا بكلمة ، منذرا بأنه سيأمر بطردهم — اذا لم يلزموا الهدوء — وبأن يمتنع عن مقابلة أحد منهم فى ذلك اليوم . ثم أومأ الى ماكنتوش ، قائلا: **« هالو ماك ! .. هل استيقظت أخيرا ؟ .. لست أدرى كيف يمكنك أن تضيع خير فترة من النهار مستلقيا فى الفراش ، وكان خليقا بك أن تستيقظ قبل الفجر مثلى ، أيها الكسول!»**

والقى بنفسه على المقعد — فى تهالك — ومسح وجهه بمنديل كبير ، وقال : « آه يا الهى ! .. اننى ظمآن ! » . والتفت الى الشرطى الواقف بالباب ، والذى كان يبدو بديع الشكل فى سترته البيضاء ، و « اللافا لافا » .. ذلك المئزر من القماش الذى يلفه أهل جزر (ساموا) حول أردافهم .. وطلب اليه أن يحضر « الكافا » . وكان وعاء شراب « الكافا » موضوعا على الارض — فى أحد أركان الغرفة — فملأ منه الشرطى قدحا صنع من نصف قشرة « جوزة الهند » ، وقدمه لووكر، الذى أراق بعض قطرات منه على الارض ، وغمغم موجها الى الحضور الدعوة المألوفة — على سبيل المجاملة — ثم احتسى « الكافا » باستمراء ، وطلب من رجل البوليس ان يقدم الشراب الى القوم الذين كانوا فى انتظاره . فدارت قشرة « جوز الهند » عليهم واحدا بعد آخر ، بترتيب عمره ، أو قيمته .. وكان كل منهم يفرغها بالطريقة ذاتها !

وانصرف بعد ذلك الى عمله اليومى .. وكان ضئيل الجسم ، أقصر بكثير من الطول المتوسط .. بدينا ، مكتنز الوجه ، حليق الذقن ، ذا خدين ترهلا على الجانبين متدليين ، فكأنه أوتى ثلاث ذقون كبيرة . وكانت قسمات وجهه الصغيرة تذوب فى كتل من الشحم . وفيما عدا هلال من الشعر الابيض — فى مؤخر رأسه — كان أصلع تماما .. وكان منظره

يذكرك بالمستر « بيكويك » . فقد كان غريب الشكل . . وكان طروبا يحب الضحك . ومع ذلك ، فانه - للعجب - لم يكن يخلو من مهابة ! . . وكانت عيناه الزرقاوان تومضان - من خلف منظاره ذى الاطار الذهبى - بأشعة الذكاء والمرح . كما كانت ترتسم على وجهه امارات العزيمة القوية . وكان فى الستين من عمره ، ولكن حيويته الاصيلة انتصرت على شيخوخته . . وبرغم ضخامته ، كان خفيف الحركة ، يمشى بخطوات ثقيلة ثابتة ، وكأنه يريد أن يهز الارض بثقله . . كما كان يتكلم بصوت عال ، خشن .

* * *

وكان قد انقضى عامان على تعيين « ماكنتوش » مساعدا لووكر . ولقد كان « ووكر » ، الذى ظل ربع قرن مديرا - (مأمورا) لتالوا - وهى من أكبر الجزر فى مجموعة جزر (ساموا) - معروفا فى طول البحار الجنوبية وعرضها ، سواء بشخصه أو بالانباء المتناقلة عنه . لذلك فان ماكنتوش راح يتطلع - فى فضول متلهف - الى أول لقاء به . وقد مكث فى (آبيا) أسبوعين - لسبب أو لاخر - قبل أن يتولى منصبه ، فسمع فى فندق « شابلن » ، وفى النادى الانجليزى ، قصصا عديده عن المدير . ولقد اصبح يسخر من نفسه كلما تذكر اهتمامه بهذه القصص ، التى سمعها مائة مرة - منذ ذلك الحين - من « ووكر » نفسه . . اذ كان « ووكر » يعرف انه شخصية ذات شأن ، وكان يزهو بشهرته ، ويتعمد أن يكون أهلا لها . . كان غيورا على « الاسطورة » التى نسجت حوله ، تواقا الى أن تعرف التفصيلات الدقيقة لاى من هذه القصص التى كانت تروى عنه . وكان يغضب كل الغضب من أى شخص يرويها للأغراب بشىء من التحريف !

وكان « ووكر » يتسم بلون من الود المقترن بالخشونة ،

والذى لم ير « ماكنتوش » فيه بأسا ، فى بادىء الامر . لهذا اغتبط « ووكر » اذ وجد فيه مستمعا سيكون كل ما يقول له جديداً عليه ، فأفرغ له خير ما فى جعبته . وكان بشوشا ، صادق الود ، حفيا .. وكان « ماكنتوش » قد عاش فى طمأنينة ودعة الموظف الحكومى – فى لندن – حتى بلغ الرابعة والثلاثين ، ثم أصيب بالتهاب رئوى تركه مهدداً بالسل ، فاضطر الى البحث عن منصب فى المحيط الهادى .. لذلك خيل اليه أن حياة « ووكر » كانت شاعرية ، عجيبة . فان المغامرة التى بدأ بها كفاحه ضد الظروف ، كانت مثالا لروحه وشخصيته . فقد هرب الى البحر عندما كان فى الخامسة عشرة من العمر ، وظل أكثر من عام يحمل الفحم على سفينة لنقل الفحم . وكان صبيا ضئيل الجسم ، فترفق به البحارة وعمال السفينة ، ولكن الربان شعر نحوه – لسبب غير معروف – بكراهية ضارية . فكان يقسو فى معاملته ، حتى ان الصبى كثيراً ما كان يفتقد النوم لكثرة ما كان يضرب ويركل ، ويروح الالم يفرى أطرافه . ومن ثم فقد حقد على الربان من كل قلبه . وقد حدث – ذات مرة – ان تحمس لجواد كان مزمعا أن يجرى فى سباق الخيل ، فسعى حتى اقترض خمسة وعشرين جنيها من صديق التقى به فى (بلفاست) ، وقامر بها كلها على هذا الجواد الذى كان ضعيف الامل فى الفوز . ولم يكن لديه من الموارد ما يمكنه من السداد ، ولكنه لم يتصور قط انه قد لايربح ، وانما شعر بأن الحظ معه! .. وقد ربح الجواد فعلا ، وكسب « ووكر » أكثر من ألف جنيه نقداً وعداً ، فشعر بأن الفرصة قد واتته . وبحث عن خير محام فى المدينة – وكانت ناقلة الفحم راسية عند مكان ما من الشاطىء الايرلندى – وقصد اليه ، وأبلغه بأنه سمع أن السفينة معروضة للبيع ، وطلب اليه أن ينوب عنه فى السعى لشرائها ..

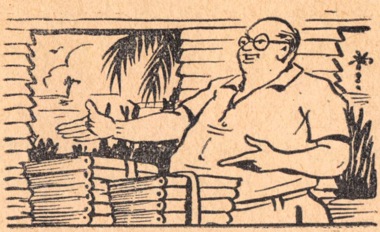
واهتم المحامى بهذا العميل الصغير ، الذى لم يكن — اذ ذاك — قد تجاوز السادسة عشرة ، ولم يكن يبدو أنه بلغها .. ولعل العطف دفعه الى أن يعده ، لا بتدبير الامر له فحسب ، بل وبالعمل على أن تكون الصفقة طيبة . وبعد فترة قصيرة ، وجد « ووكر » نفسه مالكا للسفينة ، فعاد اليها ، ونعم بما كان يصفه بأنه « أروع لحظة فى حياته » . وذلك عندما أنذر الربان وأمره بمغادرة السفينة فى غضون نصف ساعة ، ثم عين مساعد الربان فى مكانه ، وظل يمخر البحار بناقلة الفحم تسعة أشهر أخرى ، ثم باعها ببعض الربح !

وذهب الى جزر (ساموا) وهو فى السادسة والعشرين ، فعمل مزارعا ، وكان أحد البيض القلائل الذين استقروا فى (تالوا) خلال عهد الاحتلال الالمانى . وكان قد اكتسب بعض النفوذ بين الاهالى ، فعينه الالمان فى المنصب الذى ظل يشغله عشرين عاما . **وقد عزز مركزه فى الوظيفة عندما استولى البريطانيون على الجزيرة ، فحكمها بالشدة ولكنه أصاب نجاحا تاما . فكان هذا النجاح سببا آخر من أسباب اهتمام ماكنتوش بأمره !**

بيد انه لم يقدر لهذين الرجلين أن يتفقا .. كان ماكنتوش قبيح الصورة ، غير متناسق القسمات ، طويل القامة ، نحيفا ، ذا صدر ضيق ، وكتفين محدودبتين ، وخدين غائرين ، وعينين واسعتين كئيبتين . وكان مشغوفا بالقراءة ، وعندما وصلت كتبه وفض أربطتها وأخرجها من أغلفتها ، دخل عليه « ووكر » ، فتأملها ثم تحول اليه قائلا ، وهو يطلق ضحكة نابية : « لاى شىء جلبت كل هذه التوافه .. بحق الجحيم ؟ » .

فتجهم وجه ماكنتوش وقال : **« يؤسفنى أن تراها توافه . لقد أحضرت كتبى لاننى أريد أن أقرأها ! »**

— عندما قلت انك ستأتى بكثير من الكتب ، ظننت ان سيكون بينها ما يروق لى . أفليست لديك قصص بوليسية ؟



– ان القصص البوليسية لا تلذ لى !

– انك لغبى مأفون ، اذن !

– انني أقنع بأن تظنني كذلك !

وكان كل بريد يحمل الى «ووكر» من (نيوزيلندا) كميات كبيرة من المجلات الادبية والصحف ، ومن (أمريكا) مجلات أخرى . وقد أسخطه أن يظهر ماكنتوش ازدراءه بهذه النشرات القصيرة العمر . ولم يكن صبره يحتمل الكتب التى كانت تشغل جميع أوقات فراغ ماكنتوش . ولما لم يكن قد تعلم قط أن يكبح جماح لسانه ، فقد عبر عن رأيه بصراحة لمساعده . وبدأ ماكنتوش يعرف الرجل على حقيقته ، فرأى أنه كان يخفى تحت مظهر الطيبة والبشاشة خبثا سوقيا مكروها ، وانه كان مغرورا متغطرسا . والغريب انه كان – بجانب هذا – على نوع من الحياء جعله يكره الذين ليسوا من طرازه . وكان يحكم على الاخرين بلغتهم ، فاذا خلت من الايمان الصاخبة ، والقحة التى تؤلف الجزء الاكبر من حديثه ، نظر الى المتحدثين فى ارتياب . وكان الرجلان يلعبان الورق فى المساء . **وما كان ((ووكر)) بالماهر فى اللعب ، ولكنه كان مدعيا ، يسخر من خصمه عندما يكسب ، ويفقد صوابه اذا خسر ! ..** وكان يفد عليهما – فى مناسبات نادرة – زوج من المزارعين أو

استجار ، ليلعبا معهما « البريدج » . واذ ذاك ، كان «ووكر» يتجلى تحت ضوء مميز . فكان يلعب دون أن يأبه بزميله ، ويصيح فى لعبه ، ويجادل بلا انقطاع ، ويطغى على أية معارضة بارتفاع صوته . وكان لايفتأ يرجع عن لعبة لعبها ، فاذا فعل ذلك قال فى عواء مستعطفا : « آه ! .. ماأراكم ستحسبون هذه على رجل مسن لايكاد يرى ! » . **فهل كان يعرف أن غرماءه كانوا يرون الخير فى أن يرضوه ، ومن ثم فانهم كانوا يحجمون عن التشبث بأصول اللعب ؟**

وكان « ماكنتوش » يراقبه فى ازدراء جليدى . فاذا ما انتهى اللعب ، كانوا يشرعون فى رواية النوادر ، أثناء تدخين غلايينهم واحتساء الويسكى . وكان « ووكر » يروى — فى تلذذ — قصة زواجه . فقد أفرط فى الشراب فى حفلة زفافه ، حتى لقد اضطرت العروس الى الفرار ، فلم يرها قط بعد ذلك . **وكانت له مغامرات لا حصر لها .. مغامرات وضيعة ، ودنيئة ، مع نسوة الجزيرة . وكان يرويها بشىء من الزهو ، فكانت قحته فى الحديث تؤذى اذن ماكنتوش المرهفة الحس ..** كان كهلا بليد الاحساس ، شهوانيا . وكان يرى فى ماكنتوش زميلا مسكينا ، لانه كان يرفض مشاركته فى مغامراته الغرامية الرعناء ، ولانه كان يظل محتفظا بجميع حواسه ، بينما يكون بقية الحضور قد ثملوا !

كذلك كان يزدرى ماكنتوش لما كان يؤدى به عمله الرسمى من نظام دقيق . والواقع أن ماكنتوش كان يحب أن يؤدى كل شىء على هذا النسق . وكان مكتبه منظما على الدوام ، وأوراقه مرتبة بعناية دائما ، حتى لقد كان فى استطاعته أن يمد يده فتقع على أية وثيقة مطلوبة ، كما كان يضع فى متناول يده كافة اللوائح والنظم اللازمة لتأدية أعمالهما الادارية . **فكان ووكر يقول له : « بخ ! بخ .. لقد أدرت هذه الجزيرة عشرين عاما بغير الاجراءات الرسمية العقيمة . ولست أريد**

الآن استخدامها !» . وكان ماكنتوش يجيب بقوله . « هل من الاسهل عليك أن تضطر ــ عندما تريد خطابا ما ــ الى أن تظل نصف ساعة أو نحوها تبحث عنه وتتصيده ؟ »

ــ أنك لست غير متعنت فى تمسكك بقيود الوظيفة . ولكن .. لا بأس بك ، وسينصلح أمرك عندما تقضى هنا عاما او عامين .. عيبك أنك لاتشرب ، ولن يكون بك بأس ، لو أنك أسرفت فى الشراب حتى تفقد الوعى .. مرة فى الاسبوع !

* * *

والغريب أن ووكر ظل جاهلا كل الجهل بالكراهية التى كان مرؤوسه يشعر بها نحوه ، والتى أخذت تزداد على مر الايام . ومع أنه كان يسخر منه ، الا انه أخذ يحبه بعد أن ألف وجوده وأخلاقه . فلقد كان طويل الاناة متسامحا مع الناس فيما يتعلق بخصالهم وطباعهم . فقبل « ماكنتوش » على انه « سمكة » شاذة . ولعله لم يفطن الى انه ربما أحبه لانه كان يستطيع أن يسخر منه . وكان مجونه منطويا على قدر من البساطة الخشنة ، حتى لقد كان ينقصه شيء من اللكز ليكون غلظة . وكانت صراحة ماكنتوش واستقامته ورزانته موضوعات خصبة للتندر والمزاح . وقد أتاح أسمه الاسكتلندى فرصة لذكر النكات المألوفة عن (أسكتلندا) . وكان « ووكر » يتلذذ ويستمتع الى أقصى حد ، عندما تسنح الفرصة فيجتمع اثنان أو ثلاثة أشخاص ، فيسعى الى اضحاكهم على حساب ماكنتوش . كما انه ما كان ليحجم عن أن يذكر أشياء سخيفة عنه للاهالى . ولما كان ماكنتوش حديث معرفة بأهل الجزيرة ، فقد راح يتقبل بالابتسام والحلم ضحكاتهم وقهقهاتهم وسرورهم الطاغى ، كلما ألقى ووكر بنكتة أو بدرت منه اشارة ماجنة اليه ! .. **وما درى ووكر أن ماكنتوش لم يكن يكره شيئا قدر كراهيته هذا النوع من المماجنة ، فكان**

يستيقظ فى الليل ـ ليل فصل الامطار الخانق ـ ويفكر فى اكتئاب فى نكتة لاذعة أطلقها ووكر قبل ذلك بأيام .. فيتقد حقده ، ويتملكه الغضب ، ويصور لنفسه الطرق والوسائل التى تجعله ندا لهذا العربيد ! .. ولقد حاول الرد عليه ، ولكن ووكر كان يتمتع بسرعة البديهة .. وهى موهبة قاسية واضحة ، أكسبته التفوق !.. ومع ذلك فقد كان يتسم ببلادة فكر تمنعه من سرعة التأثر بأية أمزوحة لاذعة . كما أن صوته العالى وضحكته المدوية ، كانا من الاسلحة التى لم يجد ماكنتوش ازاءها أى دفاع . ولهذا أدرك أن من الحكمة أن لا يكشف عن انفعاله ، وتعلم كيف يضبط أعصابه .. **ولكن كراهية ووكر ظلت تنمو فى أعماقه ، حتى بلغت حد الجنون ، فأخذ يرقبه فى يقظة وانتباه ، ويغذى اعتداده بنفسه على ما كان يظهر من ووكر من وضاعة ، وخيلاء صبيانية ،وخبث، وفظاظة** .. وبشعر بالارتياح حينما يراقب ووكر وهو يأكل فى نهم وشراهة ـ ولتلمظه صوت مسموع ـ وحينما يلاحظ الاقوال السخيفة التى كان يتفوه بها ، ويسجل الاخطاءاللغوية التى كان يقع فيها ! .. وكان يعلم أن ووكر لا يكن له من التقدير شيئا كثيرا ، فشعر بارتياح مرير لرأى رئيسه فيه ، اذ زاد ذلك من اشمئزازه من هذا الكهل الضيق الافق .. وكان اغتباطه يتضاعف ليقينه من أن ووكر لم يكن يدرك قط تلك الكراهية التى كان يكنها له. فقد كان غبيا ، يحب الشهرة، ويتخيل أن كل الناس معجبة به . **ولقد سمعه مرة يتكلم عنه قائلا : « لسوف يتحسن عندما انتهى من تدريبه ، فهو جرو طيب ، يحب سيده ! »**

وقد ضحك ماكنتوش طويلا من أعماق قلبه ، دون أن تتحرك نأمة فى وجهه الطويل الشاحب !

على أن كراهية ماكنتوش لم تكن عمياء ، وانما كانت ذات بصيرة ! .. ولهذا جاء حكمه على ميزات « ووكر » وكفاءته

حكما دقيقا . **فقد أدرك أن الرجل يحكم مملكته الصغيرة بكفاءة وعدل وأمانة ، وانه ـ برغم الفرص التى كانت تسنح له للاثراء ـ أفقر مما كان عندما عين فى هذا المنصب ، وان المورد الوحيد الذى سيعتمد عليه فى شيخوخته ، هو ذلك المعاش الذى سيتقرر له فى النهاية ، عند التقاعد..** وكان ووكر يفخر بأنه تمكن ـ بمعاونة مساعد واحد وكاتب ـ من ادارة هذه الجزيرة بكفاءة تفوق ما كانت تدار به جزيرة (اوبولو) ـ الجزيرة الكبرى التى كانت (آبيا) كبرى مدنها ـ على أيدى ذلك الجيش من الموظفين الذى أعد لها . ولم يكن لديه غير عدد قليل من الشرطة ، كلهم من أهل الجزيرة . ولكنه لم يكن يستخدمهم فى تثبيت سلطانه ، بل انه كان يعتمد فى حكمه على الحيلة وعلى مجونه الايرلندى ! .. وكان يقول : « لقد أصروا على أن يبنوا لى سجنا ، ولكن ما حاجتى الى السجن بحق الشيطان ؟.. اننى لن أودع الاهالى السجن، لانى أعرف كيف أعاملهم اذا أخطأوا ! »

وكان بين الخلافات التى قامت بينه وبين السلطات فى (آبيا) ـ قصبة الحكم فى الجزر ـ انه ادعى لنفسه السلطة القضائية والتشريعية بالنسبة لاهل الجزيرة،فلم يكن يحولهم الى المحاكم المختصة ، مهما تكن جرائمهم !.. وكم من مرة تبودلت بينه وبين محافظ (اوبولو) مكاتبات مشحونة بعبارات السخط والغضب ! .. ذلك لانه كان ينظر الى الاهالى كأنهم اولاده ، فكان هذا هو أغرب ما فى الرجل الانانى الفظ السوقى، اذ أحب الجزيرة التى عاش فيها طويلا ؛ فأصبح يطوى بين جناحيه عاطفة غريبة من الحنان الخشن نحو أهل الجزيرة .. عاطفة تدعو الى العجب فعلا ! .. وكان يحب الطواف حول الجزيرة على فرسه العجوز الشهباء ، دون أن يمل قط من جمالها . بل كان يجوس خلال طرقاتها المعشوشبة ، بين أشجار «جوز الهند» ، ويقف بين الفينة والاخرى ليتأمل فى اعجاب



المناظر الحبيبة الممتدة أمامه.. وكان يمر ـ من وقت لآخر ـ بقرية ، فيتوقف ريثما يقدم له زعيمها قدحا من « الكافا » ـ الشراب الوطنى ـ وهو يتأمل الاكواخ المصنوعة على شكل النواقيس ، وسقوفها المبنية بالقش ، وكأنها خلايا نحل ! .. وإذ ذاك ، كانت ترتسم على وجهه المكتنز ابتسامة هائئة . وتستقر عيناه ـ فى سعادة تامة ـ على المروج الخضراء ، والاشجار الباسقة المنتشرة أمامه .. ويقول لنفسه : « تالله انها لاشبه بجنة عدن ! »

وكانت جولاته تمتد أحيانا ، فيصل الى الشاطىء ، ويرى ـ من خلال الأشجار ـ البحر الخالى المترامى الاطراف ، لا يعكر صفو هدوئه شراع واحد . وقد يتسلق ـ فى بعض الاحيان ـ تلا ، فيرى رقعة كبيرة ممتدة أمامه ، تتناثر فيها قرى صغيرة قابعة فى أحضان أشجار باسقة ، فيتخيل أنه أمام مملكة الممالك . فيجلس ساعة فى نشوة وسرور . ولكنه لم يكن يملك من الكلام ما يعبر عن مشاعره ، فلا يجد ما ينفس به عنها سوى نكتة بذيئة يطلقها ! .. والظاهر أن هذه المشاعر كانت من العنف الى الحد الذى يحتاج الى الفظاظة لكسر حدتها!

وكان ماكنتوش يلاحظ هذه العواطف فى ازدراء جليدى . فلقد كان ووكر مسرفا فى الشراب دائما ، وكان يفخر بمقدرته

على أن يرى رجالا لم يبلغوا نصف عمره ، صرعى الخمر ، تحت الموائد ، حين كان يقضى ليلة فى (آبيا) ، ويجد من نفسه ميلا الى الشراب ! .. أما هو ، فكان يروى - بأعلى صوته - القصص التى قرأها فى مجلاته .. ومع ذلك فقد كان يأبى أن يقدم أى قرض لاى تاجر قد يقع فى ضيق ، ولو كانت معرفته بهذا التاجر ترجع الى عشرين عاما ! .. فقد كان حريصا على ماله ، حتى لقد قال له ماكنتوش ذات مرة : « ليس بوسع أحد أن يتهمك بتبديد المال ! » . فأخذها على محمل المديح !

* * *

وكان شغفه بالطبيعة مجرد احساس من الاحاسيس المغامرة التى تخامر مدمن الخمر !

ولم يشعر ماكنتوش بأى اعجاب بشعور رئيسه نحو الاهالى . فقد كان « ووكر » يحبهم لانهم كانوا فى قبضة يده وتحت سيطرته .. كان يحبهم كما يحب الرجل الانانى كلبه ! .. وكانت عقليته فى مستوى عقليتهم ، ولهذا فقد كان يفهمهم وكانوا يفهمونه . ومن هنا كان زهوه بسيطرته عليهم ونظرته اليهم كما لو أنهم كانوا ابناءه ! .. ولقد اندمج فى جميع شؤونهم ، ولكنه كان غيورا الى حد كبير على سلطته . ومع انه كان يحكمهم بعصا من حديد ، دون أن يرضى معارضة ما ، الا أنه لم يكن يرتضى قط أن يستغلهم أحد من البيض المقيمين فى الجزيرة . وكان يرقب الارساليات فى شك وحذر ، فاذا قام أحد رجالها بعمل لا يرضاه هو ، لم يحجم عن أن يجعل الحياة بالنسبة لهم جحيما لا يطاق ، حتى يضطرهم الى أن يؤثروا مغادرة البلاد بمحض اختيارهم اذا عجز عن ابعادهم . وكانت سيطرته على الاهالى قوية الى حد أنهم كانوا - بكلمة منه - يرفضون أن يعملوا لحساب راعى الكنيسة ، ويأبون أن يمدوه بالطعام !

كذلك لم يكن ووكر يبدى أى ود للتجار ، وكان يحرص على أن لا يخدعوا الاهالى ، كما كان يعنى بأن يحصل الاهالى على مكافآت طيبة جزاء أعمالهم وتجارتهم ، وبأن لا يغالى التجار فى الكسب من وراء السلع التى يبيعونهم اياها . وكان لا يعرف الرحمة اذا ما اعتقد أن هناك صفقة غير عادلة .. فاذا ما شكا التجار أحيانا — فى (آبيا) — من انهم لايحظون بفرص مناسبة للاتجار ، قاسوا الامرين من جراء هذه الشكوى ، اذ كان « ووكر » لا يتردد — عندئذ — ولا يتورع عن اختلاق أية أكذوبة ظالمة لمعالجة الامر ، فلا يلبث هؤلاء التجار أن يجدوا أن لا سبيل لهم الى أن يعيشوا فى سلام ، أو أن يكون لهم كيان ، الا بأن يتقبلوا الموقف وأن يرتضوا ما يمليه هو من شروط . **وكم من مرة شبت النار فى حانوت تاجر ممن كان يناصبهم العداء ، دون أن تكون هناك مرية فى أن (المأمور) هو المحرض على ذلك !** .. ولقد حدث مرة أن سويديا — من أم من بنات الجزيرة — حاق به الخراب بسبب الحريق ، فبادر بالذهاب الى « ووكر » واتهمه جهارا بتدبير الحريق . فضحك ووكر ، وقال له : « أيها الكلب القذر ! .. لقد كانت أمك من الاهالى ، وها أنت ذا تحاول خداع الاهالى وغشهم . فاذا كان متجرك العتيق قد احترق فهذا من أحكام العناية الالهية ! .. أجل انه جزاء من القدر ، فاغرب عن وجهى ! » .. وأخذ (المأمور) يضحك ملء شدقيه ، بينما راح اثنان من الشرطة — من أهل الجزيرة — يخرجان التاجر ، وهو يردد : « انه حكم العناية الالهية ! »

* * *

وأخذ ماكنتوش يراقب « ووكر » وهو يشرع فى عمل اليوم — فى ذلك الصباح — مبتدئا بالمرضى . اذ كان قد أضاف الى نواحى نشاطه أمر علاج المرضى ، وأفرد غرفة صغيرة — خلف

المكتب – ملأها بالادوية والعقاقير .. وتقدم رجل مسن ، أشيب الشعر ، يرتدى ثوبا ازرق مخططا من « اللافا لافا » ، وقد تغضن جلده فأصبح كجلد القربة . فسأله ووكر : « لماذا جئت ؟ » .. وبصوت خفيض واهن ، قال الرجل انه لا يكاد يأكل حتى يلفظ ما أكل ، وأنه كان يشعر بالآلام هنا ، وهناك فى جسمه .. فقال ووكر : « اذهب الى عيادة المبشرين ، فأنت تعلم أننى لا أعالج الا الاطفال ! » .. فقال الرجل : « لقد ذهبت الى الارساليات ، ولكنها لم تفدنى بشىء ! » . فقال ووكر : « **اذن ، فاذهب الى منزلك ، وتأهب للموت .. لقد عمرت طويلا ، فهل لا تزال ترجو أن تطول أيامك أكثر من هذا ؟ .. انك لغبى !** »

واندفع الرجل فى احتجاج صاخب ، ولكن ووكر أشار الى سيدة تحمل بين ذراعيها طفلا مريضا ، وطلب اليها أن تتقدم بالطفل الى مكتبه ، ووجه اليهـا بعض اسئلة ، ثم نظر الى الطفل ، وقال : « سأعطيك دواء ! » .. ثم تحول الى الكاتب – الذى كان خليطا من أب أبيض وأم من بنات الجزيرة – وقال : « اذهب الى مخزن الادوية فاحضر بعض حبوب الكالوميل » . وأغرى الطفل بابتلاع احدى الحبوب ، ثم أعطى حبة أخرى الى أمـه وقال : « **خذى الطفل واحرصى على تدفئته ، وسوف يتحسن غدا .. أو يموت !** »

واضطجع فى مقعـده ، وأشـعل غليونه ، ثم قال : « ان الكالوميل عقار عجيب ، وقد أنقذت به حياة عدد من المرضى يفوق كثيرا عدد من أنقذهم أطباء مستشفى (آبيا) مجتمعين !» .. كان ووكر مزهوا ببراعته ، وكان – بفضل ما يزينه له الجهل من غرور – لا يرضى عن أهـل الطب ! .. ولم يلبث أن قال : « **ان الحالة التى يحلو لى علاجها ، هى تلك التى يعتقد الاطباء جميعا أنها ميئوس منها . فعندما يقول الاطباء انهم لا يستطيعون علاجك ، أقول لهم : « تعالوا الى ! »** ..

ألم أحدثك يوما عن الشخص الذى أصيب بالسرطان ؟ » .
فقال ماكنتوش : « كثيرا ! » .
ـ لقد عالجته فى ثلاثة أشهر
ـ ولكنك لم تخبرنى عن الذين لم تشفهم !

واذ انتهى ووكر من هذا الجزء من عمله ، تحول الى بقية الاعمال ، وكانت مزيجا عجيبا : فهذه امرأة لم تعد تستطيع العيش مع زوجها .. وهذا رجل يشكو من أن زوجته قد هربت منه .. وقال ووكر : « **يا له من كلب محظوظ ! .. ان أغلب الرجال يتمنون لو هربت زوجاتهم !** »

وعرضت عليه قضية نزاع ـ طويل معقد ـ على ملكية بضع ياردات من الارض ، ونزاع على صيد الاسماك ، وشكوى ضد تاجر أبيض غش فى المكاييل . وكان ووكر يصغى بانتباه لكل قضية ، ثم يعمل فكره بسرعة ، ويصدر قرارا فيها . وما أن يصدر القرار حتى يرفض الاستماع الى شيء بصدد القضية . فاذا استمر الشاكى فى عرض أمره ، تولى شرطى طرده من القاعة . وكان ماكنتوش يستمع الى هذا كله بانفعال وغيظ صامت . كان من الجائز التسليم ـ بوجه عام ـ بأن هناك عدالة وان كانت بدائية ، ولكن الامر الذى أحنق المساعد هو : **ان رئيسه كان يعتمد على سليقته أكثر من اعتماده على القرائن . ولم يكن يستمع الى الحجج ، وهو ينتهر الشهود عادة** . فاذا ما تبين انهم لم يفهموا ما كان ينبغى أن يفهموه ، رماهم بأنهم لصوص وكاذبون !

وترك « ووكر » ـ الى نهاية أعماله ـ طائفة من الرجال ـ كانوا يجلسون فى ركن من الغرفة ـ متعمدا أن يتجاهلهم . وكانت هذه الطائفة تضم شيخ احدى القرى ـ وهو شخص متقدم فى السن ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ، ذو شعر أبيض ، وقد ارتدى ثوبا جديدا رسم على صدره شعار الوظيفة ـ ونجله ، وستة من ذوى الشخصيات الهامة فى

القرية . وكان ووكر قد ناصبهم العداء ، وانتصر عليهم ، فأخذ يتعمد اظهار انتصاره — كما هي شيمته — ويسعى الى أن يفيد من ضعفهم بعد أن قهرهم . وكانت وقائع قضيتهم عجيبة . فقد كان لووكر ولع بشق الطرق . وعندما وفد على (تالوا) لم يكن فيها غير دروب قليلة ، متناثرة هنا وهناك . فلم يلبث — على مر الايام — أن شق طرقا فى البلاد تربط القرى بعضها ببعض . ويرجع الى هذه الطرق فضل كبير فى الرخاء الذى ساد الجزيرة . وبعد أن كان من المتعذر — فى الماضى — نقل المنتجات ، لا سيما جوز الهند ، الى الشاطىء ، حيث يتسنى نقلها على السفن والزوارق البخارية الى (آبيا) ، أصبح هذا النقل ميسرا سهلا .

وكان الأمل الأكبر ، الذى يراود ووكر ، هو شق طريق حول الجزيرة ، وقد تم انشاء جزء كبير منه فعلا . وكان لا يفتأ يقول : ((سأنجزه فى عامين . ولن يهمنى — بعد ذلك — أن أموت ، أو أن أطرد من عملى !))

وكانت الفرحة تملأ قلبه بهذه الطرق التى شقها فى البلاد ، فلم يكن ينفك عن القيام برحلات كى يطمئن الى أنها مصونة .. وكانت طرقا بسيطة فى تكوينها .. دروبا واسعة مكسوة بالحشائش ، تتخلل الريف أو المزارع . غير أنه لم يكن ثمة بد من اقتلاع بعض الاشجار ، وحفر بعض الصخور أو نسفها ، وتمهيد التربة فى بعض الانحاء . وكان ووكر يفخر بأنه تمكن بفضل مهارته من تذليل هذه الصعاب ، ويبتهج عندما يرى أن هذه الطرق لم تكن مجرد أسباب للتيسير ، وانما كانت تكشف كذلك عن مفاتن الجزيرة التى أحبها . فاذا ما تكلم عن الطرق أوشك أن يصبح شاعرا .. ذلك لانها كانت تمتد بين المناظر الجميلة . وقد عنى ووكر بأن يبسطها فى خط مستقيم — بين كل مسافة وأخرى — وبهذا تتجلى المروج الخضراء من خلال الاشجار الطويلة ، كما كانت تتخللها

انحناءات وتعرجات لكي تستريح النفس لهذا الاختلاف والتنويع في المناظر .. **وكان من الغريب حقا أن يظهر الرجل الخشن البهيمي ، كل هذه البراعة في تحقيق النتائج التي أوحى بها خياله اليه ، حتى لقد استخدم في شق هذه الطرق ، كل ما يبذله البستاني الياباني من عناية مشغوفة ، في تنسيق حديقته** .. وكان قد تلقى من المركز العام للادارة ، اعتمادا ماليا للمشروع ، ولكنه كان يفخر بأنه لم ينفق غير جزء صغير منه ، فلم يتجاوز ما أنفق في العام السابق غير مائة جنيه من الالف التي خصصت له !

وكان يقول مزمجرا : « فيم حاجتهم الى المال ؟ .. انهم سينفقونه في جميع ألوان السفاسف التي لا حاجة لهم اليها .. أو بعبارة أخرى ، سينفقونه فيما يتبقى في الجزيرة من سلع بعد أن تستكفي الارساليات منها ! » . وقد نجح في حمل الاهالي على تأدية أي عمل يريدهم على أدائه ، بأجور تكاد تكون اسمية . وما كان هذا لسبب معين ، اللهم الا أن يكون من قبيل الزهو بقلة انفاقه في تحقيق أعماله الادارية ، ورغبته في اظهار براعته بالقياس الى الاساليب العقيمة التي تتبعها السلطات في (آبيا) .

* * *

ولكن هذا المسلك أدى به أخيرا الى مواجهة بعض الصعاب مع القرية التي جاء زعماؤها — في ذلك الصباح — لمقابلته . اذ كان ابن شيخ القرية قد قضى عاما في (اوبولو) ، فلما عاد الى قومه حكى لهم عن المبالغ الكبيرة التي تدفع في (آبيا) في مقابل الاعمال العامة .. ونجح على مر الايام في الهاب نفوسهم وبث روح الكسب في قلوبهم . . وراح يصور لهم الثراء الطائل ، حتى انهم أخذوا يفكرون في « الويسكي » الذي سيغدو في ميسورهم أن يشتروه .. اذ انه كان غالي الثمن نظرا لان

القانون كان يحرم بيعه للاهالى . ومن ثم فقد كانوا يدفعون فيه ضعف ما يدفعه الرجل الابيض ! .. واخذوا يتصورون كذلك ، الصناديق المصنوعة من خشب الصندل — والتى يحفظون فيها ثرواتهم — والصابون المعطر ، وسائر الكماليات التى يبذل أهل الجزيرة أرواحهم للحصول عليها . **ولهذا فانهم — عندما استدعاهم المدير وأنبأهم برغبته فى شق طريق من قريتهم الى نقطة على الشاطىء — طلبوا منه أن يدفع لهم مائة جنيه ! ..**



وكان نجل شيخ القرية يدعى « مانوما » : طويل القامة ، جميل الطلعة ، نحاسى اللون ، له شعر صبغ باللون الاحمر ، وحول عنقه طاقة من زهر الكرز الاحمر ، ووراء أذنه زهرة كانت — بالنسبة لوجهه الاسمر — أشبه بجذوة قرمزية .. وكان نصفه الاعلى عاريا . ولكنه شاء أن يظهر أنه لم يعد همجيا — بعد أن قضى فترة فى آبيا — فارتدى السراويل بدلا من المئزر . وقد ألح على الاهالى بأن يتكاتفوا ، حتى يضطر المدير (المأمور) الى قبول شروطهم . **فلقد كان تواقا الى شق هذا الطريق ، ومن ثم فانه سيضطر الى الاستجابة لطلباتهم اذا أيقن من أنهم لن يعملوا بأقل مما طلبوا .. وأهاب بهم أن لايتزحزحوا عن موقفهم مهما يقل لهم المدير ، واذا طلبوا مائة**

جنيه ، وجب عليهم أن يتمسكوا بكلمتهم !

واذ ذكروا الرقم لووكر ، صاح مطلقا ضحكته الطويلة العميقة العالية ، ونصحهم بالا يكونوا أغبياء ، وأن يبدأوا العمل فورا . وكان فى ذلك اليوم فى خير حالاته ، فوعدهم بان يقيم لهم وليمة بعد اتمام الطريق ، ولكنه لم يكد يتبين أنهم لم يبدوا أية محاولة للبدء فى العمل ، حتى ذهب الى القرية ، فسألهم عن الحيلة الرعناء التى كانوا يلعبون بها . وكان «مانوما» قد أعدهم لموقف ، فاعتصموا بالهدوء التام . ولم يحاولوا مجادلة ووكر – رغم أن أبناء عشيرة « الكاناكا » مغرمون بالجدال – وانما اكتفوا بهز أكتافهم ، مرددين انهم كانوا على استعداد لأن يشقوا الطريق لقاء مائة جنيه ، ولن يقدموا على عمل ما اذا هو لم يدفعها ، وليفعل مايشاء ، فقد وطنوا أنفسهم على أن لا يحفلوا !

وعندئذ ثار غضب ووكر ، فأصبح قبيح الطلعة ، اذ اشتد تضخم عنقه المكتنز ، واشتد احتقان وجهه الاحمر ، وخرج الزبد من شدقيه ، وأخذ يصب جام غضبه على الاهالى .. وكان يعرف تماما كيف يجرح النفوس وكيف يذلها .. كان مرعبا ، حتى قد شحبت وجوه المتقدمين فى السن ، وشعروا بالقلق ، وترددوا ، ولولا « مانوما » ومعرفته بالعالم الكبير – خارج جزيرتهم – وخوفهم من سخريته ، لانوا .. وكان مانوما هو الذى رد على ووكر بقوله : « ادفع لنا مائة جنيه ، نؤد لك العمل ! » . فهز ووكر قبضته فى وجه مانوما ، ونعته بكل صفة طرأت على مخيلته ، وصب عليه وابلا من السخط ولكن مانوما ظل ساكنا ، مبتسما . وكان فى ابتسامته من التظاهر بالشجاعة أكثر مما كان فيها من الاعتداد بالنفس . فقد كان مضطرا الى أن يظهر بمظهر طيب أمام الآخرين ، فكرر عبارته : « ادفع لنا مائة ، نؤد العمل ! »

وظنوا أن ووكر سينقض على « مانوما » ... ولو أن هذا

حدث لما كانت المرة الاولى التي يعتدى فيها على أحد الاهالى بيديه .. وكانوا يعرفون قوته ، فمع انه كان يبلغ من العمر ثلاثة أمثال ما بلغه « مانوما » ، ومع انه كان أقصر منه بشبر تقريبا ، الا أنهم لم يرتابوا مطلقا فى أنه كان يفوق « مانوما » قوة . فما خطر لاحد قط أن يقاوم العدوان الوحشى الذى كان بوسع المدير أن يشنه !

ولكن ووكر لم يقل شيئا ، وانما سعل ليجلو حلقه ، وقال لهم بعد برهة : « لن أضيع وقتى مع طائفة من الاغبياء ، فتشاوروا ثانية فى الامر ، وأنتم تعرفون ماعرضته ، فاذا لم تبدأوا العمل فى خلال أسبوع ، فخذوا الحذر لانفسكم ! » . واستدار فغادر كوخ شيخ القرية ، وفك رباط فرسه ، بعد أن كان من مظاهر العلاقات بينه وبين الاهالى أن يتقدم أحد شيوخهم فيقف ممسكا ركاب الفرس ، بينما يقف ووكر على بقعة عالية ويرفع نفسه ببطء الى صهوة الجواد .

وفى الليلة ذاتها ، كان ووكر يتمشى كعادته فى الطريق الذى يمر بجوار داره ، واذا به يسمع شيئا يمرق بجانبه ، ثم يرتطم بشجرة .. وكان جليا أن قذيفة ما قد وجهت اليه ، فدفعته غريزته الى التنحى ، وصاح : « من هذا ؟ » . ثم جرى نحو المكان الذى انبعثت منه القذيفة ، فسمع صوت شخص يهرب خلال الشجر . وأدرك أن من العبث مطاردة هذا الشخص فى الظلام ، فضلا عن أن أنفاسه سرعان ما تهدجت ، فوقف . ثم عاد الى الطريق ، وأخذ ينظر حوله ليعرف كنه الشىء الذى سدد اليه . ولكنه لم يعثر على شىء ، اذ كان الظلام دامسا . فرجع مسرعا الى الدار ، ونادى ماكنتوش والخادم الصينى ، وقال لهما : « لقد رمانى أحد هؤلاء الشياطين بشىء ما ، فتعاليا معى لنبحث عنه ! » . وطلب من الصبى أن يحضر مصباحا .. واتجه ثلاثتهم الى مكان الحادث ، فأخذوا يبحثون ، ولكنهم لم يجدوا ما كانوا

ينشدون .. وما لبث الخادم أن صاح فجأة ، فالتفت اليه ووكر وماكنتوش. **واذ رفع المصباح الى اعلى، ظهرت فى الضوء — الذى شق الظلام المحيط بالمكان — سكين رهيبة الشكل ، انغرست فى جذع شجرة من أشجار جوز الهند . وتبين أنها رميت بقوة بالغه ، حتى لقد اقتضى نزعها من الجذع جهدا كبيرا !**

وهتف ووكر : « يالله ! .. لولا أنه أخطأنى ، لكنت الآن فى حال بديعة ! » وأمسك بالسكين ، فاذا بها من تلك السكاكين المصنوعة على نمط مدى الملاحين التى أحضرها — منذ مائة عام — أولئك الذين كانوا أول من ارتاد الجزيرة من البيض .. وهى مدى كانت تستخدم فى شطر ثمرة « جوز الهند » الى نصفين ، لتجفيف لبها .. كما كانت سلاحا قاتلا ، اذ كان نصلها — الذى يبلغ اثنتى عشرة بوصة طولا — حادا جدا ! .. وأخذ ووكر يضحك بصوت خافت ، وقال : « ياله من شيطان! .. ياله من شيطان غبى ! »

ولم يداخله شك فى أن « مانوما » هو الذى رماه بهذه السكين ، وقد نجا من الموت الذى لم يكن يبعد عنه بأكثر من ثلاث بوصات .. ولم يغضب ، وانما كان — على العكس من هذا — فى خير حالات الحبور . والظاهر أن المغامرة أفعمت قلبه سرورا ، حتى انه عندما عاد الى المنزل ، طلب خمرا ، وأخذ يفرك يديه فى ابتهاج ، وهو يقول : « سوف أجعلهم يدفعون ثمن هذا ! » .. وأخذت عيناه الصغيرتان تبرقان ، وانتفش كالديك الرومى ، وأصر للمرة الثانية — فى نصف ساعة — على أن يروى لماكنتوش تفصيلات المسألة ، ثم طلب منه أن يلعب الورق معه .. وظل خلال اللعب يتحدث ويتشدق بما سوف يفعله . وكان ماكنتوش يصغى اليه وشفتاه مغلقتان

ولم يلبث ماكنتوش أن قال له : « **ولكن .. لماذا تحاول**

أن تستحقهم بهذا الشكل ؟ .. ان عشرين جنيها مبلغ زهيد جدا بالنسبة للعمل الذى تريدهم على أن يعملوه ! » فقال : « جدير بهم أن يشكروا لى اننى سأمنحهم أجرا ! » . فقال ماكنتوش : « ولكنه ليس مالك ، فان الحكومة تخصص لك مبلغا معقولا ، ولن تشكو اذا أنت أنفقته كله ! » . فقال ووكر : « انهم عصبة من الاغبياء .. أولئك القوم فى آبيا ! » . وأيقن ماكنتوش من أن الدافع لووكر كان مجرد الزهو والعجرفة . فهز كتفيه ، وقال : « لايجدر بك أن تعادى هؤلاء القوم الى الحد الذى يكلفك حياتك ! »

– ألا فليباركك الله ! .. انهم لن يؤذونى ، ولن يستطيعوا الاستغناء عنى ، فهم يعبدوننى ، ومانوما غبى ، وما رمى السكين الا لمجرد ارهابى !

وذهب ووكر فى اليوم التالى الى القرية مرة أخرى .. وكانت تدعى (ماتوتو) . ولم يترجل عن جواده ، وانما يمم شطر كوخ شيخ القرية ، فرأى الرجال جالسين على الارض فى حلقة ، وهم يتحدثون . وحدس انهم كانوا يعاودون بحث مسألة الطريق .. وكانت الاكواخ فى جزر (ساموا) تبنى على هذا النحو : تقام جذوع الاشجار الرفيعة فى حلقة على أبعاد تتراوح بين خمس أقدام وست ، ثم تقام شجرة طويلة فى الوسط ، وينساب السقف من هذه فى ميل . وتستخدم أستار مصنوعة من ألياف شجر جوز الهند ، فتسدل فى الليل أو عند هطول المطر ، وفيما عدا ذلك ، تكون الاكواخ – عادة – مفتوحة من جميع جوانبها ، حتى يتسنى للهواء أن يتخللها

وتقدم ووكر الى حافة الكوخ ، ونادى الشيخ قائلا : « **اسمع ياتاناجاتو .. لقد ترك ابنك سكينه فى شجرة ، فى الليلة الماضية ، وها أنذا أعيدها اليك !** » . وألقى بالسكين على الارض – وسط حلقة الرجال – ثم استدار بجواده وابتعد !

* * *

وخرج فى يوم الاثنين يتبين ما اذا كانوا قد بدأوا العمل . ولكنه لم ير مايوحى بذلك ، فانطلق الى القرية ، واذا رجالها يقومون بأعمالهم اليومية : بعضهم ينسج الحصير من ألياف الشجر ، ورجل مسن مقبل على احتساء شراب « الكافا » . والاطفال يلعبون ، والنساء يؤدين أعمالهن المنزلية .. وتقدم ووكر — والابتسامة على شفتيه — الى دار الشيخ الذى قابله بالتحية فردها اليه . **ورأى « مانوما » يصنع شبكة ، وقد جلس والسيجارة بين شفتيه .. وما ان رأى ووكر ، حتى تطلع اليه وعلى شفتيه ابتسامة الانتصار .**

وقال ووكر : « هل قررتم أن لا تعملوا فى الطريق ؟ » .
فرد الشيخ قائلا : « ليس قبل أن تدفع مائة جنيه ! »

واذ ذاك قال ووكر : « لسوف تندم على هذا ! » . ثم التفت الى مانوما وقال : « وأنت أيها الصبى .. لن أعجب اذا مارأيت ظهرك متقرحا من ضرب السياط ، قبل أن يطول بك العمر ! » . ولكز جواده مبتعدا ، وهو يقهقه تاركا القوم فى قلق . فقد كانوا يرهبون هذا الكهل البدين الاثيم . **ولم يفلح غضب الارساليات عليه ، ولا روح السخط التى تعلمها « مانوما » فى (آبيا) ، فى حملهم على أن ينسوا انه كان شيطانا ماكرا ، وانه ما من شخص أساء اليه ، الا وانتهى به الامر الى مكابدة الامرين !**

وقدر لهم أن يتبينوا — فى غضون أربع وعشرين ساعة — الخطة التى دبرها .. كانت خطة عجيبة ! .. فما ان انبلج صباح اليوم التالى ، حتى وفد فريق كبير من الرجال والنساء والاطفال .. وقال زعماؤهم أنهم اتفقوا مع « ووكر » على شق الطريق ، وانه عرض عليهم عشرين جنيها فقبلوها ! .. **أما موطن الخبث فى الخطة ، فيتجلى فى أن لعشائر « البولونيز » تقاليد فى الضيافة لها حكم القانون . فهناك تقليد صارم يقضى على أهل القرية بأن لايكتفوا بايواء الاغراب ، وانما كان لزاما**

عليهم كذلك أن يزودوهم بالمأكل والمشرب طول فترة اقامتهم .. وهكذا تورط أهل (ماتوتو)، ووقعوا فى الفخ ! ..

وأخذ العمال يخرجون فى كل صباح ، فى عصبة مرحة ، فيقطعون الاشجار ، وينسفون الصخور ، ويمهدون الارض هنا وهناك ، ثم يعودون فى المساء الى القرية ، فيأكلون ويشربون ، ويرقصون ويغنون الاناشيد ، ويتمتعون بالحياة ! .. كانت المسألة بالنسبة اليهم أشبه برحلة للترويح . ولكن أهل القرية لم يلبثوا أن أظهروا التجهم والتبرم . فقد كان الاغراب ذوى شهية نهمة .. وأخذت ثمار الفاكهة كالموز وغيره تختفى بفضل ضراوتهم فى الاكل . وتعرت أشجار الكمثرى التى كانت ثمارها ترسل عادة الى (آبيا) لبيعها . وبدأ شبح الخراب يلوح أمام الاهالى الذين لاحظوا أيضا أن الغرباء كانوا يعملون فى بطء شديد .. فهل أوحى اليهم ووكر بأن يتلكأوا ؟ .. لو أنهم استمروا على هذا البطء فلن تبقى فى القرية لقمة من طعام ، عندما تحين نهاية العمل فى الطريق ! .. والانكى من ذلك انهم أصبحوا أضحوكة . فما ان يذهب أحدهم الى أية قرية بعيدة – فى مهمة ما – حتى يجد أن القصة قد سبقته ، فيقابل بالضحك والسخرية . وليس ثمة ما يضيق به أبناء عشيرة « الكاناكا » كالسخرية منهم ! ولم يطل الوقت حتى أخذ هؤلاء المنكوبون يتبادلون الحديث فى غضب، ولم يعد «مانوما» بطلا، فاضطر الى أن يصبر على ما كان يوجه اليه من حديث صريح . وقد وقع ذات يوم ما كان « ووكر » يرتقبه . اذ احتدم الجدال وتحول الى شجار ، فاندفع ستة من الشباب ، وهجموا على نجل شيخ القرية ، وكالوا له من الضرب ماجعله يرقد أسبوعا على الحصير ، لايستطيع حراكا من الجروح والكدمات التي أصابته ، ولاح يتقلب من جنب الى آخر ، دون أن يجد راحة فى التقلب !

وكان المدير يفد على فرسه – كل يوم أو يومين – يراقب

سير العمل فى شق الطريق . ولم يكن من الذين يستطيعون مقاومة اغراء الشماتة فى عدو مهزوم ، فلم يترك فرصة الا انتهزها ليذكر أهل « ماتوتو » بمرارة هوانهم . وبذلك حطم روحهم المعنوية . وفى صباح ذات يوم ، وضعوا كبرباءهم فى جيوبهم — وهذا تعبير على سبيل المجاز فقط ، اذ لم يكن لهم جيوب ما ! — وخرجوا مع الغرباء ، وشرعوا يعملون فى الطريق ، مدركين ما لانجاز العمل بسرعة من أهمية ، اذا أرادوا أن ينقذوا ما كان لديهم من أغذية . وهكذا اشتركت القرية بأسرها فى العمل .. ولكنهم كانوا يعملون فى صمت ، بقلوب عامرة بالغضب والكمد .. وشاع هذا الصمت حتى شمل الاطفال أيضا . وكانت النسوة يبكين وهن ينقلن حزم الاعشاب . فلما رآهم ووكر ، ضحك ملء شدقيه ، حتى كاد يقع عن الجواد ! .. وسرعان ما انتشرت الانباء ، فود أهل الجزيرة أن يموتوا خزيا !

وكانت هذه كبرى المهازل ، وتاج النصر لذلك الكهل الابيض الماكر ، الذى لم يستطع أحد من « الكاناكا » أن يغلبه مرة !..
وأخذ الناس يتوافدون من القرى البعيدة ، مصطحبين نساءهم وأطفالهم ، ليشهدوا أهل القرية الاغبياء ، الذين رفضوا عشرين جنيها مقابل شق الطريق ، ثم اضطروا الى العمل بلا مقابل ! .. وكلما زادوا من نشاطهم فى العمل ، وضاعفوا من جهودهم ، اشتد تباطؤ الضيوف . اذ لم يكن ثمة مايدعو الى التعجل ، ماداموا يحصلون على أغذية وافرة بلا مقابل !

* * *

وأخذت المهزلة تزداد طرافة ، بازدياد الفترة التى كانوا يستغرقونها فى انجاز العمل ، حتى لم يعد لدى القوم طاقة على الصبر ، فجاءوا — فى ذلك الصباح — ليلتمسوا من المدير أن يعيد الاغراب الى ديارهم ، واعدين اياه بأن ينجزوا العمل

فى شق الطريق بغير مقابل !.. وكان هذا نصرا تاما ـ لا نزاع فيه ـ لووكر . فقد أذلهم !

وانتشرت على وجهه الكبير امارات غبطة متعجرفة ، وقبع فى مقعده وكأنه ضفدعة كبيرة ، وشاعت فى أساريره أمارات الشر ـ مما جعل ماكنتوش يرتعد اشمئزازا واستهجانا ـ ثم أخذ يتكلم بصوته العالى قائلا : « أترونني أشق هذا الطريق لمصلحتى ؟ .. ماذا تظنونني أفيد من ورائه ؟ .. انما أصنعه لكم ، حتى تتمكنوا من السير فى راحة ، وحتى تنقلوا جوز الهند فى يسر . وقد عرضت أن أدفع لكم أجرا عن عملكم . مع أن الطريق يشق لمصلحتكم .. عرضت عليكم أجرا سخيا . **وقد حق عليكم أن تدفعوا أنتم الآن .. سأعيد أهل (مانوا) الى ديارهم اذ أنتم أتممتم الطريق ودفعتم العشرين جنيهـا التى يجب أن أعطيهم اياها ! »**

وصدرت صيحة عالية من الرجال .. وحاولوا أن يتفاهموا معه، ذاكرين أنهم لم يكونوا يملكون المبلغ . ولكنه قابل أقوالهم بالتهكم والتشفى . ثم دقت الساعة ، فقال : « لقد حان وقت الغداء .. فاخرجوهم من هنا ! » . ثم نهض بتثاقل وغادر الغرفة . وعندما لحق به ماكنتوش ، وجده قد جلس فعـلا الى المائدة ، وربط المنشفة حول عنقه ، وأمسك بالشـوكة والسكين استعدادا للطعام الذى كان الطاهى الصينى يوشك أن يحضره . وكان فى خير حالات الانشراح !

وعندما جلس ماكنتوش قال ووكر : « لقد قهرتهم بشكل جميل ، ولن أجد بعد ذلك صعوبة كبيرة فى انشاء الطرق ! » . فقال ماكنتوش ببرود : « أعتقد أنك تمزح ! » . فهتف به « ماذا تعنى ؟ »

ـ ما أراك ستحملهم حقا على دفع العشرين جنيها !

ـ بل أراهن بحياتى على أننى سأحملهم على هذا !

ـ لست أرى أن هناك أى حق يخولك هذا .

ـ أحقا ؟ ! .. ولكنى أعتقد أن لى الحق فى أن أفعل أى شىء يروق لى فى هذه الجزيرة

ـ أعتقد أنك قد أرهبتهم بما فيه الكفاية

فقهقه ووكر ، ولم يأبه لما كان ماكنتوش يراه ، وانما قال : ((عندما أحتاج الى رأيك سأطلب منك أن تدلى به !))

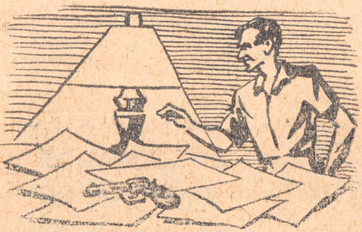
فشحب وجه ماكنتوش .. وكان يعرف بالتجربة المريرة أنه لا يملك سوى التزام الصمت ، وقد أدى به ما بذله من مجهود عنيف فى ضبط أعصابه ، الى الشعور بالتوعك ، وبأنه مشرف على الاغماء ، فلم يستطع أن يأكل كل الطعام الذى كان أمامه ، وأخذ ينظر فى اشمئزاز الى ووكر وهو يلقى بقطع اللحم فى فمه الواسع .. كان قذرا فى طريقة أكله ، وكان الجلوس معه على مائدة واحدة يتطلب معدة قوية . وارتجف ماكنتوش ، وتملكته رغبة جامحة فى تحقير هذا الرجل الضخم القاسى .. وود لو استطاع أن يبذل أى شىء فى العالم كى يراه متمرغا فى التراب ، يقاسى بقدر ما كان يحمل سواه على أن يقاسوا ! .. أبدا ما شعر ماكنتوش بالكراهية نحو هذا الثور بقدر ما شعر اذ ذاك !

وأخذ اليوم يولى .. وحاول ماكنتوش النوم بعد الغداء ، ولكن الانفعالات التى أحس بهـا فى فؤاده منعته من ذلك . وحاول أن يقرأ ، ولكن الحروف والكلمات كانت تتراقص أمام عينيه . وكانت الشمس ترسل أشعتها فى قسوة ، فتاق الى المطر ، وان أدرك أن المطر لن يأتى معه بشىء من البرودة ، وانما كان خليقا بأن يزيد الجو حرارة ويفعمه بالرطوبة . ولقد كان من أهل (أبردين) ، ولهذا هفا قلبه فجأة الى الرياح المثلجة التى تصفر خلال الشوارع الجرانيتية فى هذه المدينة . أما هنا ـ فى هذه الجزيرة ـ فقد كان أسيرا .. لم يسجنه البحر وحده ، وانما كان حبيس كراهيته لهذا الكهل الفظيع كذلك !

وأخذ ماكنتوش يضغط رأسه المصدوع .. وود لو استطاع

ان يقتل ذلك الرجل . ولكنه استطاع أن يتمالك نفسه ، ورأى ان عليه ان يفعل شيئا ليبعد عقله عن التفكير فى هذه الناحية. وإذ لم يستطع القراءة ، فكر فى ترتيب أوراقه وتنظيمها . وهى مهمة فكر فى القيام بها منذ فترة ، ولكنه كان يرجئها باستمرار . وفتح درج مكتبه فأخرج حزمة من الرسائل .. ووقع نظره على مسدسه ، فأومضت فى رأسه فكرة سرعان ما تلاشت .. **تلك هى أن يطلق رصاصة على رأس ووكر ، لينجو من ذلك القيد غير المحتمل فى الحياة ! .. ولاحظ أن بالمسدس شيئا من الصدأ بسبب رطوبة الجو ، فأخذ ينظفه ..** وفيما كان منهمكا فى هذا ، اشتد به شعور بأن هناك من كان يتلصص حول الباب ، فرفع رأسه وصاح : « من هناك ؟ » . ومضت برهة ، ثم ظهر مانوما فقال له : « ماذا تريد ؟ »

ووقف نجل الشيخ برهة فى صمت ، فلما تكلم كان صوته مختنقا .. وقال : « ليس بوسعنا أن ندفع عشرين جنيها ، اذ أننا لا نملك المبلغ ! » . فقال ماكنتوش : « وماذا أملك أن أفعل ؟ .. لقد سمعت ما قاله المستر ووكر ! » . وأخذ مانوما يرجو ويستعطف فى كلمات نصفها بلغة أهل (ساموا) ، ونصفها الآخر بالانجليزية ، وكلها رجاء واستعطاف ، وكأنها أنشودة شحاذ ، مما ملأ قلب ماكنتوش بالاشمئزاز . **فقد احنقه أن يرى الشاب يسمح لسواه بأن يسحق بهذا الشكل ، وأن**



يصبح « شيئا » يدعو الى الرثاء !

وقال ماكنتوش أخيرا : « لا أستطيع عمل شيء ، فأنت تعرف أن المستر ووكر هو السيد هنا ! » . فعاود مانوما صمته ، وظل واقفا عند الباب . وأخيرا قال : « انني مريض ، فاعطني بعض الدواء ! »

ـ وماذا بك ؟

ـ لا أعلم .. انني مريض ، وأشعر بالآلام فى كل جسمى

ـ لا تقف هناك .. تعال ودعنى أراك !

فدخل مانوما الغرفة ، ووقف قبل أن يصل الى المكتب ، وقال : « أشعر بالألم هنا .. وهنا » . ووضع يديه على ردفيه ووجهه . وارتسمت على وجهه معالم الالم . وفجأة ، شعر ماكنتوش بأن عينى الفتى كانتا مصوبتين الى المسدس الذى كان قد وضعه على المكتب عندماظهر مانوما عندالباب . وساد الصمت بين الرجلين ، وخيل لماكنتوش أنه صمت لا ينتهى .. وتراءى له أنه يقرأ الافكار التى كانت تتردد فى عقل الفتى ، فراح قلبه يدق بعنف .. ثم شعر بأن شيئا ما قد تملكه ، فاصبح يتصرف تحت دفع ارادة أجنبية عنه ، ولم يعد هو الذى يوجه حركات جسمه ، وانما كانت تحركه قوة غريبة عليه ! .. وأحس بأن حلقه قد جف فجأة ، فوضع يده عليه بحركة آلية ، ليتمكن من الكلام . واضطر الى تجنب عينى مانوما .. وقال فى صوت كأنه خارج من حنجرة قبض على قصبتها الهوائية شخص ما : « انتظر هنا ، وسوف أحضر لك شيئا من الصيدلية ! »

ونهض .. أفكان وهما أن أحس بأنه يترنح ؟ . ووقف مانوما فى صمت ، ومع أن ماكنتوش كان محولا عينيه عن مانوما ، فانه أحس بأن الفتى كان يتطلع فى بلاهة الى الباب . وكان الشخص الآخر الذى تقمص ماكنتوش هو الذى راح يدفعه الى خارج الغرفة ، ولكنه كان هو نفسه الذى أخذ حفنة من

الاوراق المتناثرة ، والقاها على المسدس ليخفيه عن البصر ، قبل أن يذهب الى الصيدلية ، فيأخذ منها قرصا من دواء ، ويصب سائلا أزرق اللون فى زجاجة .. ثم خرج الى الفناء . ولم يشأ أن يعود الى مسكنه ، ولهذا نادى مانوما ، وأعطاه الدواء وزوده بالتعليمات الخاصـــة بتعاطيه .. **ولم يدر ما الذى جعل من المستحيل عليه أن ينظر الى مانوما ، فقد ظل – وهو يحدثه – مثبتا عينيه صوب كتفى الفتى . وأخذ مانوما الدواء وتسلل من الباب .**

ودخل ماكنتوش الى غرفة الطعام ، وعاد يقلب الصحف القديمة ، ولكنه لم يستطع القراءة .. كان السكون مخيما على المنزل ، وكان ووكر نائما فى غرفته فى الطابق الاعلى ، والطاهى الصينى مشغولا فى مطبخه ، والشرطيان يصطادان السمك . وخيل اليه أن السكون الذى خيم على المنزل كان سكونا غير طبيعى .. وكان التساؤل عما اذا كان المسدس لا يزال فى المكان الذى تركه فيه يطرق رأسه كالمطرقة ! .. ولم يستطع أن يحمل نفسه على التحقق من ذلك .. كان عدم التأكد فظيعا ، ولكن التأكد كان أفظع . وأخذ العرق يتصبب منـــه .. ولم يستطع فى النهاية احتمال هذا السكون ، فاستقر رأيه على أن يخرج الى الطريق ، ويذهب الى التاجر : وكان رجلا يدعى جرفيس ، يمتلك متجرا على حوالى ميل .. وكان خليطا – من أب أبيض وأم من الاهالى – ولكن هذا القدر من الدم الابيض الذى يجرى فى عروقه ، جعل تبادل الحديث معه أمرا محتملا .. **ولقد كان ماكنتوش تواقا الى الابتعاد عن مسكنه ، وعن مكتبه الذى تناثرت فوقه الاوراق ، وتحتها شىء ما ، أو .. لا شىء ؟!**

ومشى فى الطريق ، وكلما مر بكوخ أحد الزعماء ، تصاعدت اليه التحيات . وأخيرا وصل الى المتجر ، فاذا ابنة التاجر تجلس وراء منضدة البيع .. وكانت فتاة ســـمراء ، ذات قسمات عريضة ، وقد ارتدت سترة وردية اللون ، «وجونلة»

بيضاء . وكان أبوها «جرفيس» يأمل أن يوفق الى تزويجها . فقد كان يملك مالا . وقد قال لماكنتوش أن من يتزوجها يصبح فى سعة !

* * *

وعندما رأت ماكنتوش يدخل المتجر ، تضرج وجهها هونا ما ، وقالت : « أن أبى يفض بعض الصناديق التى وصلت هذا الصباح ، وسوف أبلغه أنك هنا ! » . فجلس ، بينما ذهبت الفتاة الى ما وراء المتجر . وان هى الا برهة حتى دلفت أم الفتاة الي الحانوت . وكانت سيدة ضـخمة الجثة ، تحب السيطرة وتتمتع بقدر كبير منها . وكانت بدانتها الفظيعة تبديها بمظهر مستهجن ، ولكنها استطاعت أن توقع فى نفس رائيها وقارا . فكانت تظهر الود فى غير تذلل ، وتظهر التواضع وهى تشعر بمركزها .

ومدت يدها الى ماكنتوش وقالت : « ما أغربك يا مستر ماكنتوش ! .. لقد كانت تريزا تسألنى فى هذا الصباح بالذات عنك ، قائلة : لماذا لم نعد نرى المستر ماكنتوش ! » . وشعر برجفة خفيفة اذ تصور نفسه زوجا لابنة هذه السـيدة الوطنية العجوز . **فقد كان المعروف عنها أنها تتحكم فى زوجها برغم دمه الابيض ، وتقبض عليه بيد من حـديد . فكانت السلطة سلطتها ، وكانت هى الرأس المفكر المدبر للعمل..وقد**



لا تكون أكثر من المسز جرفيس فى نظر البيض ، ولكن والدها كان زعيماً من الدم الملكى ، وقد كان أبوه وجده يحكمان كملكين!

وأقبل التاجر وكان يبدو ضئيلا بجوار زوجته .. كان رجلا أسمر ، ذا لحية سوداء أخذ المشيب يدب فيها ، وعينين جميلتين ، وأسنان ناصعة البياض . وكان بريطانيا قحا ، كما كانت لغته انجليزية عامية . ولكنك تشعر بأنه يتكلم بالانجليزية كلغة أجنبية ، اذ كان يتكلم مع أسرته بلغة أمه التى كانت من أهل الجزيرة .. وكانت تبدو عليه علامات الخضوع والخوف والذلة . وقد رحب بماكنتوش قائلا : « آه يامستر ماكنتوش ، أنها لمفاجأة مبهجة حقا ! .. احضرى لنا الويسكى يا تريزا ، فلسوف يتناول المستر ماكنتوش جرعة معنا ! » .

وأخذ يروى جميع أخبار (آبيا) ويرقب عينى الضيف فى الوقت ذاته ، ليعرف الحديث الذى يروق له . وما لبث أن سأله : « وكيف حال ووكر ؟ .. اننا لم نره فى الايام الاخيرة ، وسوف ترسل له المسز جرفيس خنزيرا رضيعا فى يوم ما ، خلال هذا الاسبوع ! » . وقالت تريزا : « لقد رأيته عائدا على جواده هذا الصباح » . وقدم جرفيس الويسكى لماكنتوش ، فشرب هذا كأسه ، بينما جلست السيدتان تتأملانه : الام هادئة متشامخة — فى ثوبها الاسود — وتريزا تحاول أن تبتسم كلما وقعت عينها على عينه .. بينما كان التاجر يثرثر دون أن يتعب !

وقال جرفيس : « يقولون فى آبيا أن الوقت قد اقترب لكى يعتزل ووكر الخدمة ، اذ أنه لم يعد صغير السن ، وقد تغيرت الاحوال منذ حضوره الى هذه الجزر ولكنه لم يتغير معها ! » . وقالت الرئيسة العجوز : « انه يتمادى .. والاهالى غير راضين ! » . فضحك التاجر قائلا : « لكم كانت مسألة الطريق مضحكة . وعندما رويتها للقوم فى (آبيا) قهقهوا جميعا حتى كادت جنوبهم أن تنفجر .. يا لووكر الكهل ! »

فنظر اليه ماكنتوش بحدة ، وحار فى تعرف ما كان التاجر يعنيه بكلامه عن ووكر بهذه الطريقة . فقد كان ووكر بالنسبة لتاجر من أم من الأهالى « مستر ووكر » . وكان ماكنتوش على وشك أن يوجه لوما مقذعا من جراء هذه الوقحة . ولكنه لم يعرف ما الذى منعه !

وقال جرفيس: « آمل أن تحل محله يا مستر ماكنتوش اذا ما ذهب . فأنت تفهم الاهالى ، وقد أصبحوا متعلمين ، ولا بد من معاملتهم بطريقة تختلف عن ذى قبـل .. أن الحاجة تدعو الآن الى مدير متعلم ، ولم يكن ووكر غير تاجر مثلى ! ».

فلمعت عينا تريزا ، بينما تابع والدها الحديث قائلا : « وثق أنه لو كان هناك أى شىء يمكن الانسان هنا أن يفعله ـ عندما يحين الوقت ـ فسوف نفعله . وسأجمع كل الزعماء ، ونذهب الى آبيا لنقدم التماسا ! »

وشعر ماكنتوش بغثيان شديد ، فما سبق له أن فكر فى أنه قد يخلف ووكر اذا حدث لهذا المدير شىء ، وأن لم يكن ثمة شخص ـ فى مركزه الرسمى ـ يعرف الجزيرة كما كان يعرفها هو . فنهض فجأة ، وخرج عائدا الى الدار ، دون أن يحيى مضيفيه تقريبا . فلما بلغها ، قصد الى غرفته رأسا ، وألقى نظرة خاطفة على مكتبه ، ثم نبش ما عليه من أوراق ونقب خلالها وتحتها ..

ولم يكن المسدس موجودا ! .. ودق قلبه بعنف ، حتى كاد يخرج من بين ضلوعه . وأخذ يبحث عن المسدس فى كل مكان ، ففتش المقاعد والادراج . وكان يبحث بيأس ، اذ كان يوقن من أنه لن يجده ! .. وفيما كان كذلك ، سمع صـوت ووكر الجهورى الخشن ، يسأله قائلا : « ماذا تفعل يا ماك ، بحق الشيطان ؟ » . فجفل ماكنتوش اذ وجد ووكر واقفا بالباب ، وتحول بغريزته ليخفى الاشياء الملقاة على مكتبه . بينما قال ووكر فى حيرة : « هل ترتب أشياءك ؟ .. لقد طلبت اسراج

الفرس فى المركبة ، اذ أننى ذاهب الى (تافونى) للاستحمام
ويحسن بك أن تأتى أنت كذلك ! »

ووافق ماكنتوش ، فما كان من المحتمل أن يقع لووكر شىء طالما كان هو معه . وكان المكان الذى يقصدان اليه يبعد نحو ثلاثة أميال ، وفيه بركة من الماء العذب يفصلها عن البحر حاجز رقيق من الصخر ، كان المدير قد نسفه لكى يتيح للاهالى منطقة للاستحمام .. وقد فعل مثل هذا فى مناطق كثيرة حول الجزيرة ، لا سيما فى البقاع التى كانت تجرى فيها جداول .. وكان الماء العذب يبدو باردا منعشا ، اذا قورن بماء البحر الدافىء اللزج !

وسارا فى الطريق المعشوشب الساكن . وكانت المركبة تمر بين الحين والآخر فى مخاضة من المخاضات الكثيرة التى شق البحر طريقه اليها بين القرى . وكانت الاكواخ المبنية على شكل الاجراس متناثرة على أبعاد متسقة وفى وسطها الكنيسة البيضاء الصغيرة . وعندما وصلا الى القرية الثالثة ، ترجلا من المركبة وأوثقا الفرس ، ومشيا الى البركة . ورافقتهما أربع فتيات أو خمس ، ونحو ستة من الاطفال . **وسرعان ما كان الجميع فى الماء يلعبون ويتصايحون ويتضاحكون ، بينما أخذ ووكر يسبح رائحا غاديا ــ وكأنه خنزير بحرى ضخم ــ وهو يداعب الفتيات بفجور ، فيغطسن تحت الماء ، ويحاولن الافلات كلما حاول الامساك بهن ..** حتى اذا تعب ، جلس على صخرة ، فسرعان ما تلتف الفتيات والاطفال حوله ، وكأنهم أفراد أسرة سعيدة . وكان الكهل يبدو بضخامته وهلال الشعر الابيض الذى فى مؤخرة رأسه ، وصلعته اللامعة ، كاله من آلهة البحر .. ولقد فاجأه ماكنتوش مرة وفى عينيه نظرة رقيقة غريبة ، وما لبث أن قال : « انهم أطفال أعزاء ، ينظرون الى كما لو أننى كنت أباهم ! »

وتحول الى احدى الفتيات فأبدى لها ملاحظة بذيئة أسلمت

الجميع الى نوبات من الضحك . وأخذ ماكنتوش يرتدى ملابسه ، فبدا بساقيه الرفيعتين وذراعيه النحيلتين ، هيكلا مضحكا ، أشبه بدون كيشوت ، مما جعل ووكر يطلق عليه دعابات قاسية قوبلت بضحكات مكتومة . وأخذ ماكنتوش يناضل كى يرتدى قميصه ، وهو يعرف أنه يبدو فى مظهر مضحك .. وكان يكره أن يكون موضع سخرية ، فوقف يحملق فى صمت ! .. وما لبث أن قال لووكر : « اذا شئت أن تعود فى موعد العشاء ، فعليك بالتعجيل ! »

ـ أنك لست فتى شريرا يا ماكنتوش ، وانما أنت غبى .. فبينما تكون منهمكا فى عمل ، اذا بك تريد أن تعمل شيئا آخر . وليست هذه بالطريقة المثلى للحياة !

ولكنه ـ مع هذا ـ نهض ببطء ، واستوى على قدميه ، وأخذ فى ارتداء ملابسه . ثم عادا الى القرية وشربا قدحا من « الكافا » مع زعيمها . وما لبثا أن عادا بالعربة الى دارهما بعد وداع مرح من جميع القرويين الكسالى . حتى اذا فرغا من تناول طعام العشاء ، أشعل ووكر سيجارا ، واستعد كعادته للخروج فى جولة . وما أن لاحظ ماكنتوش هذا ، حتى تملكه الخوف فجأة ، وقال : « ألا ترى أنه ليس من الحكمة أن تخرج الآن فى الليل وحدك ! »

فاستدار ووكر وتفرس فى وجهه بعينيه الزرقاوين المستديرتين وقال : « ماذا تعنى بحق الشيطان ؟ »

ـ تذكر حادث السكين منذ ليال ، لا سيما بعد أن أثرت هؤلاء الناس وأغضبتهم !

ـ انهم لا يجرؤون على شىء البتة !

ـ لقد تجرأ أحدهم من قبل ..

ـ كان ذلك من قبيل الارهاب ، ولكنهم لن يؤذونى ، فهم ينظرون الى كأنى والدهم ، ويعرفون أن كل ما أفعله لمصلحتهم .

وكان ماكنتوش يراقبه ويشعر نحوه باشمئزاز ، وقد غاظه

اعتداد الرجل بنفسه . ومع هذا ، فقد كان هناك شيء — لم يدرى كنهه — يدفعه الى الالحاح . فقال : « تذكر ما حدث صباح اليوم !.. انك لن تضار اذا بقيت فى البيت الليلة فقط، وسوف ألعب الورق معك ! »

— سألعب معك عندما أعود .. لم يخلق بعد بين هؤلاء الاهالى من يستطيع أن يحملنى على تغيير خططى !

— اذن يحسن أن تدعنى أذهب معك

— بل ابق حيث أنت !

فهز ماكنتوش كتفيه ، اذ أنه أنذر الرجل انذارا تاما . فاذا كان قد أغفله فهذا شأنه . ووضع ووكر القبعة على رأسه وخرج . وبدأ ماكنتوش يقرأ ، ولكنه رأى فجأة أنه قد يكون من الخير أن يثبت وجوده فى ذلك المكان . فنهض ودخل المطبخ منتحلا ذريعة لدخوله ، وظل يتحدث بضع دقائق مع الطاهى ، ثم أخرج « الجراموفون » ووضع اسطوانة عليه .. وبينما كانت نغمات الاغنية اللندنية المرحة تتردد ، كانت أذنه مرهفة لسماع صوت فى وسط هذا الليل .. وظلت الاسطوانة تدور عند كتفيه ، ونغماتها تعلو فى صـــوت أجش . ومع ذلك فقد خيل اليه أنه محاط بصمت شيطانى . وكان يسمع هدير الامواج الرتيب الممل على الشاطىء ، وتأوهات النسيم تنبعث من بين أوراق شجر جوز الهند العالية .. والى متى يطول هذا ؟ .. ياله من شىء رهيب !

وسمع قهقهة خشنة ، وصوت ووكر يقول : « ان العجائب لا تنقطع، فليس من عادتك أن تسمع اسطوانات يا ماكنتوش!» .. وكان ووكر يقف فى باب الشرفة ، ووجهه أحمر يشيع فيه السرور . ومضى يقول : « ها أنتذا ترانى حيا . ولكن .. لماذا كنت تدير الجراموفون ؟ » . ودخل الى القاعة ، وهو يقول : « هل أعصـــابك متوترة ، فأدرت الجراموفون لتروح عن نفسك ؟ »

ـ لقد كنت أسمع لحن جنازتك !

ـ وما هو بحق الشيطان ؟

ـ انها أغنية : « نصف من البيرة المرة وقدح من الاستاوت » !

ـ انها أغنية جميلة ، لا أمل سماعها فى أغلب الاوقات . والآن .. اننى على استعداد لان أستولى على نقودك فى لعب الورق !

ولعب الاثنان ، وشق ووكر طريقه الى الربح بالخداع والتهريج والسخرية من أخطاء ماكنتوش ، والمراوغة والتهويش .. وأخيرا ، استعاد ماكنتوش رباطة جأشه ، واستطاع أن يشعر بتسرية اذ راح يراقب هذا الكهل المتغطرس .. وكان يعلم أن « مانوما » يجلس فى مكان ما ، يتحين فرصته !

* * *

وظل ووكر يربح اللعبة بعد الاخرى . وفى النهاية ، وضع ما كسبه فى جيبه وهو جذل فرحان ، وقال لماكنتوش : « يجب أن تكبر سنا قبل أن تستطيع مجاراتى فى اللعب يا ماك ، لانى فى الواقع موهوب بالسليقة فى لعب الورق ! »

ـ لا أعرف أن من المواهب أن يأتى اليك الورق جزافا !

ـ الاوراق الرابحة تأتى للاعب الماهر ، ومع هذا فقد كان فى استطاعتى أن أكسب لو لعبت بورقك !

واخذ يروى قصصا طويلة عن مختلف المناسبات التى لعب فيها الورق مع لاعبين مشهورين باتقانهم للعب وتوسلهم بالاحتيال والنصب ، فكانت النتيجة أنه أخذ منهم كل أموالهم . وظل يفخر ويزهو ويمدح نفسه ، وكان ماكنتوش يصغى باهتمام ، لانه يريد أن يغذى كراهيته له ، فكانت كل كلمة يقولها ووكر وكل ايماءة منه تزيد فى بغضه له . وأخيرا نهض ووكر وتثاءب بصوت عال وقال : « سأذهب للنوم لان أمامى

يوما طويلا غدا ! »

ـ ما الذى ستفعله ؟

ـ سأذهب الى الجانب الآخر من الجزيرة . ولذلك فسأخرج فى الساعة الخامسة صباحا ، ولا ينتظر أن أعود فى موعد العشاء ، بل سأعود فى ساعة متأخرة !

وكانا يتناولان طعام العشاء عادة فى الساعة السابعة مساء .

فقال ماكنتوش : « فليكن العشاء فى الساعة السابعة والنصف ! »

ـ أظنه موعدا مناسبا

وراقبه ماكنتوش وهو ينفض بقايا التبغ من غليونه ، فاذا حركاته خشنة وحيويته طاغية . وكان من الغريب حقا التفكير فى أن الموت مسلط فوق رأسه .. وما لبثت أن لمعت فى عينى ماكنتوش الباردتين الكئيبتين ابتسامة باهتة ، وقال : « هل تحب أن آتى معك ؟ »

ـ لماذا بالله أحب ذلك ؟ .. أننى سأستخدم الفرس ، ويكفيها أن تحملنى ، وهى لا تود أن تجرك فى طريق طوله ثلاثون ميلا !

ـ لعلك لا تدرك تماما ما هو الشعور السائد فى (ماتوتو) ، وأعتقد أنه من الخير أن أذهب معك !

فانفجر ووكر ضاحكا فى استهتار ، وقال : « انك لخليق بأن تكون ذا نفع كبير فى أى مأزق . أما أنا فلست أجيد اطلاق الساقين للريح ! » . وهنا انسابت الابتسامة من عينى ماكنتوش الى شفتيه ، فاذا بهما تختلجان بشدة . وقال باللاتينية : « من أراد الله أن يقضى عليه ، بعث الغرور فى نفسه ! » . فتساءل ووكر : « ما هذا بحق الجحيم ؟ » . فأجاب ماكنتوش وهو يغادر المكان : « عبارة لاتينية ! »

وأخذ يضحك فيما بينه وبين نفسه ، وقد تغير مزاجه .

لقد بذل كل ما كان فى وسعه ، وأصبحت المسألة ـ بعد هذا ـ فى يد القدر !

ونام ماكنتوش فى هذه الليلة نوما عميقا لم يستمتع به منذ أسابيع . وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى خرج الى الفضاء . وشعر بعد هذه الليلة الطيبة ببهجة كبيرة لبرودة هواء الصباح المبكر . وتراءى له البحر أكثر زرقة ، والسماء أكثر صفاء منها فى أغلب الايام ، والريح رطبة . وكانت ثمة قشعريرة تسرى فى سطح البركة كلما مس النسيم ماءها ، فبدت كمخمل جرت عليه الفرشاة فى اتجاه عكسى . وشعر بنفسه أقوى وأكثر شبابا من ذى قبل . وبهذا بدأ عمله اليومى بحمية ونشاط . وعاد الى النوم بعد الغداء . فلما كان الاصيل ، أسرج الجواد ، وقام بجولة خلال الشجيرات . **وخيل اليه أنه يراها بعينين جديدتين . وشعر بأنه فى حال طبيعية أكثر من ذى قبل ، وان كان الغريب فى الامر أنه استطاع أن يقصى ووكر عن تفكيره ، كأنما لا وجود له فى حياته !**

وعاد فى أواخر الاصيل ، وهو يشعر بالحرارة بعد هذه النزهة بالجواد . فدخل الحمام مرة أخرى ، ثم جلس فى الشرفة يدخن غليونه ، ويرقب النهار وهو يتراجع ويختفى وراء البحيرة .. كانت البحيرة تبدو جميلة للغاية فى وقت الغروب ، بفضل ما كان يضفيه عليها الغروب من ألوان وردية وقرمزية وخضراء . وشعر بالهدوء ، واطمأن ، وارتاح للعالم ولنفسه . وعندما جاء الطاهى يعلن أن طعام العشاء قد أعد ، ويسأله عما اذا كان يرجىء اعداد المائدة ، ابتسم له ماكنتوش بود ، ثم نظر الى ساعته وقال : « انها الآن السابعة والنصف ، فلا داعى للانتظار ، اذ ليس بوسع أحد أن يحدس متى يحضر الرئيس » . فأومأ الطاهى برأسه . ورآه ماكنتوش يجتاز الفناء حاملا وعاء مملوءا بالحساء ، يتصاعد منه البخار . فقام بتكاسل ، وذهب الى غرفة الطعام ، وتناول عشاءه .

ترى هل وقع الحادث ؟.. كان عدم التأكد مثيرا للاهتمام ، فأخذ ماكنتوش يضحك فى نفسه فى صمت ، لا سيما وان الطعام لم يبد رتيبا كالعادة . ومع أنه كان يضم قطعا من السجق - وهو صنف يلجأ الطاهى الى تقديمه عندما تخونه قوة الابتكار - الا أن السجق لاح - فى هذه المرة - لذيذا ، طريا ، حريفا ! .. حتى اذا انتهى من تناول العشاء نهض ومشى يتهادى الى كوخه ليحضر كتابا ، وقد أحب الهدوء الشامل ، لا سيما وقد أخذ الليل يخيم ، وبدأت النجوم تتألق فى السماء .. وصاح يطلب مصباحا ، فلم تمض لحظة حتى جاء الصينى يدب على قدميه الحافيتين . وتبدد الظلام بالنور الذى ترامى من المصباح الذى حمله .

ووضع الخادم المصباح على المكتب ، وتسلل بغير صوت خارجا من الغرفة . واذا بماكنتوش يقف فجأة وكأنه تسمر فى مكانه ، فقد رأى بين الاوراق المتناثرة مسدسه . فأخذ قلبه ينبض فى ألم ، وتصبب العرق منه .. اذن فقد وقعت الواقعة !

والتقط المسدس بيد مرتعشة ، فرأى أن أربعة خزانات من خزانات رصاصه فارغة . ووقف فترة لا ينبس ببنت شفة ، ثم وجه بصره فى شك الى الليل البهيم ، ولكنه لم ير أحدا . فأسرع ووضع أربع رصاصات فى الخزانات الفارغة ، ودس المسدس فى درج مكتبه ، وجلس ينتظر ! .. ومرت ساعة ، ثم أخرى ، دون أن يحدث شىء . وجلس الى مكتبه وكأنه يكتب ، ولكنه لم يكتب ولم يقرأ ، وانما ظل ينصت وقد أرهف أذنيه لعله يسمع صوتا آتيا من بعيد . وأخيرا سمع وقع خطوات مترددة ، فعرف أن صاحبها هو الطاهى الصينى ، فناداه : « آه سونج ! »

وجاء الخادم فوقف لدى الباب ، وقال : « لقد تأخر الرئيس كثيرا ، وأصبح الطعام غير ملائم ! » . فتفرس ماكنتوش

فيه ، وساءل نفسه : **أترى الطاهى يعرف ما حدث ؟ .. وهل سيدرك ــ عندما يعرف ــ نوع العلاقة التى كانت بينه وبين ووكر ؟ .. ولكن الطاهى الصينى كان يعمل فى صمت وخفة ، والابتسامة مرتسمه على شفتيه . ومنذا الذى يستطيع أن يجزم بما يدور فى خلده ؟**

وقال ماكنتوش أخيرا : « أعتقد أنه تناول العشاء فى الطريق ، ولكن عليك أن تحتفظ بالحساء ساخنا ، على أية حال ! »

* * *

وما أن انتهى ماكنتوش من قوله هذا ، حتى انقطع حبل الصمت المخيم ، اذ سمعت أصوات مرتبكة ، وصيحات ، ووقع خطوات سريعة لاقدام عارية . ودخل لفيف من الاهالى الى الفناء ــ رجالا ونساء وأطفالا ــ فازدحموا حول ماكنتوش ، وتحدثوا جميعا فى وقت واحد . فكان حديثهم غير مفهوم .. كانوا مهتاجين ومذعورين .. وكان بعضهم يبكى ! .. فشق ماكنتوش طريقا وسطهم ، وذهب الى الباب . **ومع أنه لم يفهم كلام الاهالى ، الا أنه كان يعرف تماما ما حدث . وما أن وصل الى الباب ، حتى وصلت ــ فى الوقت ذاته ــ مركبة جلس فيها شخصان يحاولان أن يحملا ووكر . وقد أحاط بالمركبة بعض الاهالى ، كما كان أحدهم يمسك بمقود فرس «ووكر» ..** وأقتيدت الفرس الى الفناء ، وجرى الاهالى وراءها ، فصاح بهم ماكنتوش ليوقفهم . وظهر الشرطيان فجأة ، ولا يعلم الا الله من أين أتيا ، وأخذا يدفعان الاهالى بعنف ويبعدانهم .

وفهم ماكنتوش من الاحاديث المختلطة أن بعض الصبية كانوا يصيدون السمك ، وبينما هم فى طريق عودتهم الى قريتهم ، التقوا بالمركبة ، وكانت الفرس ترعى . ولم يستطيعوا أن يتبينوا فى الظلام غير جسد المدير الضخم المتشح بالبياض غارقا بين المقعد ومقدمة المركبة ، فظنوا فى بداية الامر أنه

مخمور ، فأخذوا ينظرون بحزن ، ولكنهم سمعوه يئن ، فاعتقدوا أن فى الامر شيئا . **وهرولوا الى القرية طالبين النجدة ، وعندما عادوا ومعهم نحو خمسين شخصا ، اكتشفوا أن ووكر مصاب بالرصاص !**

وتملكت ماكنتوش موجة من الرعب فجأة ، وساءل نفسه : هل مات الرجل ؟ .. ولكن ، كان لا بد من نقله من المركبة قبل كل شيء . وكان الامر عسيرا ، نظرا لضخامة « ووكر » . وقد اقتضى رفعه من المركبة تعاون أربعة رجال أقوياء . وعندما اهتز جسده ، أطلق صرخة مكتومة ، فعرف الجميع أنه لم يزل حيا . فحملوه ودخلوا به المنزل وصعدوا الى الطابق الاعلى ، حيث وضعوه فى الفراش . وهنا تمكن ماكنتوش من رؤيته ، فقد كان كل شيء يبدو غير واضح فى الفناء الذى لم يكن مضاء بغير ستة من المصابيح التى تستخدم فى الاماكن الخلوية .. **وكانت ثياب ووكر البيضاء ملطخة بالدماء ، وقد أخذ الرجال الذين حملوه يفركون أيديهم ليزيلوا ما لصق بها من دماء لزجة ، يمسحونها فى مآزرهم .**

ورفع ماكنتوش المصباح .. ابدا لم يتوقع أن يرى ووكر فى مثل هذا الشحوب .. وكانت عيناه مغلقتين ، ولكنه كان يتنفس ، كما كان نبضه محسوسا ، وان تجلى أنه كان يعالج سكرات الموت ! .. واستولى الرعب على ماكنتوش . ورأى الكاتب ــ الذى كان من أبناء الجزيرة ــ فطلب بصوت أحاله الذعر أجش ، أن يذهب الى الصيدلية ويأتى بمعدات الحقن .. واحضر أحد الشرطيين زجاجة من الويسكى ، فصب ماكنتوش قليلا منها فى فم الكهل ..

وكانت الغرفة مزدحمة بالاهالى الذين جلسوا على الارض فى هلع ، لا ينبسون ببنت شفة ، وان راح يصدر من أحدهم ــ بين الحين والآخر ــ عويل مرتفع . واشتدت حرارة الجو ، ولكن ماكنتوش شعر بالبرد ، فاذا يداه وقدماه باردة كالثلج

.. وراح يبذل مجهودا عنيفا ، لكى لا تدب القشعريرة فى جميع مفاصله . ولم يكن يدرى ماذا يفعل ، لا ولا كان يعرف ما اذا كانت الدماء لا تزال تنساب من ووكر ، واذا كانت كذلك فانه لم يكن يدرى كيف يوقف النزيف !

وأحضر الكاتب ابرة الحقن ، فقال له ماكنتوش : « أحقنه أنت ، فانك أكثر منى مرانا على هذا العمل ! » . وراح يعانى من دق عنيف فى رأسه ، وكأن أشياء ضارية تجاهد محاولة الخروج من يافوخه . وأخذ الجميع يرقبون أثر الحقنة .. **ولم يلبث ووكر أن فتح عينيه فى بطء .. ولاح أنه لم يعرف أين كان ! .. وقال ماكنتوش : « الزم الهدوء ، فأنت الآن فى دارك ، وفى أمان تام ! » . فارتسم على شفتى ووكر شبح ابتسامة ، وقال فى همس : « لقد ظفروا بى ! »**

— سأحمل جرفيس على ارسال زورقه البخارى الى (آبيا) فى الحال ، ولن ينتصف النهار غداً حتى يكون الطبيب قد حضر .

وسادت فترة صمت طويلة ، أجاب بعدها الكهل : « سأكون قد مت عندئذ ! » . وتبدى الجزع على وجه ماكنتوش الشاحب ، ولكنه تظاهر بالضحك وقال : « ما هذا الهراء ؟ .. التزم الهدوء ، وسوف تتحسن سريعا ! »

— اعطنى شرابا ! .. جرعة قوية !

فصب ماكنتوش — بيد مرتعشة — قدرا من الويسكى ، ومثله من الماء ، وظل ممسكا بالكأس بينما راح ووكر يشرب بلهفة . والظاهر أن الجرعة أنعشته ، فأطلق زفرة طويلة ، وبدأ شىء من الحمرة يدب فى وجهه المكتنز الضخم . وشعر ماكنتوش بأنه عديم الحيلة الى أبعد حد ، فوقف وأخذ يحملق فى الكهل . ثم قال : « لو أنك أبلغتنى ماينبغى أن أفعل لفعلته ! »

— ليس هناك مايعمل غير أن تدعنى وشأنى .. فقد انتهيت !

وكان منظره يدعو الى الشفقة ، وهو مسجى على الفراش

الكبير بجسده الضخم المترهل ، وقد بدا شاحب اللون ، ضعيفا الى حد تدمى له القلوب . وعندما استراح ، ظهر أن عقله قد صحا الى حد ما ، اذ قال : « **لقد كنت على حق يا ماك اذ حذرتنى !** »

ـ ألا ليتنى ذهبت معك !

ـ أنك فتى طيب يا ماك ، وعيبك الوحيد هو أنك لا تشرب الخمر !

وسادت فترة أخرى طويلة من الصمت ، ثم اتضح أن ووكر كان يحتضر من جراء نزيف داخلى . ولم يصعب على ماكنتوش برغم جهله أن يدرك أنه لم يبق فى عمر رئيسه أكثر من ساعة أو ساعتين ، فوقف بجوار الفراش جامدا ، دون حراك . وظل ووكر نحو نصف ساعة راقدا ، مغلق العينين . وأخيرا فتحهما ، وقال ببطء : « **سيمنحونك منصبى ، وقد قلت لهم فى المرة الاخيرة ـ التى ذهبت فيها الى آبيا ـ انك صالح .. فاتمم الطريق الذى بدأته ، فاننى أحب أن أتصور أنه سينتهى بأكمله ، ويدور حول الجزيرة !** »

ـ لست أريد منصبك ، ولسوف تتحسن حالك !

فهز ووكر رأسه فى عناء وقال : « اننى أخذت نصيبى .. عاملهم برفق ، فان هذا أمر مهم .. انهم أطفال ، ويجب أن تذكر هذا على الدوام ! .. يجب أن تكون حازما معهم ، ولكن من الواجب أن تكون رفيقا بهم ، وأن تكون عادلا كذلك ! .. اننى لم أجن من ورائهم بنسا واحدا ، ولم أقتصد مائة جنيه فى العشرين عاما التى قضيتها فى خدمتهم ! .. ان الطريق شىء عظيم ، فاتممه ! »

وصدر عن ماكنتوش ما يشبه التنهد . بينما واصل ووكر حديثه : « انك فتى طيب يا ماكنتوش ، وقد أحببتك على الدوام ! » . وأغلق عينيه فظن ماكنتوش أنه لن يفتحهما بعد ذلك . وكان يشعر بجفاف فى فمه ، حتى أنه تاق الى أى

شراب .. ووضع الطاهى الصينى مقعدا له فى هدوء ، فجلس بجوار الفراش وانتظر .. ولم يدر كم من الوقت انقضى عليه فى هذه الجلسة ، وكأنما لم تكن لليل نهاية .. وفجأة ، أصيب أحد الجالسين بنوبة من التشنج لم يستطع لها كبتا ، فأخذ يجهش بالبكاء بصوت عال وكأنه طفل . وعندئذ فطن ماكنتوش الى أن الغرفة كانت مزدحمة بالاهالى ، وقد جلسوا جميعا متربعين على الارض — رجالا ونساء — يحملقون فى الفراش . فصاح : « ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا ؟ .. ليس هذا من حقهم ، فاخرجوهم ! .. اخرجوهم ! .. اخرجوهم ! »

والظاهر أن هذه الكلمات أيقظت ووكر ، اذ فتح عينيه مرة أخرى ، وأراد أن يتكلم .. ولكنه كان ضعيفا ، حتى لقد اضطر ماكنتوش الى أن يرهف أذنيه ليلتقط ما كان يقول : « دعهم يمكثوا ! .. انهم أبنائى ، وينبغى أن يكونوا هنا ! »

فاستدار ماكنتوش الى الاهالى وقال : « امكثوا .. فهو يريد ذلك ... ولكن اجلسوا فى صمت ! » .. وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه ووكر ، وهمس : « أقترب منى ! » . فمال ماكنتوش عليه .. وكانت عينا الرجل مغلقتين ، والكلمات تخرج منه وكأنها تنهدات الريح خلال أشجار جوز الهند ! .. وقال : « اعطنى جرعة أخرى من الشراب ، فان لدى ما أريد أن أقوله ! » . فاعطاه جرعة من الويسكى لم يخففها بالماء .. واستجمع ووكر قواه ، وبذل فى ذلك آخر مجهود فى جعبة ارادته ، ثم قال :

— لا تحدث ضجة من أجل حادثتى هذه ، ففى عام ١٨٩٥ — عندما قامت الاضطرابات ، واغتيل البيض — جاء الاسطول وضرب أتقرى بالقنابل ، فقتل كثيرون ممن لم يكن لهم ناقة ولا جمل فى الامر .. ان رجال الحكم فى (آبيا) أغبياء ، واذا أقدموا على شيء ، فسوف لاينزل عقابهم بغير الابرياء .. لست أريد معاقبة أحد !

وسكت برهة ليستريح ثم قال : « يجب أن تقول انها حادث لا يلام أحد عليه .. عدنى أن تفعل هذا ! »

ـ سأفعل كل ما تريد !

ـ يا لك من فتى طيب .. أنت من خير الناس .. وهم أطفال ، وأنا أبوهم ، والاب لا يدع أطفاله يقعون فى المآزق اذا وسعه ذلك !

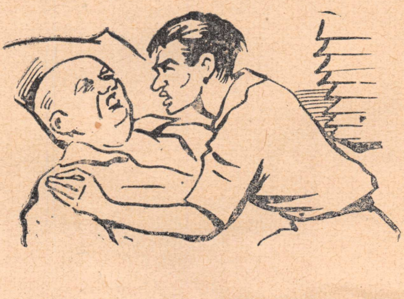
وصدر من حلقه ما يشبه الضحكة وقال : « انك رجل متدين يا ماك ، فما رأيك فى الصفح عنهم ؟ »

وظل ماكنتوش برهة لا يحير جوابا ، وشفتاه ترتجفان .. وأخيرا قال :

ـ هل يغفر لهم لانهم لا يعرفون ما يصنعون ؟

ـ أجل .. فليغفر لهم ! لقد احببتهم ... وكنت ـ كما تعلم ـ أحبهم على الدوام !

وتنهد .. وراحت شفتاه تتحركان ببطء ، مما اضطر ماكنتوش الى وضع أذنه على مقربة منهما ، لكى يستطيع السمع .. وكان ووكر يقول : « امسك يدى ! » . فشهق ماكنتوش ، وخيل اليه أن قلبه كاد يتوقف .. وأمسك بيد الكهل ، فاذا هى باردة وضعيفة وخشنة .. وظل ممسكا بها الى أن قفز فجأة من مقعده ، عندما سمع حشرجة طويلة ..



وكانت حشرجة مخيفة ، رهيبة ! .. ثم مات ووكر !

وأخذ الاهالى يصرخون بأصوات عالية ، والدموع تجرى على خدودهم . وراحوا يضربون صدورهم بأيديهم

وخلص ماكنتوش يده من يد الرجل الميت ، وسار مترنحا — وكأنه مخمور — حتى خرج من الغرفة ، فسعى الى الدرج المغلق فى مكتبه ، وأخذ منه المسدس . **وقصد نحو البحر ، ثم سار الى البركة ، وأخذ يخوض الماء فى أناة وحذر ، حتى لا يتعثر فى صخرة مستترة . وظل هكذا الى أن بلغت المياه ابطيه . واذ ذاك وقف ، وأخرج المسدس ، وأطلق رصاصة على رأسه !**

وبعد نحو ساعة ، كانت أسماك القرش السمراء تتخبط وتتقاتل فى البقعة التى سقط فيها !

((تمت))

راجع مكتبتك الخاصة ، لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ العالمية ، التى قدمتها لك ((مطبوعات كتابى)) فى أعدادها السابقة .. انها ثروة أدبية لاتقدر بمال ، فاحرص على اقتنائها ، واجعل منها كنزا تورثه أبناءك .. واطلب ماينقصك من أعداد من ادارة ((كتابى)) ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو، بالقاهرة ـ راجع الاسعار فى ص٤

اعترافات جان جاك روسو **(٥ أجزاء)**	
قصص من الصين	أروع نماذج لادب الصينى
ليالى بلزاك **(ألف ليلة وليلة الفرنسية)**	أونوريه دى بلزاك
الالياذة **(٣ أجزاء)**	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة **(جزءان)**	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
دم .. وخمر !	ليو تولستوى
تحت ظلال الليلا	مبرورة سامى

مزيد من الكتب التى صدرت بها الاعداد السابقة من ((مطبوعات كتابى)) .. أنظر القائمة فى الصفحة التالية

« مطبوعات كتابى »

السلسلة الوحيدة التى تقدم لك دائما الترجمة الكاملة الامينة للشوامخ الادبية العالمية

قصة مدينتين
ذات الثوب الابيض
الخالدون
الخاطئة
حياة امرأة **(جزءان)**
الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم
أوديب
مدام بوفارى **(جزءان)**
عاشقات فى الخريف
قلوب ضالة
ديكاميرون **(ألف ليلة وليلة الايطالية)**
الظمأ للحب
جين اير **(٣ أجزاء)**
فاتنات الرجال
رجال ونساء
الثأر للوطن
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل
الابن الضال
أسرار الجاسوسية
بيلا دونا **(٣ أجزاء)**
بوشكين

تشارلس ديكنز
ويلكى كولينز
ديل كارنيجى
سومرست موم
جى دى موباسان
ألبرتو مورافيا
سوفوكليس واندريه جيد
جوستاف فلوبير
ستيفان زيفايج
طاغور
جيوفانى بوكاشيو
ميكا والتارى
شارلوت برونتى
مارجورى كورجين
جوركى
جون شتاينبك
أدوين جون ديفيز
هنرى بوردو
برنارد نيومان
روبرت هتشنز
ليديا لامبير

فى الصفحة السابقة تجد مزيدا من أسماء الكتب التى صدرت بها « مطبوعات كتابى »

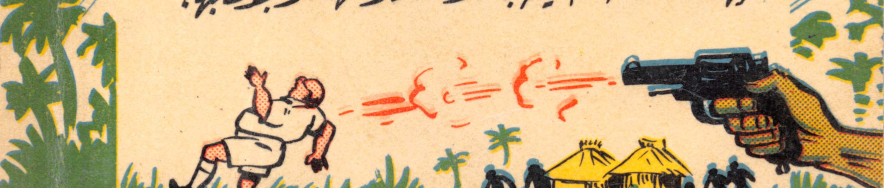


اشتهر الكاتب العالمى الصيت "سومرست موم" بأنه يغوص فى أعماق النفوس، ليحللها ويصورها على حقيقتها، دون أن يحكم على ما فيها من سوء أو طيبة .. وبأنه بعد أن قرأ كثيراً، خرج إلى الدنيا، يجوب بلدانها، ويجرب بنفسه كل ما يعرض للنفس البشرية من ملاذ وآلام .. ومن كل هذا، استخلص مادة قصصه، ولعل أروعها هى:

أرواح هائمة في الأدغال

من ألياف الواقع وخيوط الخيال، نسج الكاتب الكبير هذه اللوحات التى تمثل أسمى ألوان الحب، إلى جانب أعتى الغرائز البهيمية .. ونواحى النبل الإنسانى - التى قد تعثر عليها فى أبسط النفوس البدائية الساذجة - إلى جانب أنذل ما خلقه جشع الاستعمار فى نفس الإنسان الأبيض من ضراوة خرجت به عن مدنيته .. بل خرجت به عن إنسانيته!

إنها مادة رائعة، خليقة بالخلود .. الخلود لها .. والمجد لكاتبها!



يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩